إصدار متميز
Special Edition

روايات
د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي

رأس الشيطان

HEAD OF SATAN

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا







الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: 20242106060+
Email:daralsahoh@gmail.com

عالم المعرفة
الجزائر
Email : alem

رأس الشيطان

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ١١٣٦٨/٢٠١٢

الترقيم الدولى
978-977-255-396-9



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

[١]

القصر الكبير يبدو تحت جنح الظلام وكأنه قلعة حصينة، والصمت الرهيب يسود أرجاءه الفسيحة، فلا يكاد المرء يسمع صدى لحركة أو صوت، والأضواء الخافتة التى تنبثق فى أبهائه وحجراته توحى بالجمود والملل، والخدم لا يتكلمون إلا فى همس لا يكاد يسمع، والخطوات الوجلة- التى تنتقل فى خوف وحذر- تتتابع مرتجفة واجفة، والستائر الثمينة المسدلة فوق النوافذ والأبواب والشرفات تنبئ عن ثراء وعز وترفع، وتحيط جو القصر بالغموض والأسرار..

وخلف القصر امتدت حديقة كبيرة مليئة بأشجار المانجو والجوافة والعنب والموالح، يسورها سور من الأسلاك الشائكة يحرسه الرجال والكلاب والاسم الكبير.. اسم صاحب القصر «عثمان باشا»..

الريح تصفر فى الخارج وكأنها غضبة الطبيعة، والقمر

يختفى خلف قوافل السحب التى تزحم السماء، والبرد قارس يجمد الأطراف، وثلاثة رجال يزحفون نحو باب القصر الكبير، على هيئة مثلث رأسه إلى الأمام ويمثل ناظر العزبة، وعلى يساره ويمينه خفيران يتبعانه كظله، وقد علقا فى كتفيهما بندقيتين طويلتين. . والثلاثة يسرعون فى خطوهم قلقين خائفين، والناظر يتمتم فى إشفاق: «يا سابل سترك يا رب».

وفى حجرة الاستقبال الفخمة ذات الأثاث الفاخر، المفروشة بالبساط العجمى، والتى يتدلى من سقفها الثريات الثمينة، كان يجلس عثمان باشا فى صمت عاصف، ملامح وجهه مكفهرة غاضبة، وعيناه الزرقاوان يتطاير منهما الشرر، وسيجار إنجليزى ملتصق بزاوية فمه لا يكاد يفارقه، وشعره الرمادى المتنفش تنتصب خصلاته النافرة فوق رأسه، وكأنها رأس شيطان، وعباءة مشتعلة الحمرة تنسدل فوق جسده الضامر. . كان كنمر عجوز مهزوم. .

ووقف «محروس أفندى» ناظر العزبة- أمام الباشا مطأطئ الرأس خاشعًا، يتمتم بلا صوت، وكأنه يؤدى الصلاة وشعائرها أمام الشيطان الجالس فوق أريكته العالية، وانبعث صوت الباشا هادرًا:

- أيها الثعلب. . أرأيت ما حدث؟

- أى شىء يقصد معالى الباشا؟

فانطلقت من فم الباشا قهقهة مقبضة دون أن يغادر السيجار الإنجليزى زاوية فمه وقال فى سخرية مرة :

- حين تتغابى علىّ أحس فعلاً أن الغبى هو أنا . . ربما يفلح خبثك ولؤمك مع أولئك الفلاحين المتمردين الذين يعيشون هناك على مرمى البصر مع حيواناتهم فى حظيرة واحدة . . أليس كذلك؟

فقال الناظر فى نبرات متقطعة لاهثة :

- عفواً . . معالى الباشا . .

- أيها الوغد . . يا ذا الوجهين . . أنا لا أحب الضعفاء ولا المخادعين .

- نحن خدمك . . أمرك مقدس واجب التنفيذ . .

فقاطعه الباشا قائلاً :

- إنى أكره هذا الكلام . . أسمعه منكم دائمًا . . حتى خيل إلىّ أنكم جميعًا أدواتى التى أحركها كيف أشاء، وأنه ليس أمامى مستحيل، فإذا ما جد الجد، وحانت التجربة، تبين لى أن نفوسكم ملتوية خربة . . مثل جحور الثعابين . . ألم تقل لى بالأمس إن الدائرة كلها ملك يمينى، وإن لجان الاقتراع سوف تغص بمؤيدى حزبى . . حزب «الشعب» الجديد؟؟ تكلم . .

ماذا كانت النتيجة؟ لجان الاقتراع ظلت خاوية طول النهار . . وضحكات السخرية والازدراء تنطلق من أفواه هؤلاء الفلاحين الحيوانات . . ماذا أقول لصدقى باشا وأنا المرشح ضمن وزرائه؟! هل أقول له إن محروس أفندى - خيبه الله- قد خدعنى؟ ومن أنت أيها الحشرة حتى أعزو إليك هذه السخريات الحقيرة؟ لو لم يكن أبوك - الله يجحمه- عاش فى خدمتنا عشرات السنين، لشنقتك على قارعة الطريق . .

واحتقن وجه الباشا من أثر الانفعال الذى سيطر عليه، وفاضت نفسه بالغضب والثورة، ونحى عباءته الحمراء فى عنف، ثم استجمع قواه، وبصق فى وجه محروس أفندى وهو يهدر :

- إننى أبصق فى وجهك يا حشرة . .

وفى نبرات كالضراعة إلى الله، انبعث صوت محروس :

- معالى الباشا . . إننى أتوسل إليك . .

فلم يلتفت الباشا إلى لهجته الطافحة بالألم والعذاب، بل استطرد قائلاً :

- قل ماذا فعلت؟؟

- لم أكف عن العمل يا سيدى . . بذلت الوعود لكل

سكان القرى المجاورة . . تبرعت لبناء المساجد . . أغدقت على الفقراء . . أقسمت الأيمان المغلظة بأن معاليكم سوف يجد عملاً لكل متعطل، ولقمة لكل جائع ، وسوف يخفض إيجارات الأراضى المزروعة . . المياه لن تنقطع المزروعات طول العام، وأسعار القطن سوف ترتفع . . والمدارس والمستشفيات سوف يوضع أساسها هذا العام . . طرقت كل باب يا معالى الباشا . . وفى الصباح كانت عربات معاليكم تجوب القرى والكفور لتحمل المقترعين إلى اللجان، وهتافاتهم كالرعد القاصف . .

وارتجت الحجرة بضحكات الباشا العالية ، وارتجفت أوصال الناظر من جديد وخرس لسانه عن النطق، بينما قال عثمان باشا :

- كلام جميل . . والنتيجة؟

- النتيجة . . النتيجة . . أ . . أ . .

- أنا أعرفها يا محروس أفندى لم يذهب معك إلا فلاحو العزبة . . تمامًا كما يحدث كل مرة . . وهؤلاء الأوباش لو علموا لهم مصدر رزق غير عزبتنا لما ذهبوا معك . . إن الحقد يملأ نفوسكم جميعًا . . إنى أجلس هنا فى قصرى وأتصور كل ما يحدث . . حفظتكم عن ظهر قلب . . كنت أتوقع هذه النتيجة . .

ورقت لهجة الباشا فجأة، وغادره حنقه وثورته، وبدا كالنبع الرقراق الوادع، وأضاءت وجهه المتغضن ابتسامة واسعة، كانت مثار اندهاش وحيرة بالنسبة لمحروس أفندى، ونحى عن فمه سيجاره الإنجليزى، وأعاد حبك العباءة الحمراء فوق كتفيه وجسده، وقال ساخرًا:

– هذه الحيوانات العجفاء قد حيرنى أمرها.. لكم تساءلت بينى وبين نفسى من يكون هؤلاء الفلاحون بالنسبة لى؟؟ لا صحة ولا مال ولا قوة أو عصبية.. لكنهم مع ذلك مشاغبون.. قد أمسك بتلابيب أحدهم وأشوى جلده بالسياط وهو يتأوه ويتألم ويستغيث، وتبدو الهزيمة فى عينيه الفارعتين.. لكن هناك شيئًا لا أنتصر عليه يا محروس أفندى.. شىء حيرنى أمره، لأنى لا أستطيع أن أقبض عليه بأصابعى.. أعنى مشاعر البغض والحب التى تستقر فى ضمائرهم وأرواحهم.. هذه لا أستطيع أن أصل إليها، ولا يمكننى تغييرها..

وأطرق الباشا برأسه مفكرًا، دوامة عنيفة من الأفكار والذكريات تثور فى ذهنه المتعب المكدود، هذه الانحناءات التى يلتقى بها جانب الطريق انحناءات زائفة، وتلك الابتسامات الشاحبة التى تستقبله إذا مشى مجرد خداع ورياء، وذلك الأمن الذى يعيش فى ظلاله الوارفة أكذوبة كبرى،

لطالما انتظر الكلمة الجميلة «نحن نبايعك نائبًا عنا» لكنها لم تبلغ مسمعيه أبدًا، اشترى كل شيء بماله ونفوذه إلا شيئًا واحدًا عجز عنه تمام العجز، وجعله في قصره العتيد الجبار ذي الأسوار كتمثال أجوف تنحني له الجباه دون عقيدة أو إيمان . . لشد ما تزعجه هذه الطقوس الزائفة، وعلى الفور عادت إلى ذهنه صورة «الدكتور ضياء الدين» أو كما يسميه الفلاحون «المسيو ضياء»، هذا هو عدوه اللدود، وخطورته تكمن في أنه مثقف . . ذكي . . لا يخاف . . نبت من الطين بين الفلاحين، وعاش مشاكلهم ومآسيهم، فعرف كيف يعزف اللحن المؤثر الجميل، ويرضي قلوبهم العطشى، ومعداتهم الجائعة . . هذا الوغد، عاد من باريس بعد دراسته القانونية هناك يحمل رسالة التمرد والثورة . . إني لأتخيله وهو يندس في الأزقة والحارات؛ والحقول، ويسخر من حزب الشعب، ويندد بالخونة وأذناب الإنجليز . . ثم يدعوني الإقطاعي المتعجرف . . هذا المسيو ضياء هو الذي أفسد الطبخة . .

وأفاق الباشا إلى نفسه، وتلفت حواليه، الضوء الخافت يكفن الحجرة الفاخرة الأثاث، والمدفأة تحولت نارها إلى رماد، وقطة نظيفة جميلة قد نامت عند موطئ قدميه إلى جوار ترحيله لا يدخنها، ومحروس أفندي يقف منحنيًا بهيكله المرتجف، وكأنه لم ينته من صلاته الضالة بعد . .

وتمتم الباشا فى هدوء :

- لا عليك يا محروس أفندى . . المسألة أبسط مما تتصور . . لم يزعجنى إلا تمرد هؤلاء الكلاب وعصيانهم . . لكنهم لن يغيروا من الواقع شيئًا . . المسألة متفق عليها سلفًا مع صدقى باشا . . غدًا تعلن النتيجة . . وستعلم أن ممثل حزب الشعب بالدائرة . . عثمان باشا . . قد فاز بأغلبية ساحقة وسيكون وزيرًا . .

واندفع محروس أفندى كالمجنون، واختطف يد الباشا ليقبلها، وهو يقول في عبارات مختلطة . . متعثرة :

- ألف مبروك يا معالى الباشا . . ألف مبروك . .

لكن الباشا سرعان ما سحب يده، وصرخ فى حدة :

- لا . . لن تقبل يدى . .

- ولم تحرمنى هذا الشرف؟

- لأنك أضعف من أن أثق بك . .

- وكيف أحوز ثقتك يا باشا؟

- بشى واحد . .

- ما هو؟؟

- لن يكلفك غير خمسة قروش. . وقلب رجل شجاع. .

- أنا طوع أمر معاليكم.

ورفع إليه الباشا عينين نافذتين كعينى ثعبان شرس، وقال فى هدوء يخفى فى طياته نذر العاصفة:

- يجب أن يموت الدكتور ضياء الدين. هذا الوغد لا أريد أن أسمع صوته. . ولا أصطدم بمرآه. . إنه يجثم فوق روحى كالكابوس المزعج. فما رأيك؟؟

فقال محروس أفندى متلعثمًا:

- لكن. . لكنى أخاف الله. .

فرد الباشا، وضحكة شيطانية تنبعث من بين شفتيه:

- ألم أقل لك إن المسألة تحتاج لقلب رجل شجاع يا محروس أفندى؟

- القتل حرام. .

- أيها الأبله. إنك لا تخاف الله بقدر ما تخاف أولئك الفلاحين الذين تعلقت قلوبهم بزيف كلامه، ووده الكاذب، ولسانه الذرب، والمبادئ الحالمة التى يحدثهم عنها. . المساواة. . العدالة. . الحرية. تكافؤ الفرص. . الخبز للجميع. . أنسيت أن مثل هذا الرجل يثير الاضطراب

والفوضى فى المنطقة، فيعرض أمنها للخطر، ويتسبب فى إراقة الدماء؟ إنه رأس الفتنة، إذا انتهى عاد السلام، وتدفقت ألوف الفلاحين، فى المرة القادمة نحو صناديق الاقتراع. . وانتصر حزب الشعب. . ثم لك بعد ذلك أن تطلب ما تشاء، لو رغبت فى ابنتى لزوجتها لك. . فماذا قلت؟

الريح تصفر فى الخارج كأنين صاخب ملتاع، وصفعاتها تتوالى فوق جدران القصر ومدخنته الخلفية التى لم يزل يندفع منها الدخان، والحجرة التى تضم الباشا والناظر يغلفها الشحوب والتوتر. . كأنها زنزانة من جحيم، والناظر يبدو كمن انتهى من صلاته الآثمة، ورفع عينين مخضلتين بالدموع، تطل منهما الرهبة والفزع، وتمتم:

- سيدى. . لا أستطيع.

- لماذا؟

- لأنى لم أفعلها قط. .

- أيها الساذج لا تفعلها بنفسك. . أليس لديك رجال؟

- الرجال ملكك. . عبيدك. . أما أنا فلا أستطيع. . إنى أخاف الله. .

وارتعش شارب الباشا، ونظر طويلاً إلى الناظر ثم تمتم:

- هل تحبه؟ . . تكلم بصراحة . . لا تخف .

- أنا لا أكرهه . .

- يخيل إلىّ أنك تتجاهل عداءه لى . . وأنت ساعدى الأيمن . .

- بل أمقت ذلك أشد المقت . . لكنى لا أستطيع قتله . .

***

قطرات قليلة من المطر تتساقط وتلامس وجه محروس أفندى، وهو يهرول خارجًا من الجحيم . . من القصر الكبير، وأنين الريح العاصفة لم يزل يطن فى أذنيه، والأرض الخضراء، أرض الباشا، تمتد إلى بعيد، إلى المجهول الذى يصبغه الظلام، وقلب محروس يدق دقات متلاحقة كأنها تتسابق فى ساحة رهيبة للرهان، والرأس الأشعث ذو الخصلات الرمادية، والعينان الزرقاوان، والسيجار الإنجليزى المرتكز عند زاوية الفم . . والعبارات الملتهبة الثائرة التى تفوه بها الباشا، كلها تعشش فى رأس محروس، وتعصف بتفكيره، وتجعل رأسه يدور . . يدور حتى أوشك أن يصاب بالغثيان والدوار . . وبدت له البيوت القميئة، والأكواخ المتراصة على شاطئ الترعة تحت ضوء القمر الباهت وكأنها طفلة غريرة تنام فى سكون

وسلام، وإلى جوارها ذئب أحمر الأنياب يتربص بها الدوائر . .

والتفت محروس إلى الخفيرين اللذين يرافقانه :

- اذهبا إلى أماكنكما . . أما أنا ففى طريقى إلى بيتى .

لكنه لم يقصد بيته كما زعم، بل عرج على بيت الدكتور ضياء الدين وهو غارق فى طوفان من المشاعر الإنسانية الكبيرة، تلك المشاعر التى كادت تموت فى عامين قضاهما ناظرًا لعزبة الباشا بعد موت أبيه . . كانت على شفتيه كلمة يريد أن يصبها فى أذن ضياء . . لأنها تتصل اتصالاً وثيقًا بحياته . . كإنسان . . كإنسان كبير لا يصح أن يموت .

□□□

[٢]

كان النوم لم يزل عالقًا بأهدابه، وابتسامة مشرقة حلوة تضفى على ملامحه ثقة وأمنًا وأملاً، وعينان صافيتان تضيئان بالإيمان العميق، والحب المشع، وحركات تتسم بالخجل، وعبارات ترحيب تنساب رقيقة ندية من بين شفتين نظيفتين، وقال الدكتور ضياء الدين:

- لشد ما فرحت بزيارتك هذه يا عم محروس.

ودهش ضياء حينما رأى «محروس» يرفع إليه عينين دامعتين محتقنتين ويقول:

- لن أخون العهد.. شيخى رجل يعرف الله.. وقد بايعته على ألا أرتكب الكبائر ولو دفعت حياتى ثمنًا لذلك.. العهد غال يا ضياء يا ابنى وأبوك رحمه الله كان رجلاً صالحًا. كان أبًا حانيًا لجميع الفلاحين وهو قاض.. ثم وهو محال على المعاش.. ويوم مات بكينا بدل الدموع دمًا.. وسار موكبه مهيبًا جبارًا إلى المقابر.. ياله من مشهد حسده عليه الأحياء..

وأخرج ضياء من جيبه صندوق سجائره، وقدم واحدة إلى عم محروس وهو يقول: «سجائر عربي لذيذة. .» وتناول الناظر واحدة بيد مرتعشة ثم أشعلها في ارتباك، وأخذ ينفث دخانها في عصبية، وضياء لم يزل يبتسم في رقة، ويواسيه في وداعة، مؤمنًا أن وراء محروس أمرًا يكربه، ويهيج مشاعره، ولم يكن هذا بالجديد على ضياء، الناس جميعًا في القرية يعيشون في مأساة أزلية ممتدة إلى بعيد، والأزمات تأخذ بخناقهم. ولا يكاد يأتي ضياء إلى القرية في إجازة صغيرة إلا وتتدفق عليه جموعهم، يلفون بين يديه بآلامهم ومشاكلهم ودموعهم، وكلها تمضي على وتيرة واحدة «الباشا لا يرحم في إيجارات الأرض. . الباشا أخذ منهم القطن كله. . العيال بدون طعام أو ملابس. نحن نعيش في ظلم وظلمات. . وضياع» كلمات طالما سمعها منهم ضياء، وطالما أكربته وبعثت في نفسه الحسرة، وأثارت ثائرته، ولا يجد في النهاية غير مسكن واحد. «الصبر طيب. . يعدلها ربنا. .» لكنه كان في قرارة نفسه يوقن تمام الإيقان، أن هذا المسكن ليس الحل الوحيد، كان يؤمن أن الحق يؤخذ بعنف إذا لم يعطَ في هوادة ورضا، وأن هذا الجيش من الفلاحين يستطيع أن يبني لنفسه حياة رغدة. . كريمة. . بالرغم من قسوة عثمان باشا وجبروته ورجاله الغلاظ الأكباد، وكثيرًا ما كان يثور، ويقول لهم:

«انتزعوا حقوقكم من أفواه الذئاب . . عثمان باشا فرد وأنتم آلاف . . » لكنه يعود إلى هدوئه على الفور، ويفكر فى غير عجلة، ويرسم للمستقبل فى هدوء . .

وأفاض ضياء إلى الرجل الجالس أمامه، والذى ينفث دخان سيجارته فى عصبية ظاهرة، ترى لماذا طرق بابه فى هذا الوقت المتأخر من الليل وهو على هذه الحالة من السوء والانفعال حتى أن الدموع تكاد تنهمر من عينيه؟، هل لديه هو الآخر مآس ومشاكل مثل أهل القرية والعزبة وهو ناظر العزبة ذو الجاه والصولجان والذى يستمد سطوته وقوته من صاحب القصر الكبير؟

وجاءه صوت محروس صارمًا:

- متى تسافر؟

- غدًا . .

- سافر غدًا . . ولا تعد . .

واختلط الأمر على ضياء، وانتابته حيرة مربكة، الناس فى القرية يتشبثون بأذيال ثوبه، ويطلبون منه أن يبقى بينهم أطول مدة ممكنة، ليرفه عن نفوسهم المتعبة اليائسة، ويمد لهم فى حبال الأمل، ويبشرهم بحياة طيبة فى المستقبل لهم ولأبنائهم، وينير بصائرهم بالمعرفة والتوجيه، ثم يأتى ناظر العزبة فى

صورة محيرة ويطلب منه الرحيل، أهذه أوامر الباشا؟؟ ليقل الباشا ما شاء لخدمه ورجاله، أما أنا فليس للباشا أن يأمرنى، قصره الكبير لا يخيفنى، وكلابه الشرسة لا تبعث الرعب إلى قلبى، هذا ما فكر فيه ضياء عندما تناهت إلى سمعه عبارة «سافر غداً. . ولا تعد». . إن الذين بنوا «الباستيل» فى فرنسا لأعدائهم، وملئوه بالعنف والخشونة والحديد والنار، نزلوا به مقهورين أذلاء ذات يوم، ووضعوا أيديهم وأرجلهم فى أغلاله وقيوده. . وأنا لا أخاف الباشا. .

– أهكذا مللت مقامى سريعًا يا عم محروس؟

قالها ضياء فى رقته المعهودة، والحب الرقراق ينبثق من عينيه الصافيتين، فجاءه صوت الناظر صارمًا جافًا:

– سافر غداً ولا تعد.

– أمرك. . لكنى أريد أن أفهم السر.

وشهق عم محروس باكيًا، وقذف بعقب السيجارة من بين أصابعه، ثم اندفع صوب ضياء، واحتضنه فى ود شديد، وأغرق وجهه الحليق بقبلاته وهو يتمتم: «حرام أن تموت. . إنهم ينوون إراقة دمك. . وأنت طاهر ابن طاهر، وتقول كلمة الحق، وهذا عيبك الوحيد الذى يدينك. . وشيخى علمنى أن قتل النفس الطاهرة ذنب كبير، تضج لهوله السماوات والأرض. . ».

وهاجت مشاعر ضياء، وأوشك هو الآخر أن يبكى، وأدرك لأول وهلة أنه الآن أقوى من الباشا ومن أرضه ونفوذه ورجاله وسلاحه، محروس أفندى ركل المال والإغراء، ونسى الباشا . . من أجل ضياء الأعزل . . الفقير الذى لا يشترى أحدًا ولا يرهب إنسانًا .

وقال ضياء :

- لكن ما الذى أحنق معاليه؟

- لجان الاقتراع الخاوية . . والسخريات التى لحقت حزب الشعب المزعوم . . وتعريضك به وبحزبه وتعسفه .

- حدث هذا منى فعلاً . . لكن النتيجة مصنوعة . . صنعها الملك والإنجليز وصدقى . . وسوف ينتصر حزب الشعب كذبًا وزورًا . . وسيكون عثمان باشا واحدًا من الكبار الحاكمين، وستكون مصر عزبة كبيرة له . . فماذا يكربه إذن؟

- الشىء الذى لا يشترى بمال، أو ينتزع بالتهديد . .

- ماذا تعنى؟

- قلوب البشر . .

***

وخرج محروس من لدن ضياء، كان يتحسس الطريق

بأقدامه المتعبة، ورأسه مرفوع إلى أعلى فى اعتداد ورضا، ونباح كلاب القصر يمزق سكون الليل البارد، ويتناهى إلى سمعه معربداً شرساً، والرياح العاصفة قد سكنت أو كادت، وخفت أنينها الملتاع، وثغرة فى السحاب المتراكم تركت الفرصة للقمر كى يسفر عن وجهه الباسم الوضاء، وريح رخية تشبه ريح الجنة تلامس وجهه وعينيه المخضلتين بالدموع، وتبعث فى حطب الأسطح وأشجار التوت المتناثرة هنا وهناك وشوشة واهنة. . وذكرى أعوام تمر بمخيلته كالشريط السينمائى، ليس فيها غير الانحناءات والصلوات الآثمة فى محضر الباشا، وجمع الإيجار، وسوق الفلاحين إلى ساحة القصر لسماع أوامره، والمؤامرات العديدة وسياسة القمع والإرهاب، وخيول الباشا إذا مرضت. . وبهائمه التى ولدت، وأكياس القطن وعددها. . ومحافل ومسامر ومأدبات يفد إليها أقوام غرباء- ضيوف الباشا والسيدة الكبيرة- يلهجون بألسنة ملتوية، وينطقون عبارات غريبة لا تفهم، ويقهقهون بطريقة أقرب ما تكون إلى التأوهات والخنوع، وسهرات حمراء بالقصر الكبير يختلط فيها الرجال بالنساء، وتتعالى الصيحات فى غير وقار أو حشمة. . سنوات سوداء كوجه الشيطان ليس فيها لمحة من نور إلا وجه الشيخ «الشاذلى» وهو يتوسط جموع الذاكرين والمتصوفين، وزيارات ضياء الدين الخاطفة حيث

يؤمه الكثيرون، ويضعون أمام بصره كثيرًا من علامات الاستفهام التى استغلق عليهم الإجابة عنها . .

وعاد عم محروس بنظراته الواهنة إلى حيث يثوى القصر الكبير تحت ضوء القمر وكأنه بقعة كبيرة من صدأ فى صفحة فضية . وتنهد فى ألم . .

- متى ينطلق من إسار هذا السجن الرهيب؟ وكيف؟ عثمان باشا واهب الأرزاق وحامل السوط، يعطى بالشمال ويضرب باليمين، وسجنه عتيد غليظ الأسوار لا يكاد يفلت منه أحد . . تركى خبيث مغرور لا يتهاون ولا يطأطئ رأسه لا يعترف بالهزيمة . وأنا . . وأبى وأولادى من زمن بعيد نطلق البخور فى ساحة قصره، ونجبى له الخراج، ونتحرك كقطع الشطرنج بين أصابعه . .

وأحس عم محروس أن روحه قلقة متعبة بعدما تعرض له من انفعال وتغيير شامل هذه الليلة، وبالرغم من تصرفه البطولى الذى أقدم عليه إلا أنه شعر بدبيب الخوف يتسرب إلى نفسه المعذبة . . وكيانه الذى يحترق . . أنه فى مسيس الحاجة إلى إنسان يأخذ بيده، ويمسح عن عينيه الدموع، وينفى عن نفسه القلق، ويبعث فى قلبه السكينة والأمن قبل أن يفكر فى النوم الليلة . .

واتخذ سمته صوب بيت الشيخ الشاذلى، هناك على مائدته طعام، وفى محضره خشوع واطمئنان، وإلى جواره رجال يتعبدون وينشدون ويسرفون فى سكب الدموع كما يسرفون فى التبتل والدعوات، والصلاة قائمة دائمًا لمن يشاء.. بابه مفتوح بالليل والنهار، وهناك أيضًا أطفال ينامون أو يغالبون النوم، يقلدون ويشاركون فى الطقوس فى براءة وطاعة وكأنه أمر لا بد منه.. كالطعام والشراب مثلاً..

ودخل دون استئذان، وصوت رجل مجذوب يهيم فى ظلام الليل:

يا واخد العهد صونه

واوعى تفرط فيه

العهد غالى يا ولدى

ومرسومة الجلالة فيه

وأمام الشيخ جلس، وتناول يدًا رطبة ندية كتفاح الجنة، وأغرقها بالقبلات والدموع، وتمتم الشيخ فى حنان:

- طالت غيبتك يا محروس..

- وطال شوقى إليكم يا أهل الأشواق.

- ترى أين كنت؟ خلف الأسلاك الشائكة؟

وقال محروس فى نبرة تنطق بالمرارة والعذاب :

- ركعت لغير الله .

- أستغفر الله . .

- وملأنى الخوف من عبد الله أكثر من خوفى من الله . .
وطال صمت الشيخ كما طال انتظار محروس ، وأخيراً قال :

- هل مات الأمل؟

- إنه خالد يا ولدى لا يموت . . لأنه من الله . . تقول ركعت لغير الله؟ واأسفاه . . لا بد أن يد شيطان قد حنت ظهرك على الرغم منك . . جدد إيمانك وحذار أن تصلى لغير الله . . إن اليد الباغية التى أرغمتك على الركوع ليست بالنسبة إلى الله شيئًا . . قل معنا : «الله أكبر كبيراً . . والحمد لله كثيراً . . وسبحان الله بكرة وأصيلاً «قلها معنا ألف مرة . . » .

وأخذ الشيخ يصفق بيديه فى إيقاع ، والرءوس تتمايل مع الإيقاع الرتيب ، وأنفاس الذاكرين تتصاعد فيما يشبه الهمس مرددة عبارة الشيخ ، ومحروس معهم وقد غاب عن عالمه وذكرياته التعسة ، وانمحت من رأسه صورة الرأس الشيطانية ذات الخصلات الرمادية ، والعينين الزرقاوين والبريق الرهيب . . وشىء كالسلام . . والإيمان نزل بردًا وطمأنينة على قلبه الحزين . .

□□□

[٣]

ألقت «صفاء» بجسدها فوق الكرسى، ثم أسندت رأسها إلى راحتيها، وشردت إلى بعيد، لم يكن يخفى القلق المرتسم فى عينيها السوداوين الواسعتين، والبادى فى طرقعة أصابعها من آن لآخر، والتنهدات التى تفلت منها دون أن تنتبه إلى نفسها، وإلى يمينها -على مسافة ثلاثة أمتار- جلس زميلها الصحفى «بركات الزنارى» بعينيه الضيقتين الحذرتين، وسحنته السمراء التى تخفى انفعاله. كان ينظر إليها خفية من آن لآخر، ويصر على أسنانه فى حنق، لكنه فى الوقت ذاته يحاول جاهداً أن يبدو طبيعيًا، ويمسك بقلم يخطط به فى أوراق أمامه تخطيطات لا معنى لها، وبالرغم من أنه كان يجلس وليس فى رأسه إلا «صفاء» الوادعة الجميلة التى تنفر منه دائمًا، ولا تحس نحوه إلا أحاسيس الزمالة فى العمل، بالرغم من أنه مشغول بها كل الانشغال إلا أنها كانت فى واد آخر غير واديه.. كانت تفكر فى الدكتور ضياء الدين سكرتير

تحرير الجريدة، . . لماذا اختفى هكذا فجأة ليومين مضيا دون أن تعرف طريقه؟ إنها تحس نحوه بالذات إحساسًا غريبًا مقلقًا، يحتل فى ذاكرتها حيزًا كبيرًا، تنام وتصحو وصورة الشاب الوسيم الرقيق ذى النظارات البيضاء القادم من باريس، تملأ حياتها . . أجل عاد من باريس رجلاً ناضجًا لم يلتو لسانه بلكنة فرنسية، ولم تندثر معالم شرقيته وعروبته فى أخلاقه وتصرفاته وقيمه الخالدة، دائمًا يبدو نظيفًا سلسًا لم يعربد أو يمجن، يتحدث دائمًا عن أشياء كبيرة لا تتصل به مباشرة كشاب طامح ذى مصالح، وإنما ترتبط بآمال الآخرين من أبناء شعبه، صريح فى هدوء، جرىء فى رقة، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً . . ترى أين ذهب ضياء؟؟ لا شك أنه فى قريته، لو كان بينها وبينه من الصلة الوثيقة ما يجعلها تفاتحه فى شئونه الخاصة لعرفت أين ذهب على وجه التحقيق، لكنها خجولة وهو خجول، لا يتبادلان سوى الكلمات العابرة، وتحيات الصباح المألوفة . . لكن قلبها لا يكذبها مطلقًا. «إن فى عينيه الصافيتين شيئًا ما يا صفاء، ونبراته الرطبة الحنون تحمل أكثر من معنى . . وإشراقة وجهه التى يقابلك بها دائمًا تعبر عن مكنون ذاته . . .».

ودق جرس التليفون، ولم تصحُ «صفاء» من أحلامها على رنينه المتصل بالرغم من أنه قريب منها، فلم يجد بركات

الزنارى مناصًا من أن يهم فى فتور ويغادر مجلسه ويمسك بالسماعة، وشرر الغضب يتطاير من عينيه الشديدتى البياض، وكأنما كانت نظراته الحانقة التى يوجهها إليها آنذاك سهامًا جارحة سرعان ما أيقظتها من أحلامها، وجذبت انتباهها إليه، ووثبت إلى رأسها فكرة، لماذا لا تسأل بركات عن ضياء الدين؟ إلى متى تظل خجلة صامتة، تطوى فى حناياها نارًا متأججة، سوف تسأله وهى تدارى انفعالها، ولن يلحظ بركات شيئًا من ذلك، فى معرض حديث طارئ تلقى بسؤالها عن ضياء ولن تنهد الدنيا أو تنطبق السماء على الأرض. لكنها بصرت ببركات وقد ارتبكت حركاته وتلعثم وهو ممسك بسماعة التليفون، ويقول:

- أهلاً معالى الباشا.. تشرفنا.. أجل.. لم يعد بعد.. أنا متأكد أنه ليس فى أى مكان بدار الجريدة.. حاضر.. عندما يعود سوف أتصل بمعاليكم فورًا.. مع السلامة.

ووضع بركات سماعة التليفون، والعرق الغزير يتقاطر فوق جبينه الأسمر اللامع، ولم يخف على «صفاء» أهمية الحديث التليفونى، فقالت وهى تتكلف ابتسامة متوترة:

- خيرًا..

فأجابها وهو منصرف إلى جلسته السابقة، مشيحًا بوجهه بعيدًا عنها:

– عثمان باشا يطلب سكرتير التحرير . .

– الدكتور ضياء الدين؟

فقال ساخرًا وهو يرمقها بطرف عينه:

– أجل . . لقد وقع صاحبنا ضياء على صيد ثمين . . معالى الباشا يطلبه . . لا شك أن وراء ذلك كسبًا كبيرًا . . والآن لنرى كيف تثبت مبادئه التى يتحدث عنها أمام مطالب الباشا الكبير . . إن خبرًا صغيرًا، وصورة لمعالى الباشا وبعض الدعايات تدر عليه أكثر من مائة جنيه شهريًا . .

وأفلت زمام صفاء على الرغم منها وقالت فى حدة:

– لماذا تسىء الظن هكذا؟ إن ضياء ليس من هذا النوع من الرجال . .

– سترين . .

وأدركت صفاء ما تورطت فيه من إفصاح عن مشاعرها ونواياها وهى الحريصة المغرقة فى الحرص، فندمت أشد الندم، وأطرقت صامتة لفترة، ثم عادت تقول:

– أنا لا أعرض بك، ولا أدافع عن ضياء . . معذرة، وإنما

قصدت أننا هنا فى دار الجريدة إخوة . . أو أصدقاء أعضاء فى أسرة واحدة .

فقال بركات وهو يشعل سيجارة :

- هذا صحيح . .

وعادت صفاء إلى أفكارها وذكرياتها عن ضياء ، وأخذت تتصوره وهو خلف مكتبه بالجريدة ، يبتسم للمحررين ، ويصحح لهم أخطاءهم لا يفرق فى المعاملة بين واحد وآخر ، كلهم أبناؤه -بالرغم من صغر سنه- فإذا ما انفرد بنفسه انكب على أوراقه يكتب فى صبر وأناة وإيمان ، رائحة كلماته ومقالاته يفوح منها الإخلاص والثقة ، يكره الإثارة والكذب والنفاق ، وإذا ما حمل إليه زميل وشاية أو قدح فى حق غيره ، لامه فى رفق ، وصده فى أبوة عميقة . «إن الكلمة المطبوعة لها قدسية . . وأنتم أيها الأصدقاء يجب أن تؤمنوا بشرف الكلمة وقداستها ، ولن تكونوا كذلك إلا إذا عف لسانكم عن الذم ، وترفعت نفوسكم عن الحقد ، والأنانية» هذا ما كان يقوله دائمًا . يا له من إنسان كبير . .

وذاب خجلها ، ووجدت نفسها تقول دون ارتباك أو تعثر :

- أظن سكرتير التحرير فى إجازة . .

فقال بركات دون أن يرفع رأسه عن أوراقه وقلمه والخطوط التى يبعثرها على الورق بلا معنى أو هدف :

- أجل.

- ومتى يعود؟

- اليوم فى المساء.. لقد سافر إلى قريته، وهى تقع فى زمام عثمان باشا إلى جوار عزبته. يا له من محظوظ. لا شك أن عثمان باشا قد كلفه ببعض المهام هناك حيث المعركة الانتخابية. والباشا عضو جديد فى حزب الشعب ومرشح صدقى هناك. الباشا يدفع الثمن دائمًا..

ولم تفهم «صفاء» كلمة واحدة مما تفوه به بركات، كأن يتكلم بسرع وعصبية وكأنه فى مناقشة حادة، وهى تطوف بخيالها حيث ضياء الدين، وتحلم بالمساء، والوجه المشرق الذى يعفره غبار السفر. والنظارة الزجاجية البيضاء وتحتضن عينيه اللتين تشيعان براءة وطهرًا، وجاءها صوت بركات ثائرًا:

- ألا تردين؟

- معذرة.. إن رأسى مصدع بعض الشىء.. لم أنم طويلاً الليلة..

فقال وهو يسحق عقب السيجارة فى طفاية زجاجية:

- أمر كبير يشغلك لا شك فى ذلك.

وحسبته يهذر، وابتسمت فى اصطناع، لكن صوته انبعث كالفحيح:

- إن هذه المثاليات الزائفة لا وجود لها إلا فى الأدمغة الفارغة، ولا تنطلى إلا على السذج والبلهاء..

وأدهشتها لهجته، وسرعان ما آبت إلى طبيعتها الموصدة ومشاعرها المغلقة، وبدا وجهها كتمثال جامد خالٍ من التعبيرات والانفعالات، وقالت فى برود كالثلج:

- ما مناسبة هذا الكلام..؟

- ضياء بك الذى تدافعين عنه..

- أنا لا أفكر فيه.. ولا أحب أن أدافع عنه.. وما شأنى به..

- أتقولين ذلك صادقة؟

- أرجوك..

كانت كغريق يبحث عن وسيلة للنجاة.. أية وسيلة حتى ولو تشبثت فى خضم القلق الرهيب الذى يعانيه، وبين أمواج الكراهية والغيرة التى تأكل كيانه، وتلهب روحه، وسرعان ما خف توتره، وهدأت أعصابه، وعاوده الأمل من جديد، وقال فى لهجة حانية تسيل عذوبة وضراعة:

- عزيزتي صفاء . .

فأدارت رأسها إليه في استغراب ، إنها لهجة لم تألفها منه من قبل ، ولم تجب ، بينما استطرد قائلاً :

- بركات إنسان طيب . . ذو قلب كبير . . و . . ويحبك بكل روحه . . ولهذا فهو يسلك السبيل الذي لا التواء فيه . . ويطلب يدك لنفسه . . فهل توافقين؟؟ قالها بركات واستراح . . استراح كثيراً . . كانت تثقل عليه من قديم ، وتلح عليه إلحاحًا غريبًا ، وأراد أن ينفجر بأية طريقة ، وكلما سكت تطورت الأمور أمام عينيه تطوراً مخيفًا ، فصفاء تنصرف عنه ، وإشعاعات حلوة تنبثق من ملامحها ما رأت ضياء ، وبركات يأكله الغيظ ، ويعذبه صبره وجواه .

- هيه . . ماذا قلت؟

قالها بركات في ذلة وانكسار . وبقي فمه مفتوحًا نصف فتحة ، وأخذ يترقب شفتيها الرقيقتين اللتين لا تعرفان الأصباغ . . وأيقن على الفور أن الأمر بالنسبة لها كان مفاجأة مذهلة . وهو أمر جد خطير ، فأراد أن يبدد الوجوم والارتباك اللذين أطبقا في المكان فقال :

- وأنت تعلمين أني زوج واقعي . . أشغل وظيفة حكومية إلى جانب عملي بالجريدة . . لا أعرف المقاهي ولا رفاق السوء .

ونظرت صفاء إليه، وصورة ضياء الدين ما زالت تشغل رأسها بسمته ونظارته وذقنه الحليق، ثم صورته وهو منكب فوق مكتبه يحبر المقالات من قلمه وروحه.. فقالت وهى تدارى انفعالها:

- هذا أمر سابق لأوانه لم أفكر فيه بعد.. ولدىّ من الظروف ما يجعلنى أؤجله إلى حين.

- حق ما تقولين، لكنى أريد وعداً.. مجرد وعد..

وقبل أن تجيب دلف «ساعى» رئيس التحرير إلى الصالة الفسيحة التى ليس فيها غير بركات وصفاء وقال:

- رئيس التحرير يطلبك يا ست صفاء..

ولم تحاول صفاء أن تتكلم، فقد كان طلب رئيس التحرير نجدة إلهية أنقذتها من الخناق الذى يحاول بركات أن يحبس أنفاسها به، فجمعت أوراقها فى سرعة وارتباك، وبركات يرمقها فى ذهول، وخطواتها تدق الأرض فى عصبية وشعور غريب يسيطر عليها.. كانت كمن يفر من ذئب يحاول أن يختطفها بين أنيابه..

***

ودخلت حجرة رئيس التحرير وهى تلهث. وكل شىء فيها ينطق بالقلق والألم المكبوت، وسمح لها رئيس

التحرير بالجلوس، وظل كما هو يدقق النظر فى بضع وريقات بيده، ويدق جرس التليفون، ثم يرفع السماعة لفترة قد تطول وقد تقصر، ويعود إلى وريقاته من جديد يتفحصها حتى ينبعث رنين التليفون مرة أخرى، وصفاء جالسة فى مكانها، وقد خفت حدة انفعالها، وتوقف لهاثها، لكنها لم تزل قلقة بشأن مقابلة رئيس التحرير لها . .

ونحى الرجل أوراقه جانبًا، ثم اعتصر جبهته بأنامله وتثاءب، ثم قال :

- لندخل فى الموضوع مباشرة . . ولنكن صرحاء . . إن تحقيقك الصحفى عن العمال ونقاباتهم فيه تحريض على الثورة . . إن كلمة عمال و حدها كفيلة بأن تلصق بك تهمة التطرف والفوضوية . . ثم لا تنسى يا عزيزتى أن فى البلد ملكًا . . وحكومة . . وإنجلترا . . و . . ورأس مال، وأنت تعرفين أن أصحاب رأس المال يستطيعون أن يسقطوا الحكومات . . ويغلقوا صحيفة هزيلة مثل صحيفتنا تلك . . أليس كذلك؟

فأطرقت صفاء برأسها دون أن تجيب، بينما استطرد رئيس التحرير قائلاً :

- وفى الأسبوع الماضى كتبت موضوعًا عن التصنيع ورأس

المال الأجنبى الذى يستغل ويطغى ويفسد كل شئوننا . . هذه مسائل خطيرة أكبر منك . . بل ومنى . . وأنا رجل مسالم . . أريد أن أعيش ، وأن تعيشوا أنتم أيضًا . . وتظل صحيفتنا تصدر كل صباح . . بالله ماذا تفعلون إذا وجدتم أنفسكم ذات يوم فى الشارع بلا عمل ولا حزب يحميكم؟ ألست معى فى أنها ستكون مأساة كبرى ، ولا سبب لهذه المأساة سوى تهورنا وحماستنا؟؟

وصمت رئيس التحرير برهة ، ثم سحب درج مكتبه وأخرج جملة ورقات فى حجم الفولسكاب ، وقال وهو يمد يده بها إليها :

- أعتقد أنك تفهمين الآن السر فى عدم نشر تحقيقك الصحفى الجديد الذى عنونته بكلمتى «مخالب القط» . . إن باشاوات القاهرة فى نظرك لصوص وخونة . . هذا كثير . . هل نسيت؟؟ لقد ألغى صدقى باشا دستور ١٩٢٣ . . وأتى بدستور جديد . . ولم يعد أحد يفكر بعد الآن فى قانون محاكمة الوزراء .

واستلمت صفاء المقال بيد مرتجفة ، وحنت رأسها مفكرة ، ولم يمهلها بل بادرها قائلاً :

- انظرى ما كتبه زميلك «بركات» . . النهضة الفنية الكبرى

فى عـهـد صـاحـب الجلالة . . وزميل آخـر كـتـب عن انتعـاش الحالة الاقـتـصادية فى ظل الدستور الجـديد . . حتى سكـرتير التحـرير الدكتـور ضياء الدين، لقـد تعلم اللف والدوران هو الآخـر، فـأودع مكتـبى مـقـاله الأخـيـر «نظرات فى الثـورة الفرنسية» . . لقد ترك الدستور الجديد والحالة الاقتصادية . وذهب بعيدًا . . لا أكتمك أن وراء مقاله أهدافًا عميقة وتحريضًا غير مباشر . . لكنها لباقة وحسن تصرف على أية حال . . ومع ذلك فلى كلمة أخيرة أهم من هذا كله . .

ورفعت رأسها إلى رئيس التحرير، فرأته يرمقها فى شىء من الشفقة والرقة ويقول :

– ما رأيك لو قمت بعملك فى الجريدة كسكرتيرة لى؟ لقد فكرت فى أن أنعم عليك بهذا العمل النظيف المريح الذى يبعد عنك كل مسئولية، ويجنبك المتاعب، أظنك لا تمانعين؟

ولم تدر صـفـاء بماذا تجـيب لكنهـا كـانت قـد أجـهـدت، وشعرت بقواها توشك أن تنهار، فتمتمت فى صبر نافذ :

– أمرك . .

□□□

[٤]

لم يسافر ضياء الدين فى اليوم التالى كما وعد عم محروس، شىء عنيد فى طبعه أرغمه على البقاء، قد يكون نوعًا من الكبرياء، أو لونًا من التحدى ومع ذلك فإن ضياء يسميه الحرية الشخصية، وليس لأحد الحق فى أن يرغمه على السفر، ولو كان الباشا نفسه، بل جريمة القتل التى بلغه نبؤها لن تثنيه عن عزمه أو توهى من عزيمته، إنه فرار من المعركة الصغيرة التى يحاول الباشا أن يشنها عليه، وضياء ليس جبانًا، ويحلو له دائمًا أن يحيا وسط العواصف والزوابع والأخطار التى يتعرض لها الفلاحون، أليس من العار والمهانة أن يبث الوعى بينهم، ويوقظ النائمين منهم ويوضح لهم حقوقهم وواجباتهم، ويحرضهم على العمل، والحياة الحرة الشريفة، ويحاول أن يحررهم من الخوف والخنوع، ثم يكون هو بعد ذلك أول الخائفين والخائنين؟؟؟ يا للمهزلة!! هنا أرض أبيه رحمه الله. عشرة أفدنة كاملة من أجود الأرض..

وها هنا أعـمامه وأخواله وباقى أفراد الأسرة، وخاصـة أخاه الأكبـر «الحاج رضـوان» مـأذون الناحـية، إنه فى بيت أبيـه، وضيف على أخيه. . وسط الفلاحين الذين يحبهم ويحبونه وسط الشعب الذى يؤمن بحقـه وجهـاده الشـريف وحـريتـه المهـدرة. . هنا مـادة قلمـه الذى يكتب به ووحى مـبادئه التى يدعو لهـا. . ولا يستطيع إنسان كـائنًا ما كـان أن يحرمـه النبع الذى يفيض بمادة قلمه، ومبادئ حياته. . لأنها سر وجوده، وأصل رسالته.

وما إن أذن الفجـر، حتى كان يسرع الخطى إلى المسجد، والأقدام الحافية المتشققة تدب فى الظلام، برغم برودة الجو، ولزوجة الطريق، والوجوه السمراء التى تشرق ملامحها كل صباح مع مشرق الشمس، لا يغرب عنها الأمل، ولا ينطفئ فـيـهـا بريق الحب والسـلام. . وانتظم الدكـتـور مـعـهـم فى الصـفـوف، وفيض من المشـاعـر الندية يغـرق كـيانه وروحـه، ويجعله لا يفكر فى شىء اسمه الموت أو الخوف. كـيف تنفذ إليه الرصاصات الغادرة وهو هكذا وسط كتلة صلبة من الأذرع والأجسـاد والقلوب الطيـبة؟ إن هذا السيـاج المنيع لا تسـتطيع رصـاصـات البـاشا أن تخترقه أبدًا. . ولو أطلقـهـا لارتدت إلى صدره هو. .

وتناول فطوره على عجل وأخبر أخاه أنه قد أجل سفره إلى

الغد، ثم خرج لتوه عبر الأزقة والشواع والحارات، وانحرف إلى الحقول يصاحبه بعض الأقارب، والقصر الكبير.. يربض من بعيد، وكأنه نتوء مقلق مزعج وسط الأرض الخضراء الممتدة فى بساطة وروعة وجلال، ومدخنة القصر ينبعث منها الدخان.. إنه يتصاعد دائمًا، يتلوى صوب السماء كثعبان أربد مخيف.. والرجال والكلاب تحرس الأسوار والأسلاك الشائكة، وزوجة الباشا الصغيرة التى لا تزيد على أكبر أولاده فى العمر، تركب جوادًا أشهب، ويجرى من خلفه الخفراء، ومحروس أفندى هو الآخر قد ركب حمارًا مكتنزًا، وأخذ يشير بيديه هنا وهناك إلى الأرض الشاسعة التى تحدها أشجار الجازورينا على مسافة أميال، وفى ضوء الشمس الباهر، ترقد مبانى القرية المنخفضة، وكأنها تجثو تحت أقدام النخيل العالية، وعشرات الأطفال والرجال والنساء والبهائم ينتشرون فى الأرض الرحيبة يعملون.. ومواويل وأغنيات أغلبها حزين.. تنبعث متهافتة محتضرة، فتصل إلى سمع ضياء الدين.. وهو فى هذا الجو ذى الأريج والذكريات تحتدم مشاعره، وشرد به الفكر هنا.. وهناك.. لكنه مع ذلك لا يكف عن المسير والضرب فى هذه المساحات الشاسعة.

وعند أحد المنحنيات وجد نفسه وجهًا لوجه أمام زوجة الباشا، هى فوق الجواد، ومن خلفها الخفراء يلهثون،

ومحروس أفندى فوق حماره المكتنز ، وعلى رأسه طربوش فاقع الحمرة شعار الرسميات ، وحملق محروس أفندى فى ضياء وهو لا يكاد يصدق عينيه ، وأفاق من دهشته ، وأسرع قائلاً :

- السلام عليكم يا رجال . .

ونظرت زوجة الباشا من طرف عينها ، ولفت نظرها الشاب الأنيق الذى يرتدى جلبابًا أبيض نظيفًا ، ونظارة بيضاء ، ينعكس لألاؤها على عينيه الصافيتين وبشرة وجهه الحليقة التى لوحتها الشمس قليلاً . . يبتسم فى هدوء ، لم يرتجف أو يرتبك كما فعل من معه من الفلاحين ، بل بقى هادئًا ، وواصل سيره بعد أن رد تحية الناظر هو وصحبته بأحسن منها . .

ونحت السيدة خصلات من شعرها الذهبى كانت غطت عينها وجزءًا من وجهها الأشقر ، وغمغمت دون اكتراث :

- من هذا الرجل يا محروس؟

وأسرع محروس وهو يمط رقبته ، ويقرب رأسه ناحية الجواد ويغمز حماره ليلحق بالسيدة الكبيرة الشأن وقال :

- الدكتور ضياء الدين يا ست . . من أهل القرية .

وفى لكنة خواجاتى قالت السيدة :

- دكتور . . ! ! لابد وأنه يفهم فى الأمراض، لكن كيف يخرج من هنا أطباء . . ؟

أليس هذا غريبًا؟

واستدرك محروس أفندى قائلاً :

- معذرة يا سيدتى . . إنه دكتور فى القانون . . أبوه كان قاضيًا معروفًا . . وضياء تعلم فى فرنسا ونال درجته هناك .

فانطلقت منها ضحكة رعناء وقالت :

- عاش فى فرنسا، ويأتى هنا ليمشى مع هؤلاء الفلاحين؟

- معذرة يا سيدتى . . كل أسرته منهم . . ثم . . ثم الناس هنا يحبونه وهو يحبهم .

ولم تلقِ بالاً إلى عبارته الأخيرة، ولم يعد فى ذهنها غير صورة الفتى الريفى الأنيق ذى الجلباب الأبيض، الذى عاش فى فرنسا . . فلاح يزور باريس . . لكنه لم يزل فلاحًا كما هو، لا يأنف من مصاحبة هؤلاء الحفاة ذوى اللحى الكثة والهلاهيل الممزقة . . يا له من شىء فريد حقًا ! !

- محروس أفندى . .

- خدامك يا سيدتى . .

- أريد أن أستريح هنا قليلاً جوار الترعة تحت ظل هذه الشجرة .

- أمرك . .

وأسرع بالنزول وأمسك بزمام الجواد، ومد يده لتستند عليها السيدة، وما إن بلغت أقدمها الحصى، حتى تمتمت :

- دعنى . . دعنى . . اذهب واستدعِ هذا الدكتور . .

فقال فى دهشة بالغة :

- ضياء . .

فصرخت فى صبر نافذ :

- أجل .

وهرول محروس أفندى على الفور فى الاتجاه الذى سار فيه ضياء، ولم يكد يبعد بضع خطوات حتى جاءه الصوت الناعم ذو اللكنة الأفرنكية :

- استدعه وحده، ولا تسمح لأحد من الفلاحين أن يرافقه . .

وفتحت حقيبة يد كانت معها، وأخرجت علبة سجائر أنيقة مذهبة وتناولت واحدة ثم أشعلتها، وجذبت منها أنفاسًا متلاحقة. ومن آن لآخر يرتفع رأسها فترتمى خصلات شعرها الذهبى إلى الخلف، وينطلق الدخان من بين شفتيها الورديتين فى حلقات متشابكة، وأدارت رأسها إلى من حولها من الخفراء

فرأتهم يقفون فى خشوع ووقار مطرقين الرءوس فصرفتهم بعيداً لأنها تريد أن تبقى وحدها، وامتد بصرها عبر المزارع الخضراء والمخلوقات التى تنتشر وسطها تحت الشمس المشرقة الدافئة، وطنت إلى جوار كالسجن الكبير وتنهدت فى أسى، إنها تحس بالوحدة القاتلة بعوضة لحوحة، وسرعان ما أبعدتها عنها فى ضيق، واصطدم بصرها بالقصر الكبير الرابض هناك، كالسجن الكبير، وتنهدت فى أسى، إنها تحس بالوحدة القاتلة وبالغربة المعذبة فى هذا المكان. الأرض. . الإيراد. . المحصول. . الفلاحين. . ما لها ولهذا كله، إنها بين هذا الخليط كالنبتة الغريبة. . حتى زوجها عثمان باشا تحس نحوه بالغربة. . فارق السن خمسة وثلاثون عاماً، هى فى الخامسة والعشرين وهو فى الستين، وهو شتاء مكفهر بارد يجلس دائماً إلى جوار مدفأته، وهى ربيع نضر يضج بالحياة، وتكره البرودة والمدفأة والنرجيلة والسياسة، أسبوع واحد قضته هنا فى العزبة أحست خلاله أنها تختنق، أحضرها معه زوجها ووضعها فى مصيدة. . هذا كل ما فى الأمر وحرمها من فرصة الحياة التى تسرقها منه فى القاهرة ونواديها وسهراتها، وهمهمت حانقة: «لشد ما أكره حياتى».

أما محروس أفندى فقد أخذ يتعثر فى خطاه، ويجد فى طلب ضياء الدين، لكن وجهه من الخوف قد اجتاحه، وشعر أنه على أبواب عاصفة من الحرج قد تؤدى إلى كارثة، إن ضياء

عنيد، لا يهمه الباشا ولا زوجته ولا سطوته، ألم يسخر من التهديد بالقتل ويصر على البقاء رغم ما فى ذلك من مخاطر؟؟ فماذا يفعل محروس أفندى إذا رفض ضياء أن يلبى طلب «الهانم» وهز كتفيه دون اكتراث، ومضى فى طريقه مع الفلاحين لا يلوى على شىء؟؟ كارثة لا شك.

- اعمل معروفًا يا دكتور ضياء.. حرم الباشا تطلبك.

قالها محروس وهو يلهث، فقال ضياء باسمًا:

- أتريد خفيرًا آخر يمسك لها بالركاب؟

- لا، لا.. إنها لا تقصد ذلك.. عفوًا، علمت أنك كنت فى فرنسا، فأدهشها الأمر، لم تكن تتصور أن هذا يحدث فى قريتنا.

فأكمل ضياء قائلاً:

- ومن ثم أرادت أن تتسلى بهذه «الأعجوبة» الفريدة.. لا بأس، إنى قادم معك يا عم محروس، من أجلك فقط.

***

لم يستطع ضياء أن يخفى اختلاجة ظهرت جلية فوق فمه المبتسم، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه ورباط جأشه، وابتسمت حرم الباشا هى الأخرى وهى تقول: «أورفوار»،

زوجة الجلاد صاحب السجن الكبير الرابض فى وسط العزبة الشاسعة، ومرشح حزب الشعب، ووزير الغد، تبش له، وتستقبله مرحبة، لو رآها زوجها الآن ماذا يفعل هل يدارى حقده ويكبت مشاعره، أم يصرخ فيها ويدعوها للمسير ثم يرمقه بطرف عينه فى سخرية وازدراء؟

- تعيش فى القاهرة.

- أجل يا سيدتى.

- لِمَ لم نرك؟

- الظروف، ومعالى الباشا يعرفنى جيداً.

- أوه، معالى الباشا، إنى لا دخل لى بشئونه الخاصة، ولا معارفه.

- معذرة يا سيدتى، إن عملى فى الجريدة يأكل كل وقتى، وفترات الراحة أقضيها هنا دائمًا.

- صحفى؟

- أحسن.. سكرتير تحرير جريدة النهضة العربية.

- ولم لا تشتغل فى دائرة اختصاصك؟ مدرس بالجامعة، مثلاً.. فى كلية الحقوق؟

كان سؤالاً دقيقًا حرجًا، ومجرد التفكير فى ذلك يورثه همّاً

وكمداً، أيقول لها إنه كفاءة مهدرة، وأن سياسة التعليم فى بلده تغض من شأن العلم والعلماء وتتنكر للكفاءات وأنهم أغلقوا فى وجهه أبواب الجامعة لأن أباه رفض أن يشترك فى محاكمة الأحرار والثائرين على الحكومة والملك والإنجليز، وأن اسمه هو الآخر فى القائمة السوداء التى تسطرها مخابرات صاحب الجلالة والمندوب السامى، وأنه يأنف أن يكون عبداً للعابثين الذين ينتهكون حرمة الدستور، ويسحقون حريات الشعب، مثل هذا الكلام قد يصدع رأسها الصغير الجميل، لأنها لا تفهمه، ولا يهمها أن تفهمه، فهى لا تفكر إلا فى العربات والسهرات الحمراء وأحدث الموديلات فى باريس، ومن ثم قال فى اقتضاب:

- إنى أفضل العمل الحر.

فقالت وقد ارتسم على وجهها الأشقر الفاتن علائم الجد:

- لا . . لا . . سوف أوصى الباشا بأن يبحث لك عن وظيفة تليق برجل تعلم فى باريس. . وقبل أن يرد عليها، أسرعت قائلة:

- قل لى . . أعجبتك باريس؟

- أعجبتنى كمنبع ثرى من منابع الفكر والثقافة . .

فأكملت باسمة:

- وكحانة للجمال والمتعة . . أليس كذلك؟

- باريس فيها كل شيء . .

- لكم أحب باريس . .

وصهل الجواد، وأخذ يضرب الأرض بحوافره، ويهز رأسه وعنقه إلى أعلى وأسفل، وارتطم رأسه بظهر حرم الباشا، فاندفعت إلى الأمام وأوشكت أن تقع فى الترعة الصغيرة فندت عنها صرخة قصيرة، ثم انتزعت السوط المعلق فى الركاب وأخذت تشوى جسد الجواد بضرباتها الحانقة، وسرعان ما أقبل الخفراء ومحروس أفندى مذعورين، ليهدئوا من ثائرتها، ويوقفوا الحصان عند حده، وفى لحظات كانت حرم الباشا فوق صهوة الجواد، ثم التفتت إلى ضياء وهى تنطلق صوب القصر الكبير.

- باى باى دكتور.

كانت تسرع بالجواد، والخفراء خلفها يلهثون، ومحروس أفندى يهوى على رأس حماره بعصى غليظة، وضياء يلاحقها بنظراته الفاحصة . . امرأة كالدمية الجميلة . . تنطلق كطفلة عابثة . . ومن حولها رجال فى جلاليب زرقاء كالتحف فى معرض مثير . .

❑❑❑

[٥]

قلق غريب اجتاح ضياء وهو يجلس خلف مكتبه بالجريدة، لم تزل تشغل ذهنه أحداث الريف الذى قضى فيه ثلاثة أيام، والعقلية الشاذة التى لم يزل يفكر بها الباشا، ذلك الذى يحاول دائمًا أن يتخلص من معارضيه، ويحطم كل يد ترتفع فى وجهه باحتجاج أو نقد أو تذمر، ولو اتخذ القتل كوسيلة، لكن هل هذا هو سر قلق ضياء؟ إن مشكلة الباشا والفلاحين أزلية.. من سنوات عديدة.. شىء مزعج حقاً أن يمثل الشعب رجل يكره الشعب ويستغله وينظر إليه نظرة السيد إلى الخادم، والأدهى من ذلك أن يصبح وزيراً مسئولاً، بكلمة واحدة يغير مصائر الناس، ويتحكم فى أرزاقهم، قد يكون هذا سببًا ظاهراً للقلق.. لكن.. لكن لماذا لم تأت صفاء حتى الآن؟ ولماذا يبدى اهتمامًا كبيراً بها بينه وبين نفسه وهى مجرد محررة تحت رئاسته مثل عشرات المحررين الذين يمثلون دار الجريدة؟

كل مواد الجريدة أصبحت جاهزة، والمحررون جميعًا

دخلوا على ضياء وناقشوه فيما يتصل بعملهم، وأبدى ملحوظاته، ووزع العمل كالمعتاد، لكن عدم مجيء صفاء جعله يحس إحساسًا غامضًا أن العمل لم يكمل بعد، وأن مواد الجريدة ينقصها شيء ما . . إنه يخيل إليه في كثير من الأحيان أن صفاء هي الوحيدة التي تفهمه، عرف ذلك من كتاباتها ومن موضوعاتها التي تتخيرها، روحها في الكتابة أقرب ما تكون إلى روحه: إنها تلتقط موضوعاتها من صميم الشعب، مشاكل المجتمع الذي يضج بالألم والحزن والكبت. . إنها مثله تمامًا. .

ودخل بركات وابتسامة ماكرة تتراقص فوق شفتيه:

- معذرة. . معالي الباشا طلبك مرارًا. . يبدو أن الأمر من الأهمية بمكان. .

- من تقصد يا بركات؟

- عثمان باشا. المرشح للوزارة في وزارة صدقي. .

وذهل ضياء لبضع لحظات، وندت عنه شهقة وهو يتمتم:

- غريبة.

- لا غرابة في ذلك. . إنه رجل سوف تسلط عليه الأضواء. . وهم بركات بالخروج، رأس ضياء يفور بكثير من علامات الاستفهام، والمشاكل يزحم بعضها بعضًا، الباشا

يطلبه، أهى مساومة أم مؤامرة جديدة، أم استعلاء وتحدٍّ. . الله وحده يعلم، وبلغت مسامعه خطوات بركات وهو يغادر الحجرة وابتسامة صفراء تعلو شفتيه، وعلى الفور تذكر صفاء، فقال فى نبرة جادة:

- بعض المحررين لم يسلموا موضوعاتهم بعد، لا بد أن يحضروها فوراً، فالوقت متأخر. .

- وإذا طلبك الباشا مرة أخرى؟

- أنا لا أناقشك فى أمر الباشا، ولكن فى شئون الجريدة. .

- معذرة. . أظن أنه لم يبقَ غير صفاء وهى لن تقدم شيئًا.

فقال ضياء فى استغراب:

- ولم؟

- خرجت فى الصباح مع رئيس التحرير. . فى عربته.

- دون استئذان، دون أن تترك موضوعاتها؟

- يا أستاذ. . عقبى لنا منذ الأمس وهى سكرتيرة خاصة للرئيس. .

وتململ ضياء فوق مقعده، وتحول قلقه إلى شىء من النقمة والغضب، وتمتم ساخطًا: «الأوغاد يعطلون الكفاءات ويسكتون الأقلام الحرة بطريقة خبيثة، على صفاء بعد الآن أن

تسجل المكالمات التليفونية، وتسجل المواعيد، وترد على المراسلات الخاصة، وتغرق فى أعمال كتابية.. ميتة.. لا انفعال فيها ولا حياة.. انتصر حزب الشعب.. وهذا هو العنوان الكبير فى صدر صحيفة النهضة العربية.. صفاء سكرتيرة خاصة.. الوجه الجميل الذى يجب أن ينعم بطلعته رئيس التحرير.. والعقول المتعطشة إلى النور والمعرفة والكلمة الشريفة تنتظر مقالتها.. لكن مقالات بركات وأمثاله عن الفن والحب وانتعاش الحالة الاقتصادية هى التى يصطدم بها بصرهم..

ودق جرس التليفون، الباشا يطلبه من جديد، يا لها من لهجة ناعمة رقيقة ينطق بها معاليه، لهجة تذكره بنعومة الحية التى تثير التقزز والغثيان والخوف، ويناديه عبر الأثير بعبارة: «ضياء يا ابنى..»، إنه يشك فى كل مظهر طيب، وكل رقة تبدى فى معاملة الباشا وكيف يفترض حسن النية فى رجل هو السوط بعينه.. يشوى ظهور أهله وجيرانه فى العزبة والقرى المجاورة؟؟ رجل حاول بالأمس قتله.. لكن لماذا لا يذهب ضياء إليه، فربما كان فى ذلك الخير والمنفعة وإصلاح ما أفسده الزمان، أو بعبارة أدق ما أفسده الباشا؟

وأنهى ضياء عمله بدار الجريدة، وأعد العنوان الكبير الأحمر الذى اقترحه رئيس التحرير وأقره: «نتائج الانتخابات

انتصار للدستور الجديد . . ولحزب الشعب»، ولو لم تنقلب الحقائق، وتنكر البديهيات لقالوا: إن نتائج الانتخابات . . انتصار للزيف والرجعية والإقطاع . . وقطع ضياء درجات السلم هابطًا في تراخٍ وفتور، شيء من الملل والضيق أفقده حماسته، وهد من عزيمته، كل شيء أمام عينيه يهوى إلى الحضيض، ويوضع في غير موضعه، ويختلق له من المسميات والمصطلحات ما لا يتفق معه بتاتًا . . حزب الشعب . . والشعب لا يقره ولا يؤمن به، دستور جديد، وهو قديم في حقيقته قدم الظلم والجشع والعدوان . . صفاء سكرتيرة خاصة، وهي كأنما خلقت أساسًا لتقول شيئًا يخفف من لوعه المعذبين والضائعين والمظلومين . .

وعلى باب دار الجريدة، التقى ضياء برئيس التحرير، كان هاشًا باشًا، ضاحك الأسارير كأنما قد مست روحه رائحة الشباب وسحره، ومن خلفه صفاء شاحبة ترتجف، وفي أهدابها دمعة خرساء، لكنها معبرة عن الألم والعذاب والحيرة، ووقفت مطأطئة الرأس خاشعة كمن ارتكبت إثمًا، أو كمن لحقها العار، «لا تحزني يا عزيزتي . . منصبك الجديد منزلة يهنأ عليها غيرك . . » هكذا تحدث ضياء الدين إلى نفسه بصوت غير مسموع، وإن تردد صداه في أرجاء روحه . .

وقال رئيس التحرير في انشراح:

- ابن حلال . . جئت فى الوقت المناسب . . عثمان باشا قلب الدنيا بحثًا عنك . . يبدو أنه يعد لك مفاجأة سارة . . ألف مبروك مقدمًا . .

فقال ضياء ذاهلاً :

- إنه أراد قتلى . .

وضج رئيس التحرير بالضحك المتواصل ، وأفاق ضياء من ذهوله ، واستدرك ضاحكًا هو الآخر ، كلاعب فوق خشبة المسرح يَضحك ويُضحك ويلقى النكات ، ويأتى بالحركات الهزلية وفى أعماقه أحزان متراكمة ، وقال رئيس التحرير :

- من المفاجآت السارة ما يكاد يقتل الإنسان ، أليس كذلك؟

- بالضبط . . لكنى كنت على مقربة من قصره بالعزبة وهو يعلم ذلك ولم يفاتحنى فى شىء . . لم أكن أتوقع ذلك .

- الحظوظ لا موعد لها . . والرجل كثير الأعمال . . والعبرة بالنتائج . .

- أجل . .

والتفت رئيس التحرير خلفه ، وهتف بصفاء أن تتبعه ، ولم ينسَ أن يؤكد على ضياء أن يذهب إلى الباشا فهو ينتظره

الليلة، وأمر الباشا لا يرد، وصعدت صفاء وهبط ضياء، وتنهد فى ألم، لشد ما تبدو المسكينة فى حيرة من أمرها، وشعر بدافع قوى يدعوه لأن ينظر إلى السلم الملتوى، كانت تدور مع منحنى السلم، وأهدت إليه نظرة خاطفة حزينة تلاقت مع نظراته الزائغة.. ومضى..

***

شوارع القاهرة كابية حزينة، والباعة المتجولون يدفعون عربات اليد فى أناة رغم البرد الذى ينصب عليهم، ونداءاتهم واهنة متعبة، وبعض الأطفال يرقدون على الأرصفة فى عز الزمهرير القارس، وأسنانهم تصطك برغم الغطيط الذى ينبعث منهم، وقليل من باعة الصحف يصيحون «المقطم.. أخبار الليلة.. الأهرام.. الوزارة الجديدة..»، وفاضت نفسه حنقًا، وخيل إليه أنه لن يستريح إلا إذا فعل شيئًا.. شيئًا خطيرًا ولو كلفه حياته.. وأخذ يحلم. ويتصور نفسه وسط مظاهرة ضخمة.. تضم الآلاف من أبناء الشعب الطلبة والعمال والموظفين.. والفلاحين أيضًا.. وهو يلوح بيديه عاليًا ويهتف من أعماقه بسقوط صدقى والدستور الملفق، والاستعمار، ثم يقود الجماهير كما فعلت الثورة الفرنسية، وينقض على قصر عابدين، هناك فؤاد رأس الخيانة.. ويحطم الباستيل.. ثم يضع الأسرة المالكة فى عربة مكشوفة

وهم حليقو الرءوس، ثم يقف فوق منصة عالية ويقول: الآن انتصر الشعب.. وعاد الحكم إلى أبنائه، وما على الاستعمار إلا أن يحمل عصاه ويرحل..

مجرد أحلام بعثت النشوة فى كيانه، وهزت روحه، وخفقت من حدة آلامه وضيقه، لكنه سرعان ما أفاق لنفسه، ورأى الشارع يمتد طويلا شاحبًا ضيقًا مملاً، وبعض السكارى من الجنود الإنجليز يترنحون عبر الطريق يمنة ويسرة، وأغنيات ماجنة غير واضحة الكلمات تنطلق من أفواههم مع رائحة الخمر، وبائع جوافة يقبع على الرصيف ويكرر مقطعًا واحدًا لا يتغير من أغنية شعبية معروفة «ياما رضيت بالهوان والذل يا قلبى..»، وإلى جواره رجل آخر يبيع البلح يشوش عليه ويشاكسه، ويترنم وهو يغمز بإحدى عينيه وينظر إلى واحدة من فتيات الليل تسير أمام الجنود السكارى وتسرع فى الخطو:

حبيبى عمل صرته مركب وعدانى

وجه فى وسط البحور وتمرغ ورمانى

وبعد ساعة بلغ قصر الباشا، لكنه لم يزل يذكر صفاء..

واستقبله رجل نوبى شديد سواد الوجه، ناصع بياض الثوب ذو حزام أخضر وعمامه كبيرة بيضاء، وهو يغمغم فى صوت وقور: «تفضل يا سعادة البك»، وغرق ضياء الدين فى مقعد نادر

المثال، ناعم لين كريش النعام، كان متعبًا منهوك القوى، وخيل إليه لفرط تعبه واسترخائه في جلسته أنه على وشك أن ينام، لكن الباشا لم يمهله طويلاً إذ سرعان ما قدم وعلى كتفيه عباءة مشتعلة الحمرة، والسعادة تطفح من ملامحه وعينيه الزرقاوين، واتسعت ابتسامته وهو يقول: «أهلاً وسهلاً دكتور» ورد ضياء تحيته وترحيبه بعبارات لا يعيها على وجه الدقة، وإن كان يذكر أن الباشا قد سر لها، وجلس قبالته، ثم قال فى هدوء:

- أنت تعلم يا ضياء يا ابنى أنكم جميعًا فى الدائرة أبنائى . . قد أكون شديدًا بعض الشيء فى معاملاتى مع الفلاحين، لكن ذلك أمر تقتضيه طبيعة الأشياء . . فأرضى واسعة وبينى وبينك الفلاحون مشاغبون، ولو فرطنا قليلاً لنهبوا الأرض ومحصولها وإيجارها . . ما علينا . . المهم أنى كنت أنتظر هذه الفرصة كى أصل إلى كرسى الوزارة حتى أثبت للجميع أنى جدير بمنصبى وأن كفاحى لم يضع هدرًا . . وأنى أستطيع أن أخدم أهل دائرتى . .

وجذب الباشا نفسًا من سيجارة الفخم، ثم سعل على الرغم منه، وتنحنح، بينما بقى ضياء مطرقًا صامتًا، وفى ضميره عبارة يريد أن ينطلق بها «يا قاتلى . . أنت أنبل إقطاعى عريق . .»، لكنها مجرد خواطر حبيسة فى نفسه، بينما استطرد عثمان باشا قائلاً:

- ولا ينكر أحد أنك كفاءة ممتازة . . لكنك سيئ الحظ ، وفكر ضياء : «يبدو أن الباشا يريد أن يقول إنى سيئ السلوك مثل أبى»، وقطع عليه شروده كلمات الباشا المتعجرفة :

- ومع ذلك فقد قررت أنا أن أعينك مديرًا لمكتبى .

وأطلقت نفس ضياء الدين قهقهة مكتومة لم يدرك الباشا شيئًا ينبى عنها فى ملامح الجالس أمامه، وعلى الفور قال ضياء لنفسه : «وسيلة جديدة لقتلى . . أن أغرق فى المكالمات التليفونية والمكاتبات والمواعيد ومواكب الباشا الرسمية وأسراره . . تمامًا مثلما فعلوا بصفاء . . » . وظن الباشا أن وجه ضياء سوف يتهلل من الفرح والسعادة، ومن ثم قال :

- بالطبع موافق؟؟

فجاءه رد ضياء :

- معالى الباشا . . إن هذا المنصب «أكبر» منى .

- أشكر لك تواضعك . . لكنك أهل لكل خير . .

ودخل خادم نوبى آخر يحمل صينية القهوة، وهو يخطو بطيئًا فى شبه انحناءة، لا يرفع عينيه مطلقًا عن الفنجانين الأنيقين، ولم يكن لدى الباشا ذرة من شك فى أنه قد أصاب الهدف، لقد عقد صلحًا بهذا العرض بين الأفكار الثورية

الجديدة التى يحملها فئة من الشباب الطائشين أمثال ضياء، وبين مصالحه فى العزبة وعند الفلاحين، طريقة عبقرية اهتدى إليها الباشا- على نمط السياسة الإنجليزية- بعد تفكير طويل مضن. . لم يرتح إليها فى بادئ الأمر، إن تركيته العريقة تأبى أن يهادن أو يرق فى معاملته مع الفلاحين وأبناء الفلاحين ولو نهلوا الثقافة فى باريس، لكن ماذا يعمل الباشا والحرب خدعة، وصدقى نمر السياسة- كما يطلق عليه المغرضون- رئيسه وأستاذه يؤمن بهذا الفن وتلك المبادئ. . أجل إنها فكرة عبقرية، هبطت على الباشا كالوحى وهو فى عزبته قبل أن يغادرها إلى القاهرة، وعلى وجه التحديد بعد أن طلب من محروس أفندى أن يقتل ضياء. . لشد ما كان الباشا متسرعًا متورطًا فى الخطأ!! ولهذا لم ينسَ قبل سفره أن يستدعى محروس أفندى، ويوهمه أن فكرة القضاء على ضياء مجرد اختبار. . فكاهة مؤلمة بعض الشيء، لأن الباشا - كما يزعم- يحب ضياء برغم عدوانه ولسانه الطويل، ويعد له هدية طيبة، ومنصبًا رفيعًا يليق به. . وصدق محروس أفندى. . واستغفر الله. . وأرسل لضياء خطابًا- لم يزل فى الطريق- يؤكد له أن أمر قتله لم يكن حقيقة مقررة. . وإنما مجرد تأويل خاطئ. . وسوء فهم. . واستدار الباشا إلى ضياء الذى لفه الصمت، وقال باستعلاء:

- ماذا قلت؟!

- سيدى . . أنا طوع أمرك . .

- هذا ما توقعته . .

- لكنى أؤكد لمعاليكم أنى لا أميل لشىء سوى الصحافة . . لست كفئًا لأن أدير مكتبًا كبيرًا وأمورًا مهمة تخص معاليكم . .

فقال الباشا فى شىء من النفور :

- لكنك لا تستطيع أن تخالف لى أمرًا . .

- ولا أستطيع أيضًا أن أكون أداة خلل فى جهاز سياستكم ووزارتكم . .

- أنت تتخابث . .

- . . . .

- وتصر على عنادك . . وهذا ليس فى مصلحتك . .

- سيدى . .

فقاطعه الباشا قائلاً فى حدة :

- وأنا أفهمك ، هذه الكبرياء الفارغة ، وأفكار الهوس التى تسيطر على وهمك سوف تجلب لك الكوارث ، وأنا أفهم مصلحتك أكثر منك . .

- أسأت فهمى . .

- اخــرس . . لا تنسَ أنك تكلم وزيرًا، وولى نعــمــتك ونعمة أهل قريتك . .

وهم ضياء بالكلام، كانت صورة المظاهرة التى حلم بها قد عادت إلى ذهنه، والعربة المكشوفة التى ركبهـا ملك فرنسا وأسـرته وهم حليقـو الرءوس تتـراءى له كـالأمل، وأحـجـار البـاستيل- ذلك السجن الرهيب- تنهـار وتثيـر الغبار المختلط بهتاف الثائرين، لكن كلمات الباشا الذى فهم كل شىء جاءته حاسمة صارمة :

- انتهت المقابلة . .

وخرج ضيـاء الدين والليل يجثم فـوق القـاهرة، ومشى فى الطريق الطويـل الخـافت الضـوء وكـأنه وسط عـالم من الضـبـاب والغمـوض والأشباح، كانت روحـه تحلق فى السمـاء، ورحيق حلو المذاق يمـلأ خيـاشـيمـه وفـمـه وقلبه، البـاشـا أحـد أقطاب حـزب الشـعب لم ينتـصـر عليـه . . البـاشـا الرهيـب صـاحب السوط لم يرهبه . . البـاشـا المحنك الداهية لم يتـمكن من إذلاله وإدخاله فى المصيدة لأنه أكبر بكثير من المصيدة التى لا تتسع إلا للفئران الجائعة البلهاء . .

□□□

[٦]

لبس «بركات» أثمن ما عنده من ملابس، بعد أن قضى وقتًا طويلاً بين يدى الحلاق، وأكمل زينته، ونسق هندامه تمام التنسيق. وتعطر. ثم وضع طربوش المناسبات فوق رأسه وإن بدا شيء من التناقض بين وجهه الأسمر وطربوشه الأحمر، وتأكد قبل أن يغادر بيته من نظافة حذائه ولمعانه، ووقف دقائق أمام المرآة، ثم استعاد للمرة العشرين عباراته التى حفظها ونمقها وظل ليالى طويلة يفكرْ فيها، لم يكن بركات على موعد مع عروسه، ولم يكن ذاهبًا إلى حفلة ساهرة كبرى مع كبراء القوم ورفاقه الصحفيين، لكنه كان ذاهبًا إلى ما هو أخطر من ذلك كله...

وانتظر طويلاً عند ناصية الشارع وهو يتململ، وكأن الدقائق القليلة التى مرت دهر بأكمله، فهو على موعد مع المجد.. مع الأمل الكبير الذى حلم به طول حياته، ولاح مصور الجريدة من بعيد فارتاحت نفس بركات، وهدأت انفعالات الترقب والانتظار لحد كبير.. ولم يضيع الوقت

سدى، بل جذب رفيقه المصور من يده بعد أن صافحه في حرارة وانطلقا في عجلة . .

وأمام باب «فيلا» الباشا توقف الاثنان، وتقدم بركات من الرجل النوبي وقال في رقة يخالطها شيء من الكبرياء: «الباشا موجود؟؟ أنا الأستاذ بركات مندوب جريدة النهضة العربية»، ومشى الرجل النوبي، وتبعه بركات وزميله. المشي الأنيق يسبي الأنظار، ورائحة الزرع النامي في الحديقة تنعش الصدور، والستائر الثمينة توحي بالعظمة والرهبة أيضًا، وكثير من الخدم يفسحون الطريق وينحنون احترامًا للقادمين وكأنهم في شبه صلاة، وتمتم بركات في سره: «ما أروع أن يكون الإنسان باشا، ويمتلك الأرض والمال والعبيد»، وتذكر على الفور الدكتور ضياء، وفكر: «هذا الغر المأفون يريد أن يحيا بأخلاق أهل السماء وهو يدب بائسًا فوق الأرض، والأعجب من ذلك أنه يعد الآن كتابًا عن عدالة عمر بن الخطاب، بأي عقلية يفكر هذا المجنون الذي يجاهر بعدائه للحكومة والدستور الجديد وصدقي باشا؟».

وفي حجرة الاستقبال استرخى بركات، وأخذ نفسًا عميقًا، وإلى جواره زميله المصور، وقال المصور وهو يرمق التحف الثمينة والتماثيل الخزفية والمعدنية، ويزحف ببصره

على اللوحات الفنية الرائعة لكبار فنانى أوربا فى مختلف العصور:

- بركات، انظر النعيم الذى يعيش فى ظلاله عثمان باشا.

وكأنما صادفت هذه العبارة هوى فى نفس بركات، ومدت له فى حبال الأمل، فقال وهو يتنهد:

- ربنا يوعدنا.

لكن صاحبه قال فى نبرات ساخرة، وهو يهز رأسه فى حركات تمثيلية مضحكة، ويضغط على مقاطع الحروف وكأنه مدرس لغة عربية، أو واعظ فوق منبر:

- إن من عبادى من لو أغنيته لفسد حاله.

وضحك بركات، ثم قال:

- أكمل الحديث، إن من عباده أيضًا من لو أفقره لفسد حاله أنا من هذا الصنف الأخير.

واستطرد المصور فى مداعباته قائلاً:

- لا أستطيع أن أتصورك يا عزيزى رجلاً ثريّاً وبين يديك رهط من الخدم النوبيين، أنا شخصيًا لا أستطيع أن أميزك منهم، فكلاكما أسود اللون.

وتضايق بركات بعض الشيء، وزم شفتيه في ضيق ظاهر، لكنه سرعان ما قال:

- إن المال والمكانة الرفيعة، والباشوية تضفى على صاحبها مهابة واحترامًا، ولا دخل للون البشرة في ذلك، بل ربما تستطيع أن تغير لون البشرة، المال يصنع المستحيل.

فأجابه المصور دون اكتراث:

- أما أنا فلا أتصور نفسى إلا مصورًا يحمل آلته، ويجرى باحثًا عن مختلف الزوايا والحركات ليلتقط منظرًا ناجحًا، مثل البهلوان تمامًا، إنى أجد فى هوايتى هذه لذة لا تعادلها لذة امتلاك العزب والقصور، سمعت أن رجلاً صوفياً فقيرًا لا يملك إلا ما يستر جسده، ويسد جوعته، وكان يقول دائمًا: إن بين جنبى من اللذة ما لو علمها الملوك لقاتلونى عليها بالسيوف.

فقال بركات وهو يربت على كتفه، ويرمقه بنظراته الساخرة:

- اطمئن.. الملوك لا يفكرون فى لذتك ولا لذته، ولا يحاربون الناس من أجل وهم كبير..

ودخل الباشا، عملاقًا متغطرسًا تعلو هامته كبرياء الوزراء، وتحيط به مظاهر النعيم.. النعيم الذى أذهل بركات وزميله،

ووجد بركات نفسه على الرغم منه ينحنى فى خشوع كما كان ينحنى الخادم النوبى لهم فى المشى منذ لحظات :

- التحيات لصاحب المعالى .

هتف بها بركات كالغريق الذى يضرع وينشد النجاة وهو فى خضم الموج الثائر ، بينما صافحهما الباشا بطرف أصابعه وهو يقول : «أهلا وسهلاً . . اقعدا» ، لكن آلة التصوير كانت أسبق منه إذا سرعان ما غمر الحجرة ضوء خاطف ، فضحك الباشا ضحكة قصيرة وقال للمصور :

- وفيم العجلة؟ لم يزل الوقت ممتدًا أمامك .

فتدخل بركات وقال متلعثمًا :

- إن آله التصوير واعية ، لا تستطيع أن تتوانى لحظات فى تسجيل اللحظات السعيدة يا معالى الباشا . .

- شكرًا . . شكرًا . . يبدو أنك صحفى ذكى . . وبعد أن تناول القهوة نشر بركات أوراقه الصفراء ، وتناول قلمه بأنامل مرتجفة ، وقرب وجهه من ركبتيه ، استعدادًا لتسجيل إجابات الباشا عن أسئلة كان قد أمضى أسبوعًا كاملاً فى تحبيرها وتنميقها ، وبسط أمام الباشا فكرته ، إنه يكتب عن الوزراء الجدد واحدًا واحدًا ، ويقدم لجماهير القراء قصة كفاحهم وتاريخ حياتهم حتى يكونوا قدوة ومثالاً ، ويلقى الأضواء

على مشروعاتهم المستقبلية من أجل رفاهية الشعب وإسعاده في ظل الدستور الجديد، وحكم حزب الشعب، وأنه قد بدأ بمعالى عثمان باشا لإنسانيته وفضله الذى يتمدح به الجميع . . وأشرقت ملامح الباشا بالرضى والسعادة، وأقبل على حديث بركات بجماع نفسه وتنحنح فى ثقة وكبرياء . . وشعر بركات بأن الطريق مفتوح أمامه، والأمل الحلو يمتد عريضًا رائعًا كالجنة الوارفة، ولو لم يكن فى محضر الباشوية الفخيم لهب من مقعده وأخذ يرقص طربًا كمن لعبت برأسه الخمر . . لكن صبرًا . . فى التأنى السلامة . . والمصور من آن لآخر يقوم، ثم يتخذ ركنًا قصيًا . ويرتكز فوق إحدى ركبتيه، ويضغط فوق بروز فى آلته فتمتلئ الحجرة بلألاء ساطع يخطف الأبصار، ثم طلب من الباشا أن يقف ويلوح بيديه وكأنه خطيب فى حفل، ففعل الباشا ما أمر به المصور، ووقف كتمثال مديد القامة ويداه معلقتان فى الهواء، وفمه نصف فتحة، والطربوش التركى ينتصب فوق هامته وكأنه شعلة حمراء جامدة بلا دخان .

واستأذن المصور لارتباطه بمواعيد أخرى مع رئيس التحرير وخرج، وبقى بركات إلى جوار الباشا والقلم يجرى فوق أوراقه الصفراء، وعبارات الباشا تنطلق فى صوت أجش جبار كأنه صوت طاغية عات ينبعث من أعماق التاريخ، وأخذ يروى قصة كفاحه منذ الطفولة وكيف بنى مجده، وكون ثروته

من العدم بعرق جبينه، ولم يشر بكلمة واحدة إلى أبيه الباشا الكبير الذى أورثه الضياع والمال والخيانة، ثم تحدث عن ثقافته . . وزعم أنه أصيل . . هكذا قال عن نفسه . . جمع بين ثقافة الغرب والشرق . . ودرس الفن والأدب والخطط الحديثة وعلم الاقتصاد الحديث، بالرغم من أن بركات لا يذكر أنه سمع أن عثمان باشا قد نال درجة علمية جامعية من أى مكان .
وانتقل الحديث عن حياته الخاصة عن السعادة العائلية، وزوجته ذات النشاط الاجتماعى الهائل، ورقتها وحتى جمالها وسعة ثقافتها، وعن أولاده وكيف نشأهم على الحب والفضيلة والكفاح، وبعث بهم إلى أوربا ليستكملوا ثقافتهم هناك، ثم أطنب فى مدح الانتخابات ونزاهتها والثناء على الشعب الذى قال كلمته فى حرية مطلقة وأمانة تامة، وعن الدستور الجديد وما سوف يحققه من آمال لكنه لم يشر بحرف واحد إلى مشكلة الاحتلال، ولم يلمح من قريب أو بعيد إلى التزييف العلنى فى الاقتراع العام ولا إلى اللجان الخاوية والسخريات المرة التى كالها الناس لحزب الشعب، أو المظاهرات العنيفة التى اجتاحت القاهرة والإسكندرية والأقاليم، وعندما وصل الحديث بهم إلى خطط المستقبل قال الباشا :

- لا أريد أن أسبق الزمن، ولا أملأ الدنيا دعاوى فارغة،

أنا رجل واقعى، يهمنى العمل، العمل وحده، ووزارة المواصلات تحتاج إلى فن ودراية وحزم، وتستطيع كصحفى ذكى أن تتخيل ما تشاء من مشروعات، وتضع ما تريد من مشروعات عن لسانى ولن تكون كاذبًا قط.

فتمتم بركات وقد جف ريقه، وجف قلمه كذلك:

- مفهوم.. مفهوم يا معالى الباشا..

وأدرك الباشا ما وقع فيه بركات من تورط، فابتسم ابتسامة عريضة، ثم وضع يده فى جيبه وأخرج قلمًا ثمينًا وهو يقول: «تستطيع أن تأخذ هذا القلم كهدية متواضعة» فتناول القلم بيد مرتعشة وهو لا يكاد يصدق عينيه ويقول:

- لكن يا معالى الباشا هذا كثير..

- أنا أحب المخلصين وأحترمهم..

- سأكون دائمًا أبدًا خادمك الأمين..

- العفو يا بنى.. كلكم أولادى..

وصمت بركات لحظات ريثما يسترد أنفاسه اللاهثة، ويستجمع قواه المشتتة، ثم قال ولسانه يبلل شفتيه كأفعى تتلمظ لكى تنفث سمومها:

- إن معاليكم لا يتصور مدى الفرحة التى غمرت دار

جريدة «النهضة العربية» كلها عندما سمعنا نبأ تعيين معالى عثمان باشا وزيراً للمواصلات . . كان المحررون يرقصون لفرط سعادتهم . . وكان رئيس التحرير فى فرح غامر . .

واربد وجه عثمان باشا قليلاً وهو يقول :

- وسكرتير التحرير؟

- الدكتور ضياء الدين؟

- أجل . .

وكأنما شعر بركات بغير قليل من الحرج ، وإن كان بينه وبين نفسه فى قمة السعادة والسرور ، وهم بالكلام . . لكن الكلمات ماتت على شفتيه ، فالتفت إليه الباشا قائلاً :

- تكلم . . أنا أعرف كل شىء عنه . .

- معذرة يا باشا . . لا أحب أن أشوه جلال جلستنا هذه بالحديث عن سفسطاته الفارغة . .

فقال الباشا وكأنه يلقى أمراً لا مناص من تنفيذه :

- تكلم . . يجب أن تتكلم ، أنا لا أكترث كثيراً بالكلاب التى تنبح من خلفى . . كلما علا مركزك وارتفع نجمك ازداد عدد الساخطين والناقمين . .

- إنه شرير . . وقح جداً . . يا معالى الباشا . . المحررون

جميعًا فى ناحية، وهو وحده بمبادئه المنحرفة فى ناحية أخرى. . ماذا أقول؟؟ هل أقول إننى قد اشتبكت معه فى نقاش حاد حول شخصيتكم النبيلة، وحول الدستور الجديد وحزب الشعب، فما كان منه إلا أن قذف فى وجهى بالمحبرة، وطردنى من حجرته وهددنى بالفصل؟؟ لا أحب أن أقول هذا الكلام. . لأنى أدافع عن معتقداتى. . عن معاليكم والدستور والحزب بحياتى. . بكل ما أملك دون ضجيج. . ويكفينى راحة الضمير.

وأطرق الباشا صامتًا وفى قلبه بركان يتفجر من الغيظ والنقمة والضيق، بينما انتهز بركات الفرصة، وأخذ يستلهم نفسه الثائرة الحاسدة، وكراهيته لضياء، وحبه المجنونَ لصفاء، ويملأ رأس الباشا بالأراجيف والأكاذيب، حتى صاح الباشا أخيرًا وقال:

- كفى. .

ولم يسكت بركات بل استطرد قائلاً:

- وأنا أعرف أن معاليكم ولى نعمته ونعمة أبيه من قبل. .

فقال الباشا وهو يصر على أسنانه:

- إن كلابى تعترف بالجميل. . لكن بعض الناس لم ينالوا مرتبة الكلاب بعد. .

- الجبل الأشم ياصاحب المعالى لا تضيره نملة حقيرة تزحف فوق سفحه . .

فأردف الباشا قائلاً :

- أليس من العار أن يكون مثل هذا الحيوان سكرتيرًا لتحرير الجريدة؟؟ هذا منتهى الخطورة . إنه يسمم أفكار الشباب ، ويزيف الحقائق ، ويتنكر لأولى الفضل والجهاد من بنى وطنه . .

- سرطان يا معالى الباشا . .

- أجل . . سرطان خبيث . .

والاستئصال أضمن علاج لهذا الخطر . .

****

وخرج بركات من لدى الباشا وثبًا ، والباشا يناديه باسمه ويستمهله كى يستدعى سائقه ليوصله بعربته إلى دار الجريدة ، وبركات يمسك بالقلم الثمين ، ومن آن لآخر ، يحملق فيه كالمذهول ، إنه ليس مجرد قلم يكتب به على الأوراق الصفراء ، لكنه مفتاح السر ، لقلب الباشا العظيم . . الرجل الواقعى ، المكافح ، صاحب المجد والضياع والنفوذ . .

ولذة خبيثة تسكر بركات، وتدير رأسه فى نشوة، وأغنيات حلوة كثيرة يريد أن يترنم بها، ويرفع عقيرته، حتى تخف قليلاً، نوبة السعادة الطارئة التى غرق فى بحورها، وتمتم فى سره: «عندما يقرأ ضياء الدين ما كتبته عن عثمان باشا غداً.. سوف يتهكم، وسيقول إنى ذنب جديد، وعميل للرجعية والإقطاع والاستعمار.. أو كلب فى موكب النفاق والخداع والعبث بحقوق الملايين المعذبة فى الوادى الأخضر الخصيب.. ليقل ضياء ما شاء، فمن حقى أن أرتفع، وأثرى وأتزوج.. أتزوج صفاء، على الرغم منه..

وتحسس بركات أوراقه الصفراء.. الكنز الثمين الذى سيكون عدته وعتاده فى رحلة المجد والجاه التى بدأها من فترة قصيرة.

❑❑❑

[٧]

لم يذكر ضياء أنه دخل على رئيس التحرير مرة إلا وغشيه انفعال عنيف، كان ينظر دائمًا إلى السكرتيرة الخاصة -صفاء- وسرعان ما يرخى نظراته إذا ما رفعت رأسها إليه، شىء لا هو بالخجل ولا هو بالخوف يسيطر عليه، لعله عدم الرضى والضيق، وهل هناك شىء يبعث على السرور والراحة فى عصر سيطرة الذئاب، وانعكاس البديهيات واهتزاز القيم؟ لشد ما يحقد على رئيس التحرير كلما هتف باسم صفاء، هذا العجوز المتصابى الذى خضع لتهديد الحكومة، وانكمش كالفأر وجعل من صحيفته ميدانًا للجدل الفارغ، ومعرضًا للدعاية والإعلان وتسبيحًا بمجد الأصنام الحاكمة.. ثم أخيرًا جعل من صفاء -ليس مجرد سكرتيرة- ولكن تحفة جميلة، لوحة رائعة مثلاً أو باقة من الزهر يسعد قلبه العجوز بمرآها، ويستمتع بسمتها الوادع الحزين، ووجهها الشاحب فى جمال، الباهر فى جاذبية آسرة.

وكان ضياء صريحًا مع رئيس التحرير بعض الشىء، لقد أبدى له عدم رضاه عن سياسة الجريدة المستقلة التى عرفها القراء من قبل لا تتعلق بأذيال حزب، أو تأتمر بأمر باشا، وتقدم لهم غذاءً روحيًا دسمًا فى الفكر والثقافة والفن، لقد أصبحت الجريدة ذنبًا من أذناب حزب الشعب المزعوم، وبوقًا من أبواقه، وضاق الحيز الذى كان يشغله قلم ضياء، وقلت سطوته وتصرفه فى أمر الجريدة، واستطاع التغيير الذى شمل الجريدة، وأبوابها وسياستها، أن يخنق الأقلام الحرة، ويعطى مجالاً لبركات وأمثاله كى يصولوا ويجولوا ويستغلوا صناعة القلم استغلالاً بشعًا..

واستمع رئيس التحرير لضياء فى صبر نافذ، وتقبل نقده بصدر ضيق، لكنه كان يحترم ضياء، ويكن له ولقلمه تقديراً بالغًا، ولولا ذلك لانتهت العلاقة بينهما منذ انحرفت سياسة الجريدة، ووجد ضياء نفسه فى الشارع بلا قلم، ولذا قال الرجل:

- أنت تعلم يا ضياء أنى مريض بضغط الدم وتصلب الشرايين.. والإنسان فى هذه الفترة الحرجة من العمر، وفى خضم مرضه، لا يفكر كثيراً فى المتاعب، ويقنع نفسه بأنه قد أدى دوره كما يجب، ولم أحصّل من حياتى شيئًا سوى هذه الجريدة.. هى كل رأس مالى، ويوم أن يغلقوا هذه الدار

فسوف أسقط فريسة الفقر والفراغ والمرض. . يا صديقى إننى أتعذب، لا أكتمك أن ضميرى يؤنبنى. . وذكريات كفاح قديم تصرخ بى فى يقظتى ومنامى. . لكنى. . لكنى لا أستطيع.

وابتسم ضياء فى دهاء وقال:

- سيدى. . لكنك تقول إن القلوب لا تشيب. . شبابها خالد أبدى، وماذا يضير الإنسان لو مات فى زنزانة سوداء مختنقة الضوء، أو فى حجرة رحبة تغرقها الأضواء والأثاث الفاخر. . ألم تكن تعلمنى ذلك من قبل؟

وأخذ الرجل ينقر على مكتبه نقرات عصبية بأنامل مرتجفة، وأدرك على الفور أن ضياء الدين يعرض به، ويشير من طرف خفى إلى الشائعة التى ترددت فى أروقة الدار، والتى تزعم أن رئيس التحرير سوف يتزوج صفاء، تلك الشائعة التى نقلها إليه بركات فى خبث وشماتة لم يدركهما ضياء، وثار الحنق فى قلب الرجل وهو يتذكر كل ذلك، وهم أن يقول شيئًا، لكن الدكتور ضياء أسرع قائلاً:

- وسياستك الجديدة فى الصحيفة أشد خطورة لا على مفاهيم الجماهير فحسب، بل على كيان الجريدة نفسها. . تصور أن معدل التوزيع قد هبط لدرجة مخيفة. . .

فقال رئيس التحرير باقتضاب:

- أعلم ذلك . . وأنا على دراية تامة بكل ما يجب عمله . . لن تغلق دار الجريدة . . ولن تخسر كثيرًا من المال إذا ما ظل مستوى التوزيع منخفضًا . . يا عزيزى يجب ألا تفكر إلا فى مستقبلك . . ورجائى ألا تعترض على أوامرى . . فأنا صاحب الجريدة ورئيس تحريرها . . ثم إنى أكثر خبرة وبُعد نظر منك . .

لم يستطع الباشا بجبروته وإغرائه أن يسجن ضياء فى حجرة أنيقة بوزارته تحت قناع الوظيفة التى عرضها عليه كمدير لمكتبه ، لكن رئيس تحرير الجريدة المرتد الضعيف يوشك أن يسجنه فى دار الجريدة بحجة سلامة الجريدة واستمرار صدورها ، وفكر ضياء : أيترك العمل معه ويستقيل؟ وأين يذهب؟ الوظائف الحكومية مغلقة فى وجهه للشبهة السياسية التى لحقت به ، والجامعة هى الأخرى لا يستطيع أن ينال حقه فيها كمدرس للقانون ؛ لأن اسمه فى القائمة السوداء ، وليس هناك باشا يدوس القوائم السوداء ويتوسط له ويبلغه حقه المغتصب . . . وضياء ليس له دخل كاف كى يعيش منه . . . كلا . . . لن يستقيل ، لكنه فى الوقت نفسه لن يكتب إلا ما يؤمن به ، ولو رفض رئيس التحرير ذلك فسوف يبقى أيضًا دون أن يكتب شيئًا على الإطلاق ، ويكتفى بعمله الإدارى البحت . . . الميت . . . ودوام الحال من المحال ، والظروف

السياسية لا تعرف الاستقرار، من يدرى؟؟ المظاهرات الصاخبة تشتعل فى المدارس ضد الحكومة وسياستها، وحاسة الجماهير واعية . . . تستمد قوتها ووقودها من روح الله، ولن يفلح الخداع أبدًا . . . هذا ما انتهى إليه ضياء فى جولة تفكيره العميق المتصل الذى شغل ذهنه ليل نهار.

لكن صفاء . . . هذا الطلسم للغريب الذى يتحرق شوقًا إلى فض غموضه، وفهم رموزه، ما بالها شاحبة صامتة لا تفصح عن شيء؟ هل هى مرتاحة لوضعها الجديد، وسعيدة بالإشاعات التى يثيرها بركات والرفاق عن زواجها المنتظر من رجل فى سن أبيها حريص تمام الحرص على جريدته ورفاهيته ونفسه؟

والحقيقة أن صفاء لم تكن بعيدة أبدًا عن المشكلة التى تطحن ضياء الدين وتؤرقه، كانت تنظر إليه إذا ما مر بها، أو رفع عينيه إليها، وتشعر عند ذاك أنها تهوى . . إلى مكان سحيق لا قرار له، وتحاول جاهدة أن تستشف ما وراء صمته وقلقه الملحوظ، هل يفكر فيها كما تفكر فيه؟ أم أنه مشغول بآماله الكبار وحدها، بقضية الوطن والجماهير المعذبة التى يثقلها العسف والظلم، ويسحقها الفقر والضياع . . . ؟ لطالما تمنت دائمًا أن تخترق الحاجز السميك الذى تتلاطم من خلفه أمواج أفكاره الثائرة. هو الآخر بالنسبة لها طلسم غريب، لا

تعرف حلاً لرموزه وأحاجيه . . . إنه نوع فريد من الرجال، إن رئيس التحرير المحنك المجرب لم يكن غامضًا مبهمًا كضياء، وصفاء لا تنسى مطلقًا أنها لم تكد تقضى أسبوعين مع رئيس التحرير كسكرتيرة له، حتى أدركت أنه يعاملها بطريقة تثير التساؤل وتبعث على التفكير العميق، إن الرجل المتصابى يصرخ فى وجوه المحررين، ويعاملهم بشدة وقسوة، لكنه معها بالذات ترق لهجته، وتبش ملامحه، غير أنها تكره منه تلك الابتسامة الخبيثة التى تكشف عن طاقم أسنانه الصناعى اللامع، وتمقت أشد المقت أناقته المفتعلة وأصباغ شعره التى تشبه الوحل . . الوحل الذى يحلم به رجل يريد أن يسرق وينهب من الحياة قبل أن تميته الحياة، وتكتب السطر الأخير من عمره، إن رئيس التحرير فى نظرها كطفل ساذج يكشف عن خبايا نفسه دون جهد يذكر . . وهل تنسى يوم أخذها معه إلى مقهى ليلى هادئ لا يؤمه إلا علية القوم وبعض الجنود الإنجليز وهمس مرتبكًا لاهثًا :

- صفاء . . . عشت طول عمرى فى وحدة قاتلة . . كنت أختلس المتع الرخيصة إذا ما عجزت عن الصبر، لم أتزوج لأنى آمنت آنذاك ببدعة جديدة وهى أنى يجب أن أعيش للفن والفكر، ظننت أن الزواج خصم لدود للإبداع الفنى، وقيد سخيف يحد من حريتى . . وأوشك أن يفوتنى القطار . .

لكنى . . اعذرينى فيما أقول . . أعنى أنى رأيتك فانهارت مقاومتى، وتبين لى زيف حياتى وفراغها . . صفاء . . هل تقبلينى زوجًا؟

وانفجرت صفاء باكية آنذاك، وكتمت شهقاتها ودموعها التى أفلتت منها، وشعر الرجل بحرج موقفها، ودقة وضعه، فاستدرك قائلاً :

- لا . لا . معذرة يا عزيزتى، لا أعنى بالضبط ما أقول، إنها مجرد دعابة سخيفة . . أرجو ألا تترك أثرًا سيئًا فى نفسك الغضة يا عزيزتى . . إنك رقيقة وخجولة أكثر من اللازم . . لن أعود لمثلها . . لن أعود، لشد ما أنا ظالم فى دعاباتى ! !

وخيم على قلبه سواد قاتم مخيف، وخيل إليه أن راية سوداء تخفق فى الأفق كتلك التى ينشرونها عند تنفيذ أحكام الإعدام، لكنه ضحك . ضحك حتى كادت تنفرط من عينيه الدموع . .

***

وحينما عادت صفاء إلى بيتها فى «العباسية» كان أبوها المحال على المعاش والذى لا يغادر البيت إلا نادرًا، لا يزال يجلس فى الصالة، وفنجان القهوة فى يده يرشف منه فى لذة واستمتاع، وعند موطئ قدميه جلست أمها ترتق جوربًا لم يبل

تمامًا بعد، وعمتها التى تقيم معهم من زمن بعيد بعد أن مات زوجها دون أن تنجب أحدًا، هى الأخرى تجلس إلى جوار أخيها وترشف القهوة، وغمغم الأب مسرورًا:

- أهلاً يا صغيرتى الثائرة. . لشد ما أوحشتنى مقالاتك. .

فقالت وهى تبتسم فى فتور:

- وماذا أفعل؟ لقد وجدتك فرحًا بزيادة مرتبى، ولم تفكر آنذاك فى مقالاتى.

- ولم لا يزيد المرتب، وفى الوقت نفسه تتحفينا بالمقالات؟

- الجريدة تشترى صمتنا، والحكومة تشترى ضمير رئيس التحرير، وهذا هو الموضوع باختصار. . وتشعب الحديث عن الأمور الخاصة والعامة، العمة تتحدث عن ذكرياتها وأيام زمان، وثورة عرابى، والأب يستطرد فى الاتجاه نفسه ويروى عن الأستاذ الإمام محمد عبده، وقاسم أمين، والتيارات الفكرية المتضاربة، والأم تنكر على الأب ثرثرته الدائمة حول الوزارات والإنجليز والتاريخ مما يصدع الرأس، ويجعلها تمله لكثرة تكراره، وصفاء وسط النقاش تترنح متعبة، تريد أن تنام، وصورة الدكتور ضياء الدين تحتل رأسها، مثيرة كالطلسم، قوية كالإيمان. . كالأمل والحب، واستأذنت لتنام،

لكنها لم تكد تدخل حجرتها حتى أخرجت أوراقًا وقلمًا لتكتب.

تكتب خطابًا لضياء الدين وليس مقالة للجريدة كما كانت تفعل قبل أن تكون سكرتيرة خاصة..

***

وفى اليوم التالى عاد ضياء الدين إلى مسكنه فى شارع «محمد على» متأخرًا، وأفاق البواب على وقع خطواته، فقام والنوم يداعب أجفانه، وقدم إليه خطابًا، ودس ضياء الخطاب فى جيب «جاكتة»، ثم صعد الدرج قاصدًا شقته، لكن البواب لحق به مرة أخرى وهو يقول:

- نسيت أن أخبرك أن رجلاً من قريتكم اسمه محروس أفندى جاء هنا يسأل عنك، وتكرر حضوره ما لا يقل عن عشر مرات..

- عم محروس؟

- أجل.. مسكين.. كان يبكى، ودعوته للبقاء حتى تعود لكنه لم يبقَ.. وقال: إنه سوف يصلى الفجر فى السيدة ويعود هنا فى الصباح الباكر.

ولم يستطع ضياء أن يمنع نفسه من التفكير فى أمر محروس أفندى، ترى لماذا جاء؟ هل طلبه الباشا لأمر مهم.. ليجدد

مؤامرة القتل بعد أن فشل الدهاء والإغراء، أم جاء فى زيارة بريئة ليحظى بالحلول ساعة فى رحاب أهل البيت وأولياء الله تعالى الصالحين.. ونسى فى خضم متاعب النهار والتفكير فى الجريدة وفى محروس أفندى أمر الخطاب الذى يسكن جيبه.

وتثاءب وهو يمتطى، كان يشعر برغبة جارفة فى النوم، وتمنى أن يستغرق فى نوم عميق ليوم كامل.. ليومين، إنه يريد أن ينسى تحت سلطان النوم مشكلاته العديدة، ومسئولياته الكبار، ولو إلى حين.. لكن هيهات، تناهى إلى سمعه رنين جرس الباب ملحًا متواصلا.. كإنذار بالخطر، وعندما فتح الباب وجد أمامه صديقه السورى اللاجئ إلى مصر «عدنان الأسطوانى».

- أهلا.. عدنان..

- نسيت الاجتماع يا دكتور..

- الاجتماع!!

قالها ضياء وهو يعض على شفتيه من الغيظ، ويضرب جبهته بقبضته اليمنى:

- لقد نسيت يا عدنان.. وأوشك أن أنسى نفسى.. لشد ما أنا متعب..

- كلهم فى انتظارك . .

- الآن؟

- أجل . . ولن ينفض الاجتماع حتى نصل إلى قرار . .

وأعاد ضياء خلع منامته وارتدى ملابسه وهو يغالب عوامل النوم والتعب والملل . . وليل القاهرة ساكن بارد كجسم ميت ، والمصابيح الصغيرة المتناثرة عبر الشارع تبرق كأنها عينا عثمان باشا اللتان تخترقان فى شراسة، وهو يتطوح يمنة ويسرة ورأسه يكاد ينفجر من أثر صداع شديد . . والخطاب الذى نسيه ينزوى فى ركن جيبه .

□□□

[٨]

كان اجتماعًا سريعًا عاصفًا، على رأسه الدكتور ضياء الدين، ويشترك معه عدنان الأسطوانى، ومندوب عن الطلبة، وآخر عن العمال، كانوا جميعًا قد كفروا بالحزبية ووسائلها فى تحرير الوطن، ويأسوا تمام اليأس من جدواها، ومن ثم كان أساس التقائهم هو العمل للوطن. . الوطن وحده دون التقيد بحزب، أو الارتباط بكبير من الكبراء، وكان واضحًا أن إمكانياتهم المادية أضعف من أن يعتمد عليها، لكن رصيدهم من القيم الروحية كان كبيرًا، وكان هؤلاء الأربعة رءوسًا لتشكيلات كثيرة -وإن كانت غير منظمة تمام التنظيم- من الطلبة والعمال وبعض فئات الشعب الأخرى. .

وعدنان الأسطوانى شاب سورى ثائر، كان له دور خطير فى الثورة السورية ضد قوات الاحتلال التى بسطت نفوذها على سوريا ولبنان، وأهرقت دماء الأحرار، وفتحت السجون للمخلصين من دعاة التحرر والقومية العربية، وفر عدنان من

وجه الطغيان عندما حكم عليه -غيابيًا- بالإعدام، وكثيراً ما كان يضحك فى سخرية كلما طلب منه ضياء أن يكف عن نشاطه بحكم وضعه كلاجئ سياسى، لكنه كان يقول: «لقد حكم علىّ بالإعدام ولولا الصدفة المجردة لكنت الآن فى عداد الأموات. . أما وقد كتب الله لى النجاة فلا أقل من أن أعتبر أيامى زائدة. . فلأضحِّ ولأفرض أنى قد مت منذ صدور حكم الإعدام. .».

***

كان ضياء متعبًا، ينتابه فتور شديد، لكن ما إن وقع بصره على الأصدقاء الثلاثة، حتى زايله إرهاقه رويدًا رويدًا، وما إن أخذ حمامًا فاترًا وفنجانًا من القهوة حتى بدا هادئًا منتعشًا لا أثر للتعب أو الفتور فى حركاته. . وعندما تحلق الأربعة قال ضياء بعد فترة تفكير:

- ها نحن نعمل منذ شهور، وأقمنا بعض المظاهرات فى أماكن متفرقة فى القاهرة والأقاليم، ومع ذلك فلم نستطع الوصول إلى ما كنا نهدف إليه. . أنا معكم فى أن المعركة ليست سهلة سريعة النتيجة، ولا يتصور عاقل أن بضع مظاهرات وهتافات سوف تحل المشكلة وتسوى الأزمة. فها هو حزب الشعب قد حكم، والانتخابات أجريت فى جو من

الزيف والإرهاب لا مثيل له، والإنجليز يزعمون أنهم لا يتدخلون فى أمورنا الداخلية حتى يظهروا أنفسهم بمظهر البراءة ودماء الأحرار تلوث أناملهم.. فالموضوع الذى نريد بحثه الآن هو لمن توجه الضربة؟ هذا هو السؤال الذى يجدر أن نجيب عليه أولاً..

فأسرع زعيم الطلبة قائلاً:

- صدقى باشا هو يد الشيطان التى تبطش بالحديد وتعطل الاستقلال.

فقاطعه زعيم العمال فى حدة:

- لا.. إن صدقى واحد من باشاوات القاهرة الكثيرين.. عضو فى أسرة قذرة تمهد للعبودية والاستغلال، وتملك الشركات والإقطاع والعزب، وتستطيع بما تملك من مال ونفوذ أن تلعب فى الخفاء، وتخنق أصوات الحرية، وتدمر كل مشروع للإصلاح.. وهم زعيم الطلبة أن يقول شيئًا، لولا أن عدنان الأسطوانى زمجر فى لهجة سورية متحمسة:

- لماذا تنسون المندوب السامى، أنسيتم أنه فى إحدى الحفلات الرسمية كان يجلس واضعًا ساقًا على ساق وحذاؤه يتجه إلى حيث يجلس الملك فؤاد.. وفؤاد لم يتململ أو يثر، المندوب السامى هو رأس الأفعى.. حذاؤه الذى رفعه فى

مـواجـهـة الملك هو نفس الحـذاء الذى يدوس به الدسـاتيـر والحريات وكلمة الشعب، وفؤاد وصدقى وباقى الباشوات أدوات قذرة فى يده . . أليس كذلك؟

وصمت الجميع برهة، كان ضياء يرقب حركاتهم، ويستمع إلى كلماتهم فى إمعان، وابتسم فى شىء من المرح لعله يزيل قليلاً من التوتر السائد:

- أين أذنك يا جحا؟؟ ويرفع جحا يده اليمنى، ثم يدور بها حول قفاه، حتى يصل إلى أذنه اليسرى بعد جهد وضياع وقت . . ولو لم يكن جحا مشاغبًا مهذارًا، لرفع يده اليمنى على الفور وأمسك أذنه اليمنى . . وانتهى الأمر .

وحملق فيه الأصدقاء الثلاثة كأنما يتساءلون تساؤلاً صامتًا معناه: ما دخل جحا وأذن جحا فيما نناقشه من أمور خطيرة الآن؟ أو لعلهم ظنوا أن ضياء قد بدأ يخرف من طول السهر والإجهاد وابتسم وهو يقول:

- أيها الأصدقاء . . إن الملك وصدقى والباشاوات وأصحاب رأس المال والمندوب السامى والأذناب . . كل هؤلاء صفات عامة لسرطان خبيث هو الاستعمار . . هو منبع الإثم والضياع وهو لاعب الشطرنج الأكبر . . بل رأس الشيطان التى تدبر وتعمل فى لؤم . . والآن لعلكم علمتم لمن

توجه الضربة . . بل الضربات القاصمة . . نحن نحلم بالحرية أيها الأصدقاء، ولن تتحقق الأحلام إلا بثمن باهظ . . بتضحيات غالية أكثر من مجرد المظاهرات والهتافات . . إننا نكره العنف والدم ونعشق السلام، لكن كيف نتصرف مع من يسرق سلامنا، ويريق دمنا، ويحرمنا الحب والحياة والأمل والحرية . . ؟؟ حطموا رأس الشيطان يصبح جسدًا هامدًا، وينطلق تاريخنا السجين من عقاله، ونأتى بالمعجزات، ويصبح أمرنا فى يدنا لا فى يد حكام أتراك، مندوب سامٍ، أو باشا مأجور.

وصمت ضياء الدين، واختلجت شفتا عدنان الأسطوانى، بينما تمتم مندوب العمال: «هو ما تقول فعلاً . . لقد فهمت»، أما زعيم الطلبة فقد همس فى صوت مبحوحٍ «أنا تحت أمركم . . أستطيع أنا ورفاقى أن نفعل ما تأمرون به . . » . وأخذ ضياء يتفحص الجميع بنظراته الثاقبة، وفى رأسه المشتعل صورة للباستيل الكبير وهو يتقوض تحت وطأة ضربات الثائرين، والعربة المكشوفة وهى تنطلق وسط هدير الجماهير وهتافاتهم، وعليها الخونة، فى الطريق إلى المقصلة . .

وجاءهم صوت الأسطوانى يقول:

- والآن ما هو المطلوب عمله بالضبط؟

فأجاب ضياء :

- العين بالعين . .

- ماذا تعنى؟

- الطغاة الذين قتلوا آباءنا وإخواننا بالمئات منذ ثورة عرابى حتى الآن يجب أن يقتلوا . . أى إنجليزى فى مصر دمه مباح . .

- عصابة اليد السوداء من جديد . .

- لا دخل لنا بالمسميات يا عدنان . . نحن فى معركة ، ومعتدى علينا ، والأحزاب لا تتحرك لأن مصالحها وأطماعها فوق كل اعتبار ، والملك يقتعد أريكة وثيرة مريحة . . والشعب الحقيقى يطحنه العذاب . . مصيدة فى كل مكان والفأر الذى يقع فى الفخ لن نفلته . . بهذا تتحقق الأحلام ، إذ إننا بذلك نقتلع الداء من جذوره . . والآن لم يبقَ أمامنا سوى أن نبحث عن «الطعم» الذى يستهوى الفئران . .

وامتد الاجتماع حتى الصباح الباكر ، وناقشوا الأمر من جميع نواحيه ، كانوا يرتجفون ، الجبابرة ليسوا لقمة سائغة ولكنهم قوة وإصرار ودفاع عن المجد الملوث ، وفى أيديهم الإمكانيات ، المسألة مغامرة رهيبة ، لكن ألم يتفقوا بادئ ذى بدء -كما قال ضياء- على أن أرواحهم هى الثمن؟

***

وعـاد ضيـاء إلى دار الجريدة فى الصبـاح، وكـان شـاحبًا مصدع الرأس، الكلمات على الورق أمامه تتداخل وتختلط، والمحررون يتحركون داخلين خارجين، وكأنهم أمام عينيه الزائغيتين أشباح تروح وتجىء، وصورة عثمان باشا تحتل الصفحة الأولى ومعه بركات فى شبه انحناءة، وعناوين كبيرة حمراء وسوداء وصور فوتوجرافية وكاريكاتيرية، وفى الصفحة الأخيرة صورة لحرم عثمان باشا، صاحبة أحدث تسريحة فى حفلة أمس، وفى صفحة داخلية فى ركن مهمل لا يكاد يقرؤه أحد خبر مؤداه أنه قد تم القبض على بعض المتظاهرين فى مسجد السيدة زينب، وسوف يقدمون للمحاكمة لينالوا جزاء ما أجرموا فى حق الدستور ورئيس الوزراء.

وصفاء هى الأخرى مرت به فى الصباح ذاته، وفتح عينيه وانتبه لنفسه، لكنها مرت بسرعة مثلهم تمامًا.. شبح من الأشباح، لكن لا. لقد مرت بسرعة حقيقة لكن صورتها لم تزل عالقة بذهنه، ليست مثلهم أبدًا، برغم أنها قد أساءت إلى نفسها وأساءت إلى ضياء بقبولها منصب سكرتيرة خاصة.. إن ضياء يخاف عليها، فالأيدى العابثة التى لا ترحم مستقبل الأمة لا يهمها مستقبل فتاة، والذين داسوا حرمة الدستور من اليسير أن يدوسوا أعراض النساء، والمسكينة وحدها تعيش

وسط الذئاب، «كانت جدتى تروى لى أساطير كثيرة، وكلها عن الملوك، والغريب أن أغلبها كان يدور حول الملوك حين يعشقون ويسرقون النساء. . . لكن رحمة الله عليك يا جدتى لقد كان الفقراء الشرفاء فى أساطيرك ينتصرون دائمًا. . وكان الله معهم، وفى مصر ألف ملك صغير غير فؤاد. . وشهر زاد فوق سرير من ذهب، وتحكى عن ضمير الزمان خيالات كالحقيقة، ، وتدق الطبول يا مولاى، وتعزف المزامير، وتنحنى الجباه لملك الملوك وسلطان الحياة. .».

خليط عجيب من الأفكار والذكريات دار برأس ضياء المتعب، فانحنى فوق مكتبه ووضع رأسه فوق الأوراق الكثيرة المتكدسة أمامه، ولم يعد يشعر بنفسه أو بما حوله. . لقد نام نومًا عميقًا وهو جالس، وجرس التليفون يدق إلى جواره، وكأنه على مسافة أميال لا يكاد يسمع شيئًا على الإطلاق، ولم يدرِ ضياء أطال الوقت أم قصر، لقد رفع رأسه على يد تهزه برفق، وصوت يناديه: «يا أستاذ. . يا أستاذ. . صح النوم، بالباب رجل يلح فى طلبك، وقد حاولنا صرفه لكنه تشبث بالبقاء، فطردناه غير أنه لم يتحرك وأخذ يبكى».

ففرك ضياء عينيه فى تراخٍ، وإن خفت حدة الصداع بعض الشيء وقال بصوت ناعس:

- من هو؟

- اسمه محروس . . تصور أنه يقول عن نفسه : أنا محروس أفندى .

- أدخله . . أدخله فوراً . .

ودخل الرجل يلهث، عيناه محتنقتان، كث اللحية، مظهره يوحى بالبؤس والألم، وتمتم ضياء بعد أن استقبله فى حفاوة وحياه أجمل تحية :

- ما بك يا عم محروس؟

- لم أنم طول الليل . .

وفكر ضياء، كلانا لم ينم . . أنت تبكى وتشكو إلى الله، ونحن نفكر فى صنع المصايد لنسجن فيها صانعى الدموع . . دموعك ودموع الملايين . . وواصل الرجل حديثه :

- بت فى رحاب السيدة، طردونى من داخل المسجد لأن النوم ممنوع بأمر الوزارة هناك، فنمت فى الرصيف أمامها، والبرد يا ولدى كالسم، وأنا كبرت فى السن . . خفت أن أنام فى فندق فيجردونى من قروشى القليلة . . فآثرت البرد والسهر فى حمى «أم العواجز» بعد أن فشلت فى لقائك . . تعذبت كثيراً الليلة، لكننى كنت أشعر أن الله معى وقريب منى

جـدًا، وذرفت بين يديه الدمـوع، لطالما أجـرمت فى حق الله وأسـأت إلى الناس باسم البـاشـا وبـأمـره . . لكنى تيـقظت . . أجل تيقظت على صفعة من كف ابنى الأكبر . . هذا القاسى العـاق الذى حـرضـه البـاشـا علىَّ، بعـد أن طردنى من نظارة العزبة وعينه مكانى . تصور . . الباشـا ذلك الخبيث استطاع بدهائه وإغرائه أن يوغر صدور أولادى فيضربونى ويفضحونى أمام الناس، ويتـهمونى بالجنون وبله الشيـخوخة . . أنا أولادى وأولادى هم أنا، لكن البـاشـا اسـتطاع أن يجـعلنا فـريقـين متناحرين، وخـرجت من القرية مطرودًا لا أدرى أين أذهب . . يا للعار . . لكن ألا تظن أن فى ذلك تكفيرًا لذنوبى، وتحريرًا لى من قبضة الشيطان؟ سوف أتسول لكنى سوف أعيش شريفًا مرتاح الضمير .

وأخذ الرجل يخفف دموعًا تساقطت فوق خديه كالفولاذ المنصهر، كان ماضيه وضعفه وخيبة آماله وشيخوخته تتحول إلى دموع، وهمس ضياء فى حنان :

- عم محروس .

- نعم . .

- ألن تذهب وتعتذر للباشا؟

فقال الرجل فى رعب :

- أعود إلى الجحيم بقدمى؟ لقد نجانى الله . . قال لى الشيخ الشاذلى وأنا فى طريقى إلى هنا : إن السلام الذى افتقدته فى ظل الباشا والخفراء والسلطة . سوف تجده هناك، عند «أهل البيت» وأنت بلا مال ولا أهل ولا سلطان، وشيخى لا يكذب أبداً .

وافتر ثغر ضياء عن ابتسامة عذبة وهو يقول :

- الآن طابت نفسى، عم محروس، أنا ابنك وأنت أبى، وشقتى تسع اثنين وثلاثة بل وعشرة، وبالقرب من أهل البيت، لن تحس بغربة أو يراودك السأم .

وانهمرت دموع الشيخ من جديد :

- أنت ابن الأكابر .

- دعك من هذا، أنا فلاح ابن فلاح .

- يا ابن الأصول . .

□□□

[٩]

الحياة تمضى فى القاهرة بطيئة حزينة، والليل يمر طويلاً مملاً وكأنه دهر، والمظاهرات التى تنتفض من آن لآخر تشبه نارًا فى هشيم سرعان ما تشب وترتفع ألسنة اللهب، لكنها فى وقت قصير تتحول إلى رماد وضحايا وذكرى تضاف للذكريات ومآسٍ قديمة، وعيد الميلاد يقترب، ولعيد الميلاد فى ذهن ضياء معنى آخر يختلف تمامًا عما يفكر فيه الناس جميعًا، إنه لا يحلم بالحفلات الراقصة، وساعة تدق أجراس الكنائس، وتلتقى الشفاه، ثم تنبعث الموسيقى المرحة المثيرة، إنه لا يفكر فى ذلك بل يفكر فى «الطعم».

كان ضياء يجلس فى مسكنه بشارع محمد على، وعم محروس يجلس قبالته هادئًا يتمتم بالأدعية والصلوات على النبى، يلبس جلبابًا ريفيًا أبيض، وعلى رأسه طاقية صوفية بيضاء، ولحيته التى قد أطلقها حديثًا تبدو كأسلاك الفضة، والمسبحة السمراء الطويلة تعبث أنامله بحباتها الصغيرة، ومع

ذلك فقد كانت عينا عم محروس ترقبان ضياء فى ما يفعل، وسيما التفكير العميق، ترتسم على وجهه الأسمر المجعد، ولم يك ضياء يكف عن العمل الخفيف الذى يزاوله، والذى يتصل بإعداد طعام الفطور والشاى والقهوة أو غسل بعض المناديل التى لا تستحق أن تترك حتى تأتى الغسالة فى يومها المعروف من كل أسبوع. وفى براءة الريفى الطيب الذى لا يقصد معنى خفيًا غير المعنى الظاهر للكلمات قال عم محروس:

- يا ضياء يا بنى.. لماذا لا تتزوج؟

وابتسم ضياء وهو يضع الأرغفة أمام عم محروس، وطيف رقيق خجول قد رف فى خياله آنذاك، أجل.. تذكر على الفور صفاء بوجهها الشاحب الحزين، وقسماته الحلوة والغموض الغريب الذى يغلف حياتها، قال ضياء مداعبًا:

- لا أستطيع أن أتزوج غير عروس بعينها.

- لو خطبت بنت باشا لزوجوها لك وحسدوا أنفسهم.

- ومن أين أطعمها؟

- مرتبك، إن ما يكفى واحدًا من الممكن أن يكفى اثنين.

فسكت برهة، ثم ذهب وأحضر طبق الفول المدمس وقال:

- إن مصيرى ومرتبى . . وعروسى بين فكى الذئب والذئاب لا ترحم الضحية . . وضحك محروس، ضحك من أعماقه ضحكة صافية بيضاء، اغرورقت لها عيناه بما يشبه الدموع، فقال وهو يرمقه بنظرات حانية :

- إنك تتكلم كما يتكلم شيخنا الشاذلى عافاه الله .

- لا ينقصنى سوى العمامة واللحية والأتباع، والقلب الزاهد فى كل شىء . ألا ترى أن ما ينقصنى شىء كثير لا يمكن استكماله .

وابتسم محروس مرة ثانية : لكن حدثنى مرة أخرى عن الذئب والعروس . . إن الذئاب فى قريتنا لا يخطفون إلا الدجاج . فهل ذئاب المدينة تفترس البشر؟؟

فقال ضياء :

- هو ذلك بالضبط . عندنا فى الجريدة طائفة من الذئاب، وفى الشركات والمجتمعات الدنسة وفى ثكنات قصر النيل أيضًا غابات الذئاب .

- لكن متى تتزوج؟

- عندما أضمن لأسرتى ما يكفل لهم لقمة العيش والحياة المعقولة .

- الله يرزق من يشاء بغير حساب .

- من يشاء فقط . . وليس كل من هب ودب .

وبان الألم فى وجه الشيخ فأردف :

- أخاف عليك الفتنة . .

فقال ضياء وهو يملأ فمه بالطعام :

- لعن الله من أيقظها . .

كانا يأكلان فى جو يسوده المرح والهدوء، ثلاثة أسابيع مرت منذ قدم عم محروس، لقد شعر خلالها بفيض من الراحة والسلام ينسكب فى حنايا قلبه، وأخذت مأساته تنزوى رويدًا رويدًا فى ركن قصى من نفسه، لكنه لم يكن ينسى أن تلك اليد التى غذاها ورباها حتى أصبحت يد رجل . . يد ابنه «سلطان» لم تكن لتمتد إليه بالأذى فى يوم من الأيام وتصفعه لتحريض الباشا، أو إغراء المنصب الجديد، وكان يفكر من آن لآخر . . «سلطان ابنى وحش مجنون»، ولن يكون سوى مقصلة يقطع بها الباشا رقاب مناوئيه والمعترضين على نزواته ورغباته .

وعندما يصحو ضميرك يا سلطان -وهيهات- تكون قد فقدت كل شىء . وتبكى بدل الدموع دمًا ثم تعود لمن نفخ فيك، وملأك وهمًا وغرورًا فيصرخ بخدمه : أخرجوه من هنا

ألم يفعلها مع أبيك يا «سلطان»؟ بل ألم تكن أنت سوطه الذى هوى به فوق جسدى، ويده التى بطشت بى؟ ومن آن لآخر يذكر عملاً خسيسًا فعله بأمر الباشا أو بأمر أبيه أيام نظارته، ويخجل محروس من نفسه، فقد أشعل فى «ساقية» بعض الفلاحين، وفعل مثل ذلك فى حقل للقمح، وذلك الفلاح الذى سرق ثمرتين من ثمار المانجو ذات يوم من حديقة الباشا، لقد أمسك به محروس وربطه فى شجرة قريبة، وظل يضربه وهو يستغيث ويذرف الدموع، والناس يشاهدون المأساة فى ذهول وصمت.. كل هذه الخواطر والذكريات كانت تطوف بذهن عم محروس، فيختلج جسده، لكن سرعان ما يلامس لحيته البيضاء ويتنهد فى أسى ثم يحوقل ويبسمل ويستغفر الله، ويهتف: «نظرة يا سيدة.. نظرة يا شيخ شاذلى».

وقال ضياء بعد أن أنتهى من تناول الطعام:

- كم أنا سعيد بوجودك!!

- لكنى خجل من نفسى..

وقال ضياء بانزعاج:

- كيف؟!

- طالت إقامتى.. وستطول، وأنا لا أرضى أن أعيش هكذا عالة عليك أنام وأصحو وآكل، ثم أذهب إلى المساجد

وأزور أولياء الله الصالحين وأعود من جديد لأنام وآكل . . لقد فكرت يا لدى أن أرفع قضية ضد أولادى فقد سلبوا مالى وأرضى وطردونى . لكن . . الشكوى لغير الله مذلة .

وأخذ ضياء يرتدى قميصه على عجل ، ويدخل إحدى ساقيه فى سرواله ويقول :

- لم أكن أظن أنك ستشعر بالحرج هنا ، إنى فى غاية الألم . . أيحرج الإنسان فى بيته؟

- لكنك ذو مستقبل ومسئوليات . .

ولم تلتقط أذناه عبارة محروس الأخيرة ، فقد شرد مفكراً ، كانت الأفكار الموفقة تهبط على ضياء فجأة كالخاطرة العابرة ، كالإلهام غير المنتظر ، شىء لا حيلة فيه بل يجود به الله عليه ، وهتف ضياء :

- ما رأيك فى أن نفتح لك محل بقالة فى نفس العمارة؟

فأشرق وجه عم محروس :

- كان النبى يتجر فى أموال السيدة خديجة ، وكانت أمانته مضرب الأمثال ، ومن ثم فقد لقبوه بالأمين .

- أتوافق إذن؟

- أشرف مهنة إذا خفنا الله واتقيناه .

- حسن، فكرة رائعة.

- وأين المال؟

- نبدأ بأى شىء، لنكن شركاء، علىَّ رأس المال.

- وأنا؟

- مدير المحل.

وضحك محروس فى سرور، أعجبته كلمة «مدير»:

- مدير المحل، مدير الغربية، كلنا مدير والسلام.

***

وخرج ضياء قاصدًا دار الجريدة، كان أهدأ بالاً من ذى قبل، واستطاع أن يغتنم فترات من الراحة أعادت إليه هدوءه ونشاطه، فضلاً عن أن اختصاصاته فى الجريدة قد تضاءلت لحد كبير وانحسر ظله رويدًا رويدًا عن المساحات التى كان يشغلها قلمه، حتى المقالات والتحقيقات الصحفية كانت ترد إليه من رئيس التحرير بعد أن يوافق عليها، وهو يقوم بدور التنفيذ فقط. «بصمجى» لا رأى له، لم يعد يجد تعبًا فيما يزاوله من عمل، لكن القلق بدأ يراوده، سلطانه على المحررين قل بصورة واضحة وأصبح لبركات من السلطة والنفوذ مالم يعد له هو، «سبحان المعطى الوهاب»، وأخذ يتحسس جيبه ويبحث عن بضعة قروش ليشترى علبة سجائر وتمتم: «على العموم نحن فى

آخر الشهر، وفى البيت تموين يكفى، وغدًا أقبض المرتب . . »
وعندما كانت أصابعه تعبث فى جيوبه عثر على خطاب يبدو أنه قديم مهمل فى جيبه لفترة طويلة لا شك أنه خطاب من أحد القراء المعجبين يسأله عن حاله ولماذا لم يعد يكتب مقالاته النارية، ويحارب الظلم والطغيان، عشرات الخطابات وردت إليه تحمل هذا المعنى، كان يقرؤها والدموع فى عينيه، ولما عرضها على رئيس التحرير لم يجب بغير الصمت المطبق، ومع ذلك فقد أخرج الخطاب المهمل وفضه وأخذ يقرأ :

«عزيزى ضياء . .

لست أدرى على وجه التحقيق لماذا أكتب إليك، الحقيقة أن الأمر يربكنى، وأنا التى لم تسطر من قبل خطابًا لرجل، كانت خطاباتى دائمًا موجهة للجماهير العديدة التى تعشق الكلمة المخلصة، ومع ذلك قد يكون للتطورات الأخيرة أثر كبير فى دفعى للكتابة إليك . . ولماذا لا أكتب وأنت الرجل الذى تعلمت منه الكثير، واستفدت من إرشاداته وتجاربه وسلوكه الشريف؟ معذرة . . فقد أحسست بك فى الأيام الأخيرة وأنت كالغريق، مثلى تمامًا، كلانا غريق، ولعل التقاءنا عند مأساة واحدة هو على الأرجح -الدافع للقائنا . . على الورق . .

إن كلمة «سكرتيرة خاصة» كلمة ذات رائحة تزكم الأنوف، كنت كلما سمعتها عادت إلى ذهنى صورة المستنقع

الآسن ولعل انعكاسها على نفسك مثل انعكاسها على نفسى تمامًا، وماذا أعمل؟؟ فى يوم واحد جاء «بركات» وطلب منى الزواج وألح فيه، وفى اليوم نفسه طلبنى رئيس التحرير، وجردنى من قلمى الثائر الذى علمتنى كيف أشرعه فى سبيل الحق والشرف وقومنا المعذبين، وأعطانى قلمًا رقيق الحاشية لا يثور.. قلم السكرتيرة الخاصة.. وكنت بين أن أقبل الوضع التعس، أو أن أعود إلى بيتى خاوية الوفاض.. بلا مرتب.. وهل أخفى عنك أن مرتبى الآن ضرورة من الضرورات لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لأسرتى؟؟ وبعملية حسابية بسيطة عرفت كيف أختار.. الشارع أم الجريدة، وهكذا أصبحت سكرتيرة رئيس التحرير الخاصة.. كنت أتبعه كظله فى الحفلات والمقابلات الرسمية والمكتب، وشعور بالإثم يلاحقنى.. أصبح كل من ألقاهم وجوهًا مكتنزة عليها آثار النعمة والتخمة.. خنازير بشرية، كل ما فى أيديهم ذهب.. المال، والأقلام ومبسم السيجار والساعات والخواتم.. ولرئيس التحرير أصدقاء من كل صنف.. راقصات.. فنانات.. بائعات هوى.. ضباط إنجلترا.. ناس من الخاصة الملكية.. مثل تاجر الروبابيكيا.. الجميع أصدقاؤه وزبائنه. والمصلحة متبادلة.. مجتمعات غريبة لا صلة لنا بها على الإطلاق، لا يفكرون فى شىء مما تفكر فيه على الإطلاق..

سكارى لن يفيقوا إلا على حدث كبير. . وأحسست فى هذا الجو بأصابع خفية تكاد تخنقنى، ودموع ملء روحى وكيانى تريد أن تنبجس. . أن تنطلق لتخفف ما بى من ألم حاقد لكنى كظمت غيظى، وقلت: «صبرًا لتغمضى عينيك كى تعيشى ويعيش أبوك وأسرتك. . » لكن لم أحتمل عندما جاء رئيس التحرير ذات يوم رشيقًا أنيقًا متصابيًا، وقال بنبرات مائعة: «عزيزتى صفاء. . هل تقبلينى زوجًا لك؟؟» عندها كدت أرفع يدى النحيلة وأصفعه على وجهه، لكنى عندما نظرت إلى وجهه المجعد تذكرت أبى. . هل أصفع رجلاً مثل أبى، وخيل إلىَّ أن أمى تمسك بيدى وتقول: «حرام يا صفاء. . اصفحى يا بنتى فنحن فى حاجة ماسة إلى مرتبك. . » ودار رأسى، والرجل قبالتى ينتظر الجواب الحاسم، ووجدت نفسى عاجزة عن أقول لا. . أو أقول نعم. . أجل أدركت أنى ضعيفة، وحيدة مقهورة. . فلم أجب بغير الدموع الغزيرة التى سالت فوق خدى، والشهقات التى كنت أحاول جاهدة أن أكتمها. . وبعدها أطبق الرجل فكيه ثم اعتذر فى رقة، وطوى حزنه وضياعه بين ضلوعه، لكن لم ترحمنى الشائعات التى سرت كالنار فى الهشيم. . بركات الوغد كان دائمًا يقذفنى بقاذورات فمه وحقده. . وأنا وسط هذا الجو المسمم أمضى وكأنى عارية من كل فضيلة، وأصابع السوء تشير إلىَّ،

وهمسات الإثم تطاردنى دون رفق أو هوادة، ويجعلنى بركات أمر من أمامه ذات يوم، ويقول لصديق إلى جواره: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» فيرد صديقه: «كل ابن آدم خطاء وأحب الخطائين إلى الله التوابون» لم يكن لى خطيئة لكن خطيئتى الوحيدة هى أن محتاجة.. فقيرة، ومضطرة لأن أكون سكرتيرة خاصة لرجل عجوز متصابٍ غير متزوج»..

عزيزى ضياء..

إن الدموع تغلبنى من جديد وأنا أكتب إليك، وأبى يجلس فى الصالة يرشف القهوة سعيدًا مرحًا، وأمى تقول له: اخفض صوتك حتى تنام صفاء لأنها متعبة. وكثير من الحقائق والمثل تختلط فى مخى، ويشلها الغموض والتناقض، وأنا وسط هذا الطوفان الأسود معذبة ممزقة لا أعرف لى رأسًا من رجلين.

إنى أمد يدى إليك مستنجدة. بعد أن سدت فى وجهى السبل، وضقت بالألم والضياع والأرق.

فهل أشعر فى تصرفاتك من جديد بشىء ينبئ عن عدم سخطك علىَّ، ونفورك منى بعد أن عرفت الحقيقة؟؟

إنى أنتظر.

المخلصة

صفاء

وطوى ضياء الدين الخطاب، الخطاب الذى ظل مهملاً فى جيبه أكثر من عشرين يومًا، وهو فى زهد. بل نسيان تام عن أن يفضه، الوجه الشاحب الحزين، وجه صفاء يرتسم فى خياله وفوق الأبنية الشاهقة التى تتعالى كالكبرياء على جانبى الشارع وفى وجود العذارى السائرات فى الطريق العام، وخلف زجاج كل عربة تمر من أمامه، ويطل عليه من الشرفات الكثيرة التى تتطلع إلى السائرين بعين متوسلة. وثكنات قصر النيل هناك جوار الجسر العتيق، وموج النيل يصخب ويهدر. وصدقى باشا زعيم حزب الشعب يدلى بالتصريحات، ويعد بالرخاء والحرية والمجتمع السعيد وغابة الذئاب فى ثكنات قصر النيل تمتد وتتسع رقعتها حتى تشمل حيزًا أكبر وأكبر. القاهرة كلها غدت غابة للذئاب.

□□□

[١٠]

عـزم عـثـمـان باشـا على زيارة عـزبته بعـد شـهـور من توليـه منصـبـه الجـديد، ودعـا بعض أصـدقـائه من الكبـار -رجـالاً ونسـاء- للنزول فى رحـابه لبـضـعة أيام، ولن يكون ذهابه هذه المدة مثل المرات السابقة، كان بالأمس باشا فقط، أما اليوم فهو باشا ووزير وقطب كبير من أقطاب حزب الشعب، ولا بد أن يفهم «سلطان» ناظر العزبة الجديدة قواعد الاستقبال التى تليق بمعاليه ويحفظها عن ظهر قلب، وفى موكب رسمى فخم قصد الباشا عزبته، رتل من العربات يتقدمها بعض رجال الشرطة - عساكر وضباط- ليزيدوا الموكب روعة ورهبة، أما سلطان بن محروس أفندى، فقد قضى ليالى مسهدة يفكر، وأقام الزينات على جـانبى الطريق، والأعـلام الخضـراء ترفـرف فـوق الزرع الأخضر وتحت قبة السماء الصافية الزرقاء، والطريق ممهد لا مطبات ولا أكوام من التراب تعترض الموكب، وفرقة موسيقية لبس أفـرادها الملابس الرسـمـيـة وقـفت عند المدخل الرئـيسى

للعزبة، ولم يكتف بذلك بل ساق الفلاحين لاستقبال الوزير سوقًا ممنيًا إياهم بأن فى ذلك مصلحتهم، ثم إنه واجب مفروض بالنسبة لولى نعمتهم الذى وعدهم بتخفيض إيجارات الأرض، ورفع أجر العمال الزراعيين، وإيجاد عمل للمتعطلين منهم، وشق الترع لأراضيهم البعيدة التى لا يكاد يصلها ماء الرى إلا بشق الأنفس، وبقى شىء واحد أصر الباشا على تنفيذه وهو أن يكون الشيخ الشاذلى ودراويشه فى استقباله مهما كان الأمر، وركبت الحيرة سلطان، إذ كيف يقوم بتنفيذ هذا الشرط العسير التنفيذ، وتوكل سلطان على الله وقصد الشيخ ووقف أمامه مستأذنًا مطرقًا -كما كان يقف أمام الباشا تمامًا- ورفع الشيخ عينيه النصف مغلقتين الهائمتين فى ملكوت وقال الشيخ:

- ما الذى أتى بك يا سلطان؟؟

- الأمل فى الله يا مولاى الشيخ.

- الذين يقصدون الله يجب أن يغتسلوا من آثامهم.

- يعلم فى الله أنى طاهر الذيل.

وسدد إليه الشيخ نظرات ذات معنى، وكأنه يقول له: «أنت كذاب.. كذاب.. لقد طردت من رحمة الله منذ طردت أباك التائب من بيته..».

وأدرك سلطان ما يقصده الشيخ بنظراته الفاحصة، فحنى رأسه من جديد وهو يتمتم:

- لو لم نخطئ لأتى الله بقوم يخطئون ليغفر لهم.

- والتائبون يحبهم الله.

- وقد تبت على يديك.

فالتفت الشيخ إلى من حوله وهو يتمتم: «أفلح إن صدق» بينما قال سلطان بنبرة صدق وإخلاص متقنة التمثيل: «أقسم على ذلك».

وهمس الشيخ وقد احتقن وجهه وارتعشت لحيته:

- وأبوك؟

- سأبلل أقدامه وموطئ نعله بالدموع.

- ثم ماذا؟

- وإن عاد فسأفرش له الطريق بخدى. وإن جاع فمن لحم أكتافى، وإن عطش فماء عينى هو الشراب.

وترنم الشيخ وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وهم سلطان أن يقسم بالله مؤكدًا توبته وندمه وإخلاصه، لكن الشيخ سد عليه الطريق قائلاً:

- ماذا تريد في النهاية؟

فتلعثم سلطان وقال متهتهًا:

- أريد.. أريد.. أرجو ألا تسيء بي الظن يا سيدي الشيخ، إن ما أفعله ما قصدت به سوى مصلحة الناس هنا، وإكرام الضيف خلق الطيبين الأطهار.. أعني أنك ستشرفنا وترفع رأسنا لو تكرمت وكنت إمامنا في استقبال الباشا وضيوفه.

وابتسم الشيخ قائلاً:

- ما كل شيء يشترى بمال.

- ومصلحة الناس هنا..

- وقد خاب من افترى..

- أفقدتني الأمل..

- كانت رابعة العدوية تستقبل الله كالعروس.. وتريدني أن أقف هاتفًا في موكب الشياطين أستغفر الله يا ابن محروس.. اذهب يا سلطان، وخذ معك أهل الدنيا.

وخرج سلطان مخذولاً مهمومًا، قد فاض به الغضب.

وهذه القلق والأرق، كان يريد أن يثبت للباشا أنه أقوى الجميع، وأن بطشه يخافه الجميع، وأن له من الكلمة والنفوذ ما لم يتمتع به أبوه، والفلاحون جميعًا -بمن فيهم الدراويش- ليسوا إلا أجراء مطيعين له ولأوامر الباشا، والباشا يقول عنهم دائمًا: «إنهم رجالى . . »، وأحنقه أن الشيخ لن يأتى لاستقبال الباشا، وهمس لنفسه: «وماذا أفعل؟؟ فلأقل للباشا إن الشيخ مريض، وفى حالة عقلية لا تسر. ولأحشد له الرجال والنساء بزغاريدهم والأطفال الصغار، هذا قصارى ما أستطيعه، وستنشق له الحناجر بالهتاف وتصم الآذان بدويها الهائل، مظاهرة لم يحظ بها صدقى فى حياته، فماذا أفعل بعد ذلك؟» وهم بإسراع الخطى، فتناهى إلى سمعه صوت الحادى فى محضر الشيخ الشاذلى يقول:

رن القدح يا سليمى كلمى سيدك

اللى عطاكى رضاه والنور فى إيدك

وسرى نبأ رفض الشيخ فى القرية والكفور المجاورة. . كالنار فى الهشيم، ونظر الناس إلى رجل بسيط لا يملك مالاً ولا سلاحًا، لكنه لا يرضخ لأوامر الباشا ولا يكترث لها، يا لها من حقيقة رائعة. . الشاذلى المتصوف أقوى من الباشا الوزير. . لم يمت الأمل بعد أيها المعذبون مادام هناك رجل

طيب أقوى من الباشا، ومن الممكن أن يكون الجميع أقوى، من صاحب القصر الكبير لو عرفوا الطريق إلى الله.

واستعاد الناس ما فعله سلطان بأبيه من أجل المنصب الخادع والمكانة الجوفاء عندما أغراه بهما الباشا، وهل ينسى أحد أنه كان يمشى بعد ذلك مفتول الشارب، يوزع نظرات التحدى والإرهاب لكل من يقابله بمناسبة وغير مناسبة، وأنه أمسك بخناق أحد المستأجرين وأخذ يضربه ضربًا مبرحًا، وساق بهائمه إلى السوق لبيعها، ثم انتزع منه الفدان اليتيم الذى يزرع فيه لمجرد أنه تأخر فى السداد أسبوعًا واحدًا عن الموعد الذى ضربه الباشا؟؟ وشائعة أخرى تقول إنه انتهك عرض فتاة غريبة جاءت مع رفاق لها ضمن ترحيلة إلى أرض الباشا، وأنه قتل أحد أعدائه غيلة.. عشرات الحوادث تروى عن «سلطان» الرهيب الذى يسوق الناس بالحديد والنار مستمدًا سلطانه من نفوذ الباشا ومركزه، والذى يقضى ليله فى المؤامرات وتدخين الحشيش، ويقضى نهاره فى أخذ الناس ليحرثوا ويزرعوا ويحصدوا فى أرض الباشا بأجر زهيد على الرغم منهم.. وبدأ الشيخ فى نظرهم عملاقًا جبارًا يستحق الاحترام، جديرًا بأن تقبل يده، ويستمع لنصحه.

وعندما أطل موكب الباشا دوى الرصاص فى أفق العزبة تحية للقادم العظيم وضيوفه الكبار، وزغردت بعض النسوة

المأجـورات، وهتف رجـال اصطنعـهـم سلطـان ورباهم عـلى الجبن والطاعـة العـمـيـاء، واخـتـلطت الزغـاريد بالـهـتـافـات وطلقات الرصاص، ونحرت بعض الذبائح فى الطريق العام، وفى الليل مـدت الموائد العـامـرة بالـطعـام والشـراب، خـراف وديوك رومية وحـمام، وأجود أصناف الخمور، وأمام القصـر الكبيـر جلس شـاعـر شـعبى يمسك بربابتـه، ويلبس قفطانًا وطربوشًا ويترنم وسط الفلاحين:

- انهض يا على.. انهض عمر..

عمر انحظر..

فى أرض واسمها صالحجر..

والمصابيح الغازية تحيل الليل إلى نهار، وعشرات الأخبار والطرائف يتناقلهـا الناس عن رجـال يلبسـون الجـوخ والحـرير والسـاعات الذهبية، والعصى العاجية الثمينة يطوحون بها فى كبرياء، وعن نساء كحور العين، يضـحكن فى خلاعة، زينتهن تبـهر العيـون، وتميل الرءوس، وعن أطفال صـغار كالـغزلان المرحـة، ينطلقـون فى سعـادة وسرور، وليـلة رائعة مليئـة بالمتع والمسرات كليالى ألف ليلة.. والفلاحون لا أحد منهم يستطيع الاقـتـراب من القـصـر الكبيـر الـذى تحرسـه الكلاب والرجـال والأسلاك الشائكة، ويعـودون إلى بيوتهم القـميئة بعد أن بسط

الليل رواقه، وأحلام الجائعين ترفرف فى حجراتهم الضيقة الشحيحة الضوء، وغطيط نسائهم الغارقات فى السواد ينبعث رتيبًا متحشرجًا.

وفى خضم الضجيج والصخب انتحى الباشا جانبًا وقال لسلطان:

- لماذا لم يأت الشيخ؟

- لأنه مريض.

فحدجه بنظرة نارية تكاد تحرقه وتحيله إلى رماد:

- مريض أم متمارض؟

- أقسم أنه مريض..

- وغد مثل أبيك تمامًا.

- يا معالى الباشا..

- اخرس.. أنا أعرف أعدائى الثلاثة هنا.. الدين والثقافة والحقد، أقصد الشيخ وضياء الدين وهؤلاء الفلاحين الخبثاء..

فقال سلطان وهو يصر على أسنانه:

- لو شئت سفكت الدماء، وحطمت الرءوس التى ترتفع محتجة.

- تلك وسيلة عتيقة غير مجدية لا ألجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى.

- أمرك..

- استمع إليَّ جيداً يا سلطان.. ليتني ما أتيت إلى هنا.. لم أرَ غير الوجوه التي تعودت أن أراها من قبل، وكأن منصبي كوزير لم يثر لدى فلاحيكم شيئاً من الفضول.. كل من رأيتهم كلاب لا تفهم.. يلوحون بأيديهم في بلادة، ويهتفون في غباء.. كان واحد منهم يقول: عاش الملك الباشا، لقد ضحك أصدقائي كثيراً على هذه النادرة.. إني أتساءل أين عيون القرية ورجالها، ليس هنا غير العمدة والمشايخ؟ اسمع.. يجب أن تزيد إيجارات الأرض، لا تسمح لأحد منهم أن يروي أملاكه الخاصة من الترعة إلا بعد دفع الثمن، ومن اعترض فلتدفنه هناك عند شاطئها.. ولا تستأجر أحداً من الرجال للعمل في أرضي إلا بنصف الأجر المعروف، هؤلاء الفلاحون عندما تحرمهم الرغيف والقرش يهرولون لتقبيل حذائك.. لن أنسى أبداً يوم الانتخاب واللجان تصفر في جنباتها الريح.. هؤلاء الأوغاد.

وقطع على الباشا حديثه الثائر الصاخب صوت «بركات» الصحفي أحد المدعوين وقال:

- معذرة يا معالى الباشا . . أتريد أن أستكمل التحقيق الصحفى بالتحدث مع بعض الفلاحين . . ما أكثر ما يحبك هؤلاء الناس هنا . . إنك أبو الجميع . .

فالتفت الباشا إليه قائلاً :

- سلطان معك ، سوف يعطيك ما تشاء من أحاديث .

***

ونام القصر أو نام من فيه ، بعد ليلة ساهرة حافلة بشتى الملذات وضروب اللهو ، وصمتت آلات الطرب ، وبدا المدعوون وكأنهم فرقة فنية متجولة أدركها الفجر بعد طول العمل ، وفى الوقت نفسه أخذت القرية تصحو لتستقبل الفجر الوليد ، ومشاق يوم جديد ، ولم ينسَ بركات أن يبعث إلى جريدة «النهضة العربية» بتحقيق مطول عن عزبة الباشا رجل البر والإحسان الذى يفتح أبواب قصره للفقراء والمساكين ، ويطعم الجائع ، ويعطى المحتاج ، ويتبرع للمرضى ، ويعاون الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، متناسياً أنه وزير ، وقطب مرموق من أقطاب الوزارة وحزب الشعب ، ولا يفتأ يدرس مشاكلهم ووسائل النهوض بهم فى ظل الدستور التقدمى العظيم .

ولم يصحُ أصحاب القصر وضيوفه إلا فى ساعة متأخرة من النهار، بعد أن أذن المؤذن لصلاة العصر . . واحتشد الناس للاحتفال بذكرى المولد النبوى الكريم، وتطلع الباشا من إحدى شرفات القصر، فوجد خلقًا كثيرًا يحملون البيارق، ويدقون الطبول، ويرددون اسم «الله» فيصل إلى مسامعه مجلجلاً مهيبًا، عمائم وطواقى ورءوس عارية كثيرة ونساء فوق الأسطح ، مظاهرة ضخمة طالما حلم بها طول حياته، وصرخ الباشا مستدعيًا سلطان، وعندما أتى مهرولاً لاهثًا قال له الباشا :

– ما هذا؟

– زفة مولد النبى، فى كل عام وفى مثل هذا اليوم، تخرج القرية على بكرة أبيها، ويأتى رجال الكفور والقرى المجاورة، ويسيرون فى هذا الموكب الكبير ليزفوا الشيخ الشاذلى، ويترنموا بالدعاء والابتهالات، ويهللوا ويكبروا.

واربد وجه الباشا وصرخ :

– وأين كان هؤلاء أمس عندما دخلنا العزبة؟

فقال سلطان والرعب يكاد يمزقه :

– لا أدرى . .

- ألم أقل إنك غبى مثل أبيك تمامًا؟

وفى الوقت الذى كان سكان القرية يتحلقون فيه حول أطباق الثريد الواسعة، ويلتهمون اللحم الذى جاد به ذوو اليسار، ويجرعون «الشربة»، والملوخية فى جماعات كثيرة، بلا ملاعق أو سكاكين أو شوك، فى الوقت نفسه كانت بقايا الخراف والديوك الرومية وشتى صنوف الطعام المتنوعة الطهى ملقاة باردة كالثلج لا تجد يدًا تمتد إليها، وإلى جوارها كئوس فارغة، وزجاجات خمر ليس بها غير الثمالة، والضيوف الكبار يركبون الجياد، أو ينطلقون سيرًا على الأقدام أو يركبون عرباتهم ليشموا هواء الأصيل المنعش فى مناحى العزبة الشاسعة، أو فى ظل أشجار المانجو والموالح والورود والكروم.

***

أيام ثلاثة مرت، عادت بعدها قافلة الملذات إلى القاهرة من حيث أتت، وعاد الباشا إلى ديوانه العام، ولم ينسَ الباشا أنه لم يكن فى وداعهم غير الزينات والأعلام الخافقة، وسلطان والخفراء وقليل جدًا من الرجال، حتى القصر الكبير بدا أمام نظرات الباشا راقدًا فى جمود وغباء كأنه أبو الهول، والريح تعبث بأغصان الأشجار، والزروع الخضراء

الممتدة إلى بعيد بلا صخب أو ضجيج ، وكأن مجىء الباشا أو عودته لا يثير لديها أدنى فضول أو اكتراث ، وحينما انطلقت العربات عائدة خلفت وراءها آثار عجلات وغباراً كثيفًا ملأ الأفق ، ولاحقتها لعنات الحقد المكبوت الذى ينمو ويترعرع فى نفوس البائسين المعذبين تحت أسقف الحجرات الرطبة المظلمة .

[١١]

أصيبت صفاء بخيبة أمل كبرى بعد أن أرسلت خطابها إلى الدكتور ضياء، فقد مرت فترة طويلة دون أن تتلقى ردًا منه أو كلمة تنبئ عن أنه أبدى قدرًا من الاهتمام بمشاكلها ووضعها، لم تكن تعلم أنه لم يلتفت إلى الخطاب أو يقرأه، لا عن قصد ولكن سهوًا، وكان لهذه الحادثة أثر سيئ الوقع بالنسبة لها، فاجتاحها وجوم شديد الوطأة، وامتلأت نفسها حنقًا عليه، واشمئزازًا من تصرفه، وحاولت جاهدة -طوال هذه المدة- أن تستشف شيئًا من مكنونات نفسه وخفى مشاعره، خلال تصرفاته وأحاديثه، لكنها عادت بلا شيء وأدارت المسألة فى رأسها ليالى عدة، وقلبتها ظهرًا لبطن، حتى استبدت بها مضاعفات الأرق والتفكير الطويل، فأسبغ عليها مزيدًا من الشحوب والنحول، وندمت أشد الندم على ما فعلت، كانت وهى تكتب الخطاب إليه تشعر أنها تكتب إلى نفسها، وتناجى

ضميرها، ويدا لها واضحًا، من خلال عواطفها، أن ضياء يمت إليها بصلة وثيقة، ليس غريبًا عنها، وكأنها نشأت معه من سنين طويلة، منذ كانا طفلين غريرين يحبوان، لهذا شعرت بسعادة غامرة وهى تسطر كلماتها إليه، لم يخالط نفسها الحرج المعهود، ولا الخجل الذى درجت عليه، كانت تتصرف بطريقة لم تألفها من قبل، وإحساس غريب يراودها أن ضياء لها وهى له ومن القلب للقلب رسول، وكما تقول الحكمة النبوية الخالدة: الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وهى مع ضياء على أتم وفاق فى الطباع والسلوك والمبادئ الكبرى ووجهات النظر، والظروف الاجتماعية، لكن ماذا تفعل وقد أصم أذنيه عن رسالتها، وتجاهل مشاكلها ومآسيها؟ هو يعلم أن الذئاب من حولها يحاولون أن يستغلوا وضعها المادى السيئ، ويستبيحوا لأنفسهم طلب يدها، وإطلاق الشائعات حولها، وهو موقن أنها تحبه وتحترمه وتؤمن بمبادئه، وتستجيب لإرشاداته، وهو يؤمن أن من واجبه، كإنسان شريف، ومفكر نزيه، أن يمد إليها يد العون، ويكون معها فى مأزقها، ويواسيها فى أزماتها، وإذا لم يكن كذلك فكيف يضحى فى سبيل وطنه ويحاول جاهدًا أن يساهم فى إسعاده وحل مشاكله، إن مشاكل الأفراد جزء من مشاكل مجتمعهم الكبير، ولو فصل ضياء بين مآسى

الأفراد ومآسى الجماعات فسوف يمزق بذلك قضية وطنه، ويجزئها، لأن الأفراد والمجتمع كل لا يتجزأ، وليس هذا الفهم ضربًا من الأنانية التى انبثقت فى قلب صفاء، وإنما حقيقة واقعة، الأفراد هم المجتمع، والمجتمع هو الأفراد.

وبات جليًا أن البناء الكبير الذى بنته صفاء فى خيالها لمستقبل حياتها وعلاقتها مع ضياء أصبح أطلالاً مهدمة، وأنها عاشت فى وهم نفسى حتى تجلت لها الحقيقة عارية، بعد أن أرسلت الخطاب.

ولاحظ أبوها ما تقاسيه ابنته من آلام لا تفصح عنها، وحاول أن يستدرجها لعلها تبوح بشىء مما يثقل ضميرها الغض، غير أنها آثرت الصمت، وظلت منطوية على أحزانها وآلامها الذاتية، ودار الهمس بين الأب والأم وأقلقهما أن يريا صفاء تتدهور وتزداد شحوبًا ونحولاً، وفكرا فى الأمر بروية وتمهل، هل هناك متاعب تتعلق بالعمل الذى تزاوله؟ وهل ضاقت ذرعًا به؟ أتراها قد ملت التضحيات من أجلهم؟ كلا. إنهما يعرفان صفاء وخلقها، والوفاء المتأصل فى طبيعتها، يعرفانها إنسانة كبيرة يسعدها أن تضحى من أجل الآخرين، وتمد يدها للمتعبين، وتلعثم الأب وهو يقول لزوجته: إنه يشك فى قصة حب تعذب ابنته، إنه مجرد احتمال أخير بعيد. لكن.. لكنها فتاة ولها قلب وآمال وانفعالات، وأضاف الأب

قائلا لزوجته: أنا لا أقف حجرة عثرة فى سبيل مستقبل ابنتى، لست أنانيًا لهذا الحد يا زوجتى العزيزة، ولا شك أن اليوم الذى أرى فيه ابنتى تزف إلى بيت زوجها لهو أسعد أيام حياتى، ولو أورثنى ذلك فقرًا وكدًا. يجب أن تفهم صفاء ذلك، يبدو أنها تضع سعادتنا فى كفة، ومستقبلها فى كفة أخرى، لكن تأكدى يا زوجتى أن صفاء إذا تحققت لها آمالها، ونالت السعادة المرجوة، فإن ذلك كله هو عين ما نرجوه، ولن نجوع أو نتشرد، وربنا يرزق.

ولم تكن صفاء تعلم شيئًا عن كل ما يدور حولها من همسات وقلق، كانت تعيش فى عالمها المضطرب الممتلئ بالمتناقضات، راودها يأس قاتل واستقر فى ذهنها أن ضياء لا يحبها ولا يفكر فيها، وأزعجتها هذه الحقيقة المرة، ونظرت حولها فرأت العالم كله بؤرة من فساد، وأسى واغتصاب، وأنانية عمياء تطحن الجميع، وحقد أسود يسيطر على مختلف الطبقات، وضياع فى هذا الخضم الصاخب المزعج، لا شىء يبعث السرور والمرح إلى قلبها، بركات تكرهه وتكره أسلوبه فى الحياة وهو يعلم ذلك، لكنه يريد أن يقهرها، ويرغمها على حبه، ويغتصبها زوجة له رغم كل هذا، ورئيس التحرير عجوز متصاب، فى فمه طاقم أسنان، مريض بضغط الدم لكنه ينظر إلى الحَياة بعين نهمة متحسرة، ويريد أن يأكل طعامًا

لا يناسبه، أو يتزوج فتاة من سن أبنائه، وضياء الذى تحبه وتحترمه وتقدس مبادئه، تشكو إليه حالها، وتبثه آلامها، لكنه لا يعيرها التفاتًا، كأن صيحاتها وتوسلاتها صرخة فى واد، فلماذا -بعد كل هذا- لا تدوس عواطفها، وتتناسى مثالياتها، وتتزوج أى واحد. . رئيس التحرير مثلاً؟ خاطر مزعج زاد من آلامها وأحزانها، لكنها مع ذلك شعرت بشيطان خبيث يزين لها الأمر، ويدفعها دفعًا لأن تتصرف كحاقدة تريد أن تدمر أى شىء حتى ولو دمرت حياتها ومستقبلها، وشعرت أنها بذلك ترتكب خطيئة كبرى وإثمًا كبيرًا، لكن من ممن حولها لا يخطىء؟

ودخلت صفاء دار الجريدة ذات صباح، كانت متغيرة تمام التغير، تبتسم لكل من يقابلها، بركات كاد يجن من الفرح عندما أهدت إليه تحية الصباح فى رقة وبساطة آسرتين، ورئيس التحرير كاد يرقص من الفرح عندما دخلت عليه رشيقة خفيفة وكأنها تطير من فوق البساط الثمين السميك، كان الشحوب لم يزل يوشح ملامحها، لكنها لم تعد مطرقة صامتة، بل تتكلم، وتنتهز الفرصة كى تبتسم، وتعلق بطريقتها الجذابة المرحة، وراود الأمل رئيس التحرير من جديد، وخيل إليه أن صفاء قد فكرت فى أمر الزواج منه بعقلية واقعية مستنيرة، تزن المكسب والخسارة، وتعرف أين المنفعة، وهل تكره امرأة عاقلة

أن تعيش فى «فيلا» أنيقة، وتركب عربة فاخرة، ويكون بين يدها الخدم والحشم، وتتزوج رئيس تحرير جريدة كبرى يخطب ودها الباشاوات، وتحترمها الحكومة؟ وهم رئيس التحرير أن يفاتحها فى أمر الزواج من جديد على ضوء هذه التصرفات الطارئة، لكنه ضغط على نفسه، واعتصم بالصبر والتأنى حتى تسنح الفرصة، ويجىء الوقت المناسب، فيتقدم إليها مرة أخرى وهى لن ترفضه هذه المرة، إذ ليس من المعقول أن تكون هذه الابتسامات، وتلك البشاشة التى تستقبله بها ضربًا من الخداع والتغرير.

وفى الوقت نفسه، كان بركات هائمًا فى عالم وردى ساحر، لا شك أن صفاء قد فكرت فى العرض الذى تقدم به إليها ذات يوم طالبًا يدها، لقد وعدته أن تفكر فى الأمر وقد وفت بوعدها، وإلا لماذا تبتسم له؟ لأول مرة يراها تفعل ذلك، ولم لا؟ أنا شاب قوى الجسم، أسود البشرة وكثيرات يعشقن الوجوه السمراء، أقبض بيدى الحديديتين وظيفتين يدران مبلغًا كبيرًا من المال، وهدايا عثمان باشا - الرجل العظيم تنهمر علىّ كالمطر، ومأدباته الفاخرة تتوالى، والمساحة التى يشغلها قلمى فى الجريدة تتسع يومًا بعد يوم.. فماذا بقى بعد ذلك؟ إنها لن تجد أحسن منى مهما بحثت، وضياء.. آه.. هذه العقبة الأزلية.. لشد ما أكرهه وأتمنى أن أحطمه وأحطم كبرياءه

الذى يضفى عليه وقاراً «كذبًا» . . لكنه على أية حال لا يصلح أن يكون زوجًا ، هذا المغرور خلق للمشاغبات والمثل العليا الجوفاء . . أو بعبارة أخرى خلق للضياع والاضطهاد والسجون ، وليس من المعقول ألا تفهم صفاء ذلك عنه ، فهى أريبة زكية تعرف ما يفيدها وما يضرها ، ولا بد أنها قد انتهت إلى قرار بشأنى . . ولا شك أنها سوف تقضى على ترددها ، وتدفن شكها إلى الأبد عندما أقذف فى وجهها بالمفاجأة الجديدة . .

واضطربت حركات بركات ، وأخذ يفرك يديه فى قلق ، يشعل السيجارة تلو السيجارة ، ويرشف القهوة ، ولهب عاصف يشمل كيانه كله ، ويفكر فى طريقة كى يختلس دقائق مع صفاء فى غفلة من رئيس التحرير ، وبعيداً عن عينى ضياء الثاقبتين اللتين تشبهان عينى الصقر ، وطال انتظاره ، وامتلأت المطفأة بأعقاب السجائر ، وأوشك أن يلم اليأس ، رآها قادمة إليه . . إليه هو ، حاملة إليه أمرًا من رئيس التحرير كى يقوم برحلة صحفية مهمة إلى الإسكندرية ، لم يلتفت بركات إلى الورقة التى كتبها رئيس التحرير ، ولم يحاول أن يستفسر عن الرحلة ، أو يطلب مقابلة الرئيس للتفاهم بشأنها ، بل طوى الورقة ووضعها فى جيبه ، وقال فى نبرات كالضراعة :

- صفاء.

- نعم.

- أتسمحين بلحظات؟

- لا مانع.

وبلع ريقه، وتنحنح وهو يقدم لها الكرسى كى تجلس، وفرك يديه من جديد، وأشعل سيجارة أخرى، وقال:

- إن قلبك الكبير يسعد لسعادة الآخرين.

- أجل.

- وأنا سعيد.

- هذا ما أسر له.

- ولن تكمل سعادتى إلا إذا باركتها كلماتك الحانية.

- أنا أدعو للجميع بالتوفيق.

واعتدل فى جلسته، ومط فى عنقه، ثم زاد فى حبكة طربوشه الأحمر وقال:

- وعثمان باشا قد اختارنى سكرتيرًا صحفيًا لمعاليه.

وأفلتت الكلمات من بين شفتيها:

- لكنه إقطاعى مستغل.

- أوه . . حسبتك تركت هذه النغمة، إن الرجل مخلص، ويرجى منه الخير.

- لكنى أذكر أنك حقدت على ضياء لمجرد أنه استدعاه فى التليفون ذات مرة . .

- من لا يعرفك يجهلك . . هكذا تقول الأمثال، وقد عرفت الرجل عن كثب فرأيته سياسيًا لبقًا . . داهية بمعنى الكلمة . . المهم أننا لم نلتقِ لمناقشة مثل هذه الأمور، أردت فقط أن أسألك عن موضوع زواجنا . . ألم يئن الأوان؟

وشردت صفاء بضع لحظات، ثم التفتت إليه وابتسامة ساخرة معلقة فوق ثغرها الفاتن الجميل:

- ورئيس التحرير؟

- ما له؟

- ألا تشفق على نفسك منه . . إنه غريمك . .

- أنا لا أفكر فيه الآن.

- لماذا؟ إنك تقف أمامه خاشعًا، وكلمة منه كفيلة بأن تبعث بك خارج الدار . .

فقهقه بركات، وانبعثت ضحكاته كعواء ذئب، وقال:

- فقط أفكر فى «الحكم» الذى تصدرينه فى قضيتنا، إنها

مسألة حياة أو موت بالنسبة لى . . ويوم تكونين لى فليذهب رئيس التحرير إلى الجحيم، ثم لا تنسى ما قلته لك من لحظات، أنا الآن الأستاذ بركات سكرتير صحفى معالى عثمان باشا . . ومن يكون رئيس التحرير بالنسبة لعثمان باشا؟ أنت تعلمين أن الباشا يغطى عجز الجريدة منذ أن انخفض معدل توزيعها، وعندما يكف يده عنها، تغلق أبوابها، ويصبح رئيس التحرير لا شىء . . نحن نعيش . . أعنى الجريدة . . على ما يقدم لها من مصروفات سرية وإعانات . .

ودخل الساعى، نفس الساعى الذى قطع عليهما الحديث فى المرة السابقة، وقال :

- يا ست صفاء، الدكتور ضياء الدين فى انتظارك حالاً . .

وتمالكت أعصابها، لم يبدُ عليها شىء من الارتباك والذهول، أخفت توترها وانفعالاتها الراعدة، وظلت محتفظة بهدوئها وابتسامتها، وغمغمت وهى تغادر بركات :

- معذرة . . للحديث بقية . .

وهم بالقبض على ساعدها، أو جرها إلى مكانها مرة أخرى، واجتاحته موجة من السخط، لكنه عجز عن أن يفعل شيئًا سوى أن ألقى عقب السيجارة على الأرض، وسحقه

بحذائه فى غيظ، وصورة ضياء تملأ ذهنه هادئة باسمة ساخرة..

***

لقد قرأ ضياء الخطاب، لم يفته ما تقاسيه صفاء من ارتباك وعذاب، وهو الذى يعيش فى مآسى الناس بكل كيانه، ويجد لذة كبرى فى أن يغرق فيها، ويبحث أسبابها ويحاول جاهداً أن يقدم شيئاً، ولم يكن من الغباء بحيث يجهل ما وراء كلماتها من معنى خفى لم تصرح به.. إن صفاء تحبه، وعندما تتأكد أنه يبادلها هذه العاطفة سوف تصبح مشاكلها مجرد مشاغبات تافهة لا تثير لديها مثل ذلك الضيق المبرح، والكمد المرير، وسرى بين جوانحه برد الراحة والرضى، لكم تمنى أن تقولها صريحة منذ زمن بعيد وتريحه من عناء الفكر والقلق.. على أية حال لقد فهم كل شىء، وأدرك ما وراء السطور، وهو يحبها، لكن ماذا يفعل؟

هل يكتب لها خطاباً؟

لم يعتد هذه الطريقة، إنه يجلس تحت الشمس فى وضوح وقوة وصراحة، ويناقش كل أمر من الأمور مع أى إنسان، لكنه هذه المرة يشعر بكثير من الخجل، ولهذا جلس وسطر لها خطاباً، وعندما أتت إليه ناولها الخطاب دون كلمة فأخذته ومضت ولم تنبس ببنت شفة..

□□□

[١٢]

كانت صفاء تشبه ملاحًا تائهًا فى عرض البحر، قد حطمت العواصف شراعه، وسد الضباب حوله الطريق، وعندما أوشك على الضياع بدا له فى الأفق البعيد بارقة أمل، هكذا كانت صفاء عندما تسلمت رسالة ضياء، وخفق قلبها خفقات حلوة لها مذاق خاص، ولم يكن فى ذهنها آنذاك صورة لبركات، أو صدى لكلماته، ورئيس التحرير بدا هو الآخر كسطر باهت غامض لا معنى له على ورقة صفراء قذرة، ضياء وحده هو العالم الفريد الذى ملأ كيانها واحتل فكرها، ولا مكان بعد ذلك لإنسان غيره فى قلبها، وسرعان ما نسيت حنقها عليه بسبب تأخير الرسالة، وفى تلك اللحظات السعيدة انتحلت له ألف عذر وعذر، وأصبح فى نظرها بريئًا مظلومًا، لم يقترف إثمًا، أو يرتكب فى حقها تقصيرًا.

وعادت إلى مسكنها فى حال غير الحال، إنها تبتسم من أعماقها ابتسامة لا زيف فيها ولا تكلف، وتخطو خطوات

رشيقة كإيقاع موسيقى جميل، وتحول شحوب وجنتها إلى حمرة خفيفة توحى بالحب والحياة والأمل البسام، وبدت كأنها قد أبلت من مرض، أو وجدت الحل لمشكلة نغصتها تمام التنغيص، وداعبت صفاء عمتها، وضحكت مع أبيها، واحتضنت أمها وقبلتها، وتمتم الأب بعد أن دخلت حجرتها: «ابنتك أحسن حالاً الليلة».

وقبل أن تستلقى فوق سريرها فضت الرسالة وأخذت تقرأ فى لهفة وكأنها تريد أن تلتهم السطور دفعة واحدة، وتستوعبها فى غمضة عين:

«عزيزتى صفاء..

لست أدرى منذ متى أحسست بالأنس إلى خلقك، والإعجاب بسلوكك الخاص والعام فى الحياة، وأدركت لتوى أنك أكثر حساسية مما يجب، وأشد تشبثًا بالمثاليات من مثيلاتك، بل أنت نوع فريد بين زميلاتك المحررات بالجريدة وخارج الجريدة.. ولم يزدد يقينى إلا رسوخًا وقوة بعد أن قرأت كتاباتك الملتهبة عن حق المظلومين والجياع فى ظل الحكم الفاسد والاستعمار البغيض..

هكذا كنت فى ذهنى دائمًا.. فتاة حرة ثائرة.. لها أحزانها وآلامها، لكنها تحاول جاهدة أن تقاوم الظروف القاسية،

لتنتصرى، أجل . . لتنتصرى بوسائل شريفة نظيفة تختلف تمام الاختلا ف عن وسيلة رئيس التحرير فى المحافظة على رأس ماله، وبقاء جريدته وحياة الدعة والرفاهية التى استسلم لها، وتختلف أيضًا عن وسائل «بركات»، الذى يسلك أبشع السبل ليصل إلى قصور الباشاوات، وقصور الأمراء . . كثيرون أولئك الذين يشبهون بركات ورئيس التحرير، تجدينهم فى كل طريق، وكل ناد أو حزب، وفى أية مصلحة من مصالح الحكومة، هم الصخور الناتئة التى تقف عقبة كأداء فى سبيل انتصارنا وتحررنا . .

عزيزتى صفاء . .

أحسبك تتحسين الطريق إلى النور وسط ظلمات مدلهمة، وتودين أن تبلغى مرفأ السلام فى سهولة ويسر، كذب من قال لك ذلك، الطريق مظلم شائك ملتو، سوف تدمى فيه الأقدام، وتصرخ على جانبيه أشباح الخوف واليأس، والشياطين تقف بالمرصاد لكل من يريد أن يبلغ النهاية فتحاول أن توقف زحفه . . وأنت يا عزيزتى واحدة من أفراد القافلة الصاعدة التى تمهد الطريق، وتستخلص النور من بين براثن الظلام والشياطين . .

ورئيس التحرير -يا عزيزتى - لا يريد أن يتزوج، بل هو إنسان ساقط معذب الضمير، يريد أن يهرب من ضميره،

من المثاليات التى آمن بها فى بدء حياته، وقد حاول أن يهرب إلى «فيلا» فخمة، فوجدها -برغم أثاثها الفاخر- خاوية كقلبه الجريح، وحاول أن يهرب إلى «عربة» أنيقة، فوجدها تسرع به إلى النهاية الأليمة، وطرق مجتمعات الكبراء وعلية القوم فهاله الضياع والكبرياء الجوفاء والطقوس المزيفة.. وأخيرًا بحث عن قلب كبير يبثه آلامه وأوجاعه فلم يجد الزوجة الوفية، ولا الابنة البارة.. فبحث فيك أنت يا صفاء عنهما..

أما بركات فهو مأساة مجسمة لجيل عابث من الشباب يريد أن يرتفع كما ارتفع الأوغاد فى جو من الريبة والنفاق والخيانة.. يريد أن يكون ذا مال ومركز ومجد من أقصر الطرق وبأخس الوسائل.. وأنت الفتاة الجميلة المثقفة يعتبرك رمز النصر والأمل، فلم لا يخطبك إلى نفسه؟

إن الأنانية القذرة التى تسيطر على أوهام الطبقة الحاكمة داء وبيل، لا يفكر أحد إلا فى نفسه، وآخر ما يفكرون فيه هو وطننا العربى الجريح، ليس لهؤلاء الطغاة عائلات فقيرة يعولونها كما تفعلين، وليس لهم قيم ومبادئ يؤمنون بها، ويأرقون من أجلها مثلك، وليس لهم شرف يغارون عليه، ويضحون فى سبيله بحياتهم، والدليل على ذلك أنهم يسهرون الليالى الحمراء جنبًا إلى جنب مع ضباط قوات

الاحتلال ويضحكون ويسكرون على أشلاء شعب مستعبد، يعيش فى العذاب . .

عزيزتى صفاء . .

إنك تسألينى عما تفعلين، تمامًا كما يفعل بعض القراء الذين يراسلون الجريدة ويكتبون إلى المحرر عن مشاكلهم الاجتماعية والثقافية والعاطفية، وينتظرون الإجابة فى لهفة . . ماذا أقول لك يا عزيزتى؟؟ إنى لا أعرف ماذا أقول بالضبط، فليس فى رأسى الآن غير معنى كبير، أعيش له، وأحلم به . . هذا الوطن يجب أن يجد أشخاصًا يحملون قضيته فى أمانة، ويضحون من أجله فى إخلاص . . هذا الوطن يريد الكثير من صفاء، ومن ضياء الدين . . ومن بركات أيضًا، ومن رئيس التحرير، فالأرض الطيبة التى نحيا فوقها لا تعرف الحقد واليأس، تنادى دائمًا أبناءها، وتصرخ فيهم كى يدفنوا آلامهم الذاتية، وينسوا مصالحهم الشخصية ويفكروا فى مأساته هو . . لأنه الأم، ورمز عزتهم وكرامتهم . . ومن العار أن ينصرفوا عنه، وينشغلوا بآمالهم الصغيرة، ويغرقوا فى مشاكل تافهة من صنع المغرضين والخبثاء . .

عزيزتى صفاء . . هل بقى شىء يقال ولم أقله؟؟ كل ما أريده هو أن ألقاك قريبًا على انفراد، ولا تألمي كثيرًا للشائعات

التى أطلقوها من حولك إذ لا حيلة لك فيها، ولا تحزنى لكونك سكرتيرة خاصة لرئيس التحرير، لأنها وسيلة مؤقتة من وسائل العيش لا غبار عليها، ما دمت تحافظين على قداسة المبادئ القويمة التى آمنت بها من قبل. والسلام؟

ضياء

***

كانت صفاء تقرأ الكلمات الكبيرة الهادئة، وصورة ضياء الدين الجالس خلف مكتبه ترتسم فى خيالها بسمتها الوادع. الذى يخفى وراءه عاصفة هوجاء، وعيناه الصافيتان ترسلان بريقًا أخاذًا فيه ثقة وإصرار، وصورة أخرى تجلس إلى جواره صورة شعب جريح معذب يئن تحت وطأة القيود التى صنعها أعداء الحياة، وشعرت بدماء الثورة تجتاح جسدها من جديد وتشتعل فيه نارًا لا تخمد جذوتها، وتمنت فى هذا الوقت أن تحمل معولاً وتنطلق كالمجنونة لتحطم وتدمر قلاع الطغيان وقصور الخيانة وأوكار الغدر، وتقطع رقاب من حنوا رقابهم أمام المستعمر، وطوت الخطاب، وشردت ببصرها إلى بعيد.

كانت تنتظر كلمة أخرى. . . كلمة كبيرة لم تنسها فى خضم النشوة والحماسة اللتين أثارهما فيها بصدق عاطفته وقوة فهمه للأحداث. . كانت تنتظر كلمة واحدة لم تزل تحتل جانبًا

كبيراً من تفكيرها، وتشغل حيزاً ضخماً من آمالها . . كانت تريد أن تقرأ كلمة «أحبك يا صفاء أو أريد أن أتزوجك يا صفاء فهل تقبلينى زوجاً؟» تلك الكلمة التى سمعتها من رئيس التحرير فأحنقتها وأثارت فى نفسها اشمئزازاً، وسمعتها من بركات، فلم توحِ إليها بغير السخرية المرة، والدعابة السخيفة، عندما تزف إلى ضياء . . فسوف تزف إلى المبادئ العالية، والقيم الخالدة، وعندما تتزوجه فسوف تتزوج رمزاً للبطولة والكفاح، وممثلاً صادقاً للأرض الطيبة العذراء التى يشعل الأوغاد فى أرجائها النار والهوان والضياع . . لكن . . آه . . لكم تعذبها مشاعرها وعواطفها تلك التى توشك أن تنتصر على عقلها وتفكيرها . .

إذا لم تكن رسالة ضياء بشيراً بحب يؤدى إلى الزواج، فيكفيها أنها تحمل بين ثناياها «تلميحاً» لهذه العاطفة المقدسة، ويكفيها فخراً أنها قد مسحت من ذهنها الأفكار السوداء، ومنعتها من التردى فى أحضان اليأس.

***

عادت صفاء فى صباح اليوم التالى إلى دار الجريدة، لم تزل تفكر فى الدكتور ضياء الدين، لقد خفت حدة غموضه إلى حد كبير، لم يعد طلسماً مغلقاً يستعصى على الفهم،

وإن لم يقل الكلمة التى كانت تنتظرها، لا شك أن قلبه يعرف الحب، لكنه يضع مأساة وطنه فى البداية، ويحاول جاهدًا أن ينسى ذاته، لسوف تقابله الآن. . لا . . لا لن تقابله، لم تزل تخجل منه، برغم توثق العلاقة واستطرادها، لقد أفضى إليها بذات نفسه على الورق، وقال كلامًا خطيرًا لو حاسبه عليه صدقى ورجاله لقذفوا به إلى ساحة السجن الذى لا يرحم، فهل من المعقول أن يقول كلامًا مثل هذا لفتاة لا يثق فيها؟؟ واستراحت صفاء لهذه الخواطر، إذ جعلتها أكثر تفاؤلاً، وأملاً، ومع ذلك فهى لم تزل يغلبها الحياء، ولا تستطيع أبدًا أن تقف أمامه وجهًا لوجه، وترفع عينيها فى عينيه، شىء ما يجعله أكثر قوة وثباتًا، وهذا الشىء نفسه يجعلها خجلة ضعيفة فى محضره، وعندما مرت بحجرته أسرعت الخطى، ولم تحاول أن تلتفت إلى مكتبه، وما إن مرت من منطقة «الخطر» حتى تنهدت فى ارتياح، لكن لومًا خفيًا كان يعبث بعواطفها! لماذا لم تلقِ عليه تحية الصباح إلقاء عابرًا كالمعتاد؟ لشد ما تزعجها هذه التصرفات الغريبة التى تصدر منها دون منطقٍ معقول، ولم تكد تفرغ من خواطرها المضطربة حتى فوجئت ببركات يقف قبالتها ويمد يده مصافحًا، كان يرتدى حلة بنية اللون جديدة، وانتصب واقفًا أمامها مثل «قرن

الخروب» ولم تجد مناصًا أن تصافحه بأطراف أصابعها، ولما همت بالسير استوقفها قائلاً:

- إلى أين؟

- رئيس التحرير ينتظر.

- وأنا أنتظر..

- ليس هذا وقته..

- بل وقته.. وقدم إليها صحيفة الصباح، صورة صغيرة له فى أسفل الصفحة الأولى، ومكتوب تحتها «تم تعيين الزميل الصحفى الأستاذ «بركات الزنارى» مستشارًا صحفيًا لمعالى وزير المواصلات، وجريدة النهضة العربية تهنئ الزميل الكريم، وترجو له مزيدًا من التقدم والرفعة»..

ورفعت صفاء عينيها عن الجريدة، وقالت بفتور شديد، دون انفعال ظاهر:

- مبروك..

- لا أود أن أتلقى تهنئة على الوظيفة، وإنما من أجل زواجى.. كان موقفًا حاسمًا، وكان عليها أن تقول رأيها صريحًا دون مواربة، إن «قرن الخروب» يقف أمامها كالرمح المشروع، وينتظر الحكم فى قضية لا تقبل النقض..

واجتاحتها موجة جبارة من الثقة والإيمان بمصيرها . . مصيرها هى . . الذى لا يستطيع أحد أن يقرره غيرها ، إنها حرة . . ولها أن تفعل ما تشاء ، وصرخت محتدة :

- أنا أرفضك . .

وانتزعت خطواتها انتزاعًا ومضت مسرعة ، وبقى بركات مبهوتًا كالتمثال الجامد ، وعيناه مفتوحتان فى دهشة وذهول ، وبلغت مسامعه قهقهة عالية صادرة من حجرة ضياء الدين ، وهو يداعب أحد المحررين ، وانقضت القهقهات على بركات كالصاعقة ، فأفاق إلى نفسه ، ومضى خارجًا من دار الجريدة ، وكلمة واحد يتردد صداها شرسًا عنيدًا ملحاحًا فى رأسه «أنا أرفضك» . . كذبوا علىَّ حينما أوهمونى أن المرأة تعبد المال والمركز ولا تفكر كثيرًا فى أخلاق الرجال أو مبادئهم . . لم ترفضنى صفاء لكنها رفضت سلوكًا شاذًا فى الحياة تنفر منه بطبيعتها ، وأنكرت على الوسيلة التحللية التى أتوسل بها إلى قلبها . . «أنا أرفضك» حكم الإعدام الذى أصدرته علىَّ الليلة هذه المأفونة الجاحدة . . «أنا أرفضك» أشنع عبارة سمعتها فى حياتى ، وسيظل صداها يتردد فى أعماقى فى اليقظة والمنام حتى الموت . . «أنا أرفضك» سأظل أردد هذا المقطع الحزين من أغنية حبى اليائس حتى تفقد حدتها ، وتنطفئ نارها التى تلهب

كيانى، والتكرار عدو النشوة والعذاب على السواء. . «أنا أرفضك» هى الصفعة التى أدمت وجهى، وحطمت كبريائى، وقتلت فىَّ التلهف والأمل والطموح لكنها بعثت فى قلبى حقدًا عاتيًا كالشيطان لا يسكن أو يهدأ أو يموت. . «أنا أرفضك» نفس المعنى الذى قاله ضياء بعبارة أخرى عندما عرض عليه الباشا أن يكون مديرًا لمكتبه، لأنها مجنونة مثل ضياء تمامًا، سيسير كل منا فى طريق، وسوف نلتقى جميعًا فى النهاية، وعند ذلك يكون العتاب ونرى من كان على حق. . أجل. . نحن فى عالم سادته ذئاب، ولن ينتصر فيه إلا ذئب، والملائكة بين الذئاب إما أن يفترسوا أو يذهبوا إلى مستشفى المجانين، أو خلف القضبان الصلدة. . «أنا أرفضك. . أنا أرفضك. . أنا أرفضك» وأنا أيضًا أرفضك يا صفاء.

□□□

[١٣]

شعرت صفاء أن تصرفات رئيس التحرير فى ذاك اليوم تبدو غريبة لحد ما، إنه يضحك بلا سبب، ويجلسها قبالته دون أن يطلب منها عمل شىء بعينه، ويتكلم فى أشياء كثيرة لا رابط بينها ولا صلة لها مطلقًا بالعمل المنوط بها، ويدخن بكثرة مفرطة، وقد أصدر أمرًا للرجل الواقف بالباب أن يعتذر لكل وافد أو صاحب موعد عن المقابلة اليوم لأنه مشغول، واضطربت صفاء عندما خيل إليها أن فم رئيس التحرير تفوح منه رائحة الخمر، وعيناه فيهما رغبة محرمة.. وخافت صفاء، وذابت شجاعتها التى واجهت بها بركات منذ فترة قصيرة، وتمنت آنذاك أن تهب من مقعدها، ثم تفتح الباب الموصد وتطلق ساقيها للريح.

- إنك جميلة اليوم..

ولما أطرقت دون أن تجيب استطرد :

- بل أجمل من اللازم . .

واستجمعت صفاء شجاعتها وقالت :

- ألدى سيادتكم ما أفعله الآن؟

فانطلقت ضحكات فى خلاعة مخيفة ، وقال وهو يدق مكتبه بقبضة يده :

- أوه . . يا لك من ساذجة! إن لدينا الكثير من الأعمال ، لكن فيم العجلة؟ إنه لما يحزننى أن أراك هكذا خائفة مترددة ، التردد صفة مشينة يا عزيزتى ، لولا المغامرة لما وصلت إلى هذا المركز وأصبحت رئيس تحرير جريدة كبرى ، ولبقيت مثل زملائى مدرسًا بالمدارس الابتدائية ، أو كاتب حسابات بوزارة الأوقاف ، أو مصححًا بإحدى المطابع . . أجل كنت طول عمرى شجاعًا ، وسأظل هكذا حتى النهاية . .

كانت صفاء تستمع إلى كلماته وهو ترتجف وعيناه تحملقان فى أرض الغرفة وكأنها تبحث عن شىء ضاع . . شىء دقيق ثمين ، ولم تر يد رئيس التحرير وهى تزحف كالحية الغليظة نحو يدها اللدنة البضة ، وما إن أمسكت أنامله براحة يدها ، حتى همت بسحبها فى سرعة وعنف ، لكنها كانت أضعف من أن تفلت من بين مخالب الذئب ، وقام الرجل يتقدمه كرشه

المتفخ، وأمسك بزنديها، وهمس كرجل يحتضر ويقول كلمات وداع أخيرة:

- أنا أعبدك . .

- اتركنى بحق الله . .

- وإذا لم أفعل . .

- سأقتل نفسى . .

- لن أتركك تفعلين ذلك . . أنت . . أنت لى . .

قال ذلك وهو يحاول- لاهثًا- أن يلتصق بها، ويقرب وجهه من وجهها، كانت رائحة الخمر تفوح من فمه كالفضيحة، ونوازع الشر تنطلق من عينيه فى حيوانية ونهم، ولهاث أنفاسه المتلاحقة تلامس بشرتها الناعمة، وصوت كخوار ثور- ثور إسبانى جريح- يصدم أذنيها مخيفًا مقلقًا، وهمهمت متوسلة:

- سوف أصرخ بأعلى صوتى.

- سيقولون مجنونة أصيبت بنوبة عصبية.

- أرجوك.

كانت تدفعه عنها باستماتة، وتقاوم بقوة لا تدرى مصدرها، والرجل قد تشعث شعره، وسال عرقه غزيرًا فوق

جبهته المجعدة، كان كالصخرة الثقيلة التى تأبى أن تتزحزح، وتذكرت ضياء الدين، إنه يجلس فى مكتبه الآن هادئًا لا يتصور ما يحدث، وفكرت فى نفسها . . ألا تأتى لتنقذنى من براثن الوحش؟ . . إنه يكاد يقتلنى يا ضياء، السيل الجارف المحمل بالقاذورات والجيفة يريد أن يكتسحنى . . أن يلوث ثيابى، ويسحق روحى، واستجمعت كل شجاعتها، وتمتمت «يارب» وهمت بأن تدفعه لكنها أحست بقبضته تتراخى، ووجهه يشحب، وجفونه ترتخي . . ثم . . ثم ارتمى على أرض الغرفة عاجزًا مقهورًا لا يستطيع أن ينطق، وصدره يعلو ويهبط .

وظلت ذاهلة بضع لحظات، وسرعان ما أعادت النظر فيما حولها، فزايلها خوفها وارتباكها، وأيقظتها الحقيقة المحزنة، لقد سقط الرجل فى إغماءة، لقد قال لها ذات مرة إنه مريض بضغط الدم العالى وتضخم القلب، هل سيموت وتكون هى السبب؟ لكنه هو الذى قتل نفسه . وانحنت فوقه، وأمسكت معصمه بيدها المرتجفة، كانت نبضاته ضعيفة واهنة : «حمدًا لله . . إنه لم يمت» وصرخت ملتاعة : «الطبيب . . الطبيب . . » .

ولم تعد صفاء تعي ما حدث بعد ذلك تمامًا، صورة مرتجة متشابكة الخطوط هى التى لم تزل عالقة بذهنها، خلق كثير

وفدوا إلى حجرة رئيس التحرير، بينهم ضياء الدين وجميع المحررين بالدار، والخدم تحلقوا حوله هم الآخرون، بعضهم يذرف الدموع دموعًا شريفة صادقة لا تعرف الكذب، ودموع تماسيح، وجاء طبيب وفحصه بدقة، وحقنه ببعض العقاقير، وأمر فورًا بنقله إلى المستشفى..

وبكت صفاء، بكت من أجل مأساة جلادها، كان في يدها أن تنقذه من شر الأزمة التي كادت تودى بحياته، لكنها كانت سوف تقدم على تضحية تكلفها شرفها ومبادئها.. موته في كفة، وشرفها في كفة أخرى.. إنه العذاب.

ولم تحاول أن تحادث أحدًا أو تتفحص الوجوه. وهي تفر هاربة أو - كالهاربة- إلى بيتها.. وبالطبع لم يستطع أحد أن يدرك حقيقة ما حدث..

أما ضياء الدين فقد كان في تمام وعيه، لم تفقده المفاجأة شيئًا من اتزانه وهدوئه، ولم يكن ذلك تحجرًا في عواطفه، أو شماتة في رجل يخالفه في الرأى والمبدأ، وإنما إيمانًا بفكرة أصيلة وهي أن الإنسان يجب أن يتماسك إلى أبعد حدود التماسك عندما تدلهم الخطوب، وتحط الكوارث حتى يستطيع أن يفكر تفكيرًا إيجابيًا سليمًا، وسرعان ما نظر ضياء نظرة شاملة فاحصة إلى الحجرة وإلى من حوله، مثله في ذلك مثل

وكيل النيابة عندما يعاين حادثة من الحوادث، ودقق النظر فى وجوه الحاضرين، صفاء كتمثال من الرعب والخوف، وكأنها فى دوامة عنيفة تدور بها، وهى لا تعرف لها رأسًا من رجلين، وتعبيرات غريبة ترتسم على وجهها لم تكن هذه التعبيرات مجرد خوف أو إشفاق، وإنما كانت تنبئ عن صراع نفسى هائل، بعث فى نفس ضياء الدين شيئًا من الشك والقلق، وتلفت يمنة ويسرة وتساءل بينه وبين نفسه، ما الذى جعل النوبة تدهم رئيس التحرير فى هذا الركن القصى من الحجرة وهو الذى لا يبتعد عن مكتبه؟؟ ودق قلبه دقات عالية هزت كيانه بعنف.. لكن ضياء حاول أن يتناسى كل هذه الأوهام والشكوك، ولم يعد يذكر سوى أنه أمام رجل مغمى عليه ويوشك أن يموت، وأنه سكرتير التحرير، وقد أرادت الظروف القاسية أن يتحمل أعباء رئاسة التحرير حتى يبل الرجل من مرضه، أو يعين نائبًا عنه ليواصل إصدار الجريدة، ترى ماذا يفعل وقد أصبح فى غمضة عين كل شىء فى الجريدة؟؟ تجربة مثيرة حقًا..

وتلفت حواليه فلم يجد ظلاً لصفاء، ومع ذلك فهو لم يغادر الدار قبل أن يعد مواد العدد الجديد، ويوزع على المحررين اختصاصاتهم، ويوصيهم بالجد والصبر حتى تمر أزمة الرئيس.. ويعود إلى عمله بعد الشفاء. وأعلن أمام

الجميع أنه لا تغيير فى سياسة الجريدة، فقابلوا إعلانه هذا بكثير من الريبة والشك، وما إن انتهى العمل حتى وجد نفسه مدفوعًا دفعًا لا هوادة فيه إلى السير فى اتجاه بيت صفاء . .

وعندما تلاقيا، لم تطل دهشتها، إذ سرعان ما بشت فى وجهه، وقادته إلى حجرة الضيوف مرحبة، ثم جلست صامتة، فجاءها صوته بعد لحظات قويًا صارمًا :

– ماذا جرى؟

فقالت دون أن ترفع رأسها :

– أى شىء تقصد؟

– أنت تعرفين . . إن رئيس التحرير لم يكن ليصاب بهذه النوبة دون أسباب . .

– لكنه مريض من زمن . .

فقال بصوت فيه رنة الأمر الواجب التنفيذ، فى وقت أحست هى فيه أنها محاصرة من كل جانب، وليس فى استطاعتها أن تكذب أو تفلت من ذكائه وإصراره :

– تكلمى . . كانت رائحة الخمر تفوح من فمه . .

فأجهشت بالبكاء، ومن بين دموعها انطلقت كلماتها حزينة منزعجة :

- أراد اغتصابى . .

- حسبته فقط ألح فى طلب الزواج منك ، فقسوت عليه فى الرد . .

- لا . . بل أكثر من ذلك ، كان كالطاغية المجنون . . وظن أنه أقوى منى ، أمسك بى . . فقاطعها ضياء :

- فدفعته فى عنف . .

- كنت على وشك أن أفعل ذلك ، لكن الله حطم قواه . . فتهاوى فى ضعف .

كانا فى هذه الأثناء يفكران فى أمر الرجل الذى بدأ بالعدوان فخذلته القدرة الإلهية ، أيحزنان من أجله لأنه طريح الفراش بين براثن الموت ، أم يشمتان فيه لأنه أسكت أقلامهما من قبل ، وعطل نشاطهما ، ثم حاول فى نهاية الأمر أن يفرض نفسه على عواطفها ويثأر لشيخوخته الضائعة ، وضميره المعذب من شبابهما ونضارتهما؟

قال ضياء الدين :

- وماذا تنوين أن تفعلى؟

- سوف أبقى فى مسكنى لا أغادره . . لا أريد أن أرى أحدًا . . وهمس فى ابتسامة ندية رقراقة :

- حتى أنا؟

وبرغم الجو المكفهر، وسحابة الحزن التى تجلل الحجرة، والدموع التى لم تجف بعد فقد قالت:

- أنت.. أنت..

- أجل.. أنا، أتنوين مقاطعتى أنا الآخر؟

وتورد وجهها، وإحساس شهى غمر قلبها، وأنعش روحها، فابتسمت وسط العواصف، وخيل إليها أن أنامل سحرية وادعة تحاول أن تجلو صدأ حياتها، وتبعث فى دنياها المظلمة البريق والنضارة، وهمست فى انفعال وصدرها يعلو ويهبط:

- أنا أخوض النار، أجتاز امتحانات رهيبة..

- صورة مصغرة لشعبك السجين..

- ولم أعد أثق إلا.. إلا..

- إلا فيمن؟

واستجمعت شجاعتها وقالت:

- فيك أنت.. لأنك إنسان كبير..

لحظة كالحلم، مرت خاطفة حلوة، تحولت فيها آلام المأساة

إلى لحظات حب يوشك أن ينفجر ويفضح نفسه، لم يزل هناك أمل عصا موسى تستطيع أن تفجر الماء من الصخور الصماء، وتجد للمؤمنين طريقًا بين الأمواج الهادرة، وفى الوقت نفسه تفتح فم الوحش ليبتلع الأوغاد، وآفاقًا على الحقيقة الجلية، عاصفة هبت محاولة أن تلفح صفاء، لكن الأقدار حمتها من العبث والمهانة. لقد ازداد إيمانها بعد الآن بالقوى الغيبية التى تقرر مصير البشر، وتتدخل فى اللحظة الحاسمة، وتؤدى دورها الرائع والذى نطلق عليه أحيانًا اسم المعجزة، وهمس الدكتور ضياء وهو يلهث:

- عيوننا المحرقة تبحث عن معالم الطريق عبر الضباب..

فأردفت صفاء:

- والضباب يغص بالمؤامرات والخيانات والخطايا..

- لأنه ضباب..

ثم حاول أن يدير دفة الحديث، بعد أن آب إلى هدوئه رويدًا رويدًا وقال:

- أظنك سوف تأتين إلى دار الجريدة فى الصباح..

- أحس بالخجل..

- شجاعتك يجب ألا تذوب أمام الأحداث..

وصمتت برهة، وسددت نظراتها إليه ثم قالت:

- وأنت؟ ألم يضايقك ما يحدث؟

- لا شك أنى تألمت وتعذبت، لكنى لا أحب أن أستغرق فى الأحزان، وأقيم المآتم، إننى أفكر فيما يجب عمله، وأحلم بحياة حرة شريفة، إنى لأقطع اليد التى تمتد إليك بخبث، وأود أن أقطع الألسن التى تنهش فى سمعتك.. لكنى أفضل دائمًا أن أبحث عما وراء الأشياء، عن القوى الخفية التى تحرك هذه الأعمال الشريرة، فأستطيع أن أستأصل الشر من جذوره، ليست المأساة مأساتنا وحدنا، وإنما هى مأساة شعب بأسره، ورئيس التحرير أو بركات أو عثمان باشا أو الدستور الجديد المزعوم، كل هؤلاء أخطاء صنعها الاستعمار.. رأس الشيطان.. صنعتها الظروف القاسية، والانحراف البشع..

وأخذ ضياء الدين يحدثها عن قصة طريفة نشرها ذات يوم فى الجريدة، قصة بعض المسجونين الذين خرجوا من السجن فى حراسة سجان قاسٍ لا يرحم لينجزوا بعض الأعمال الشاقة على بعد أميال من السجن، ثم يعودوا إليه، وأثناء العمل أغمى على السجان، وكانت مفاجأة له إذ رأى أحد المسجونين يحمل البندقية، ورأى الآخرين يحملونه فى إشفاق وتعود القافلة إلى السجن فى هدوء وروح عالية لا يصدقها أحد، وبعد ذلك ولد السجان القاسى من جديد. آمن أن فى الحياة معانى كبيرة، وقلوبًا

أكبر ، حتى العصاة والمذنبون لم يهدروا إنسانيتهم فى اللحظات الحرجة ، وفى النهاية قال ضياء :

- ما أشبهك بهذا . . غداً يا عزيزتى نذهب إلى المستشفى لنزور رئيس التحرير ونتلقى أوامره ، ونثبت له أننا ننسى الإساءة . . ونغتفر له خطأه . . وأننا أكبر من هذه التفاهات الصغيرة . .

[١٤]

أقبل الليل على القاهرة موحشًا كئيبًا، وألقى على المدينة التعسة وشاحًا أسود حزينًا، والغيوم السوداء تخنق ضوء النجوم الخافت، وأنين مجهول يقطع الصمت الطويل المثير، ورائحة الدم المهدور تفوح من بعيد، وتزكم أنوف المعذبين والثكالى، ويخيل للعيون الباكية المسهدة أن الدنيا كلها قد اصطبغت بلون أحمر، ومات السلام قبل أن تهب نسائم عيد السلام، عيد الميلاد، وأخبار المأساة البشعة قد طرقت كل باب، وبلغت كل سمع، وعاصفة هوجاء مدمرة يكتمها ضمير الغيب تهدد بالانفجار الرهيب، وشرد ضياء الدين بعينين لم تزل فيهما آثار البكاء وقال:

- تصورى.. أن الملك فؤاد عندما علم أن عدد الضحايا قد بلغ الخمسمائة عدًا قال فى تبجح: خمسمائة فقط؟؟

ولم تجب صفاء، كانت كابية حزينة، وروحها تشغل بنار لا تهدأ، بينما استطرد:

- نحن فى زمن المتناقضات . . حزب الشعب يقتل أبناء الشعب . . الدستور الجديد الذى زعموا أنه عنوان الحرية والسعادة، يسفك فى ظله دم الأحرار . . لقد كنت هناك يا عزيزتى، حضرت المأساة من البداية حتى النهاية، وسوف أرويها لك كاملة، لأنها- برغم الضحايا الذين قدموا أرواحهم فى سبيل أمتهم- ملحمة خالدة لن تموت ذكراها . .

وبلع ريقه، وجفف دمعة أخرى انحدرت فوق خده، ثم قال :

- الجوع يطحن الملايين، والمصانع لا ترحم، ورأس المال يستبد، والعامل يريد أن يأكل ويحمى أسرته من الفقر والموت، إنه يعطى الكثير من طاقته وقواه مقابل قروش قليلة، ويحيا فى ظل قهر وعبودية وحرمان، رفعوا عقيرتهم بالشكوى، لكن الخصم هو الحكم، والسادة الباشاوات هم أصحاب المصانع والشركات . . أيعيشون بلا حرية أو كرامة أو ثمن عادل لجهودهم؟ . . ولما يئسوا خرجوا ثائرين . . كانت مظاهرة ضخمة . . الأعلام الخضراء تخفق فى عنف، والوجوه الشاحبة التى أرهقها العمل والسهر والصبر تتحرك نحو المجهول، والهتافات تدوى بسقوط الاستعمار والحكومة والدستور المزيف، وتطالب بحق الحياة، لم يكن فى رءوسهم وهم يصيحون صيحات متشنجة متوترة سوى صورة

واحدة. . الوطن سجن كبير، والقيود تثقل السيقان النحيلة وتلصق الأقدام الحافية بالأرض وتعوق الحركة، والأطفال الصغار يبكون، يحلمون بالسعادة والمستقبل الحر الطليق. . أسطورة السيد والعبد يجب أن تموت، والذى يعمل هو السيد، والذى ينتج كثيرًا يأخذ كثيرًا. . كلمات بسيطة واضحة المدلول، وعادلة جدًا، الآذان الصماء يجب أن تسمع صيحات المعذبين، والعقول المغلقة يجب أن تفهم، أن تدرك ما لها وما عليها، والجماهير لا تعترف بالمندوب السامى لأنه غريب فرض نفسه فرضًا، ولا تحترم الملك لأنه «ألعوبة» فى يد الغريب المستبد، وهو نفسه غريب أيضًا. . والباشاوات هم الآخرون غرباء. . غرباء فى مجتمع يكرههم، لأنهم لا يحسون بمأساته أو يتجاهلونها، هؤلاء السادة الباشاوات هم العبيد حقًا، عبيد الملك والمندوب السامى وعبيد مطامعهم وجشعهم، هؤلاء العمال هم السادة الحقيقيون، لأنهم يصنعون أيضًا الرفاهية والثراء والمناصب للآخرين. . فليكن ذلك، لكن لهم الحق فى الحرية والسعادة ورغد العيش. . أليس كذلك يا عزيزتى صفاء؟ لقد ظن هؤلاء الأبرياء البسطاء أن صيحاتهم وهتافاتهم البريئة السلمية سوف توقظ النائمين، فينزلون إليهم من أبراجهم العاجية، ويعاملونهم فى رفق وأخوة، ويناقشون قضاياهم العادلة، لكن الكبار اعتصموا

بقصورهم ومكانتهم واستنجدوا بالأيدى القذرة، وبالوسائل البشعة التى لا تؤمن إلا بنزواتها وحقها فى الاغتصاب والسيادة المجرمة . . وأصدر رجل إنجليزى أوامره، رجل إنجليزى من الذين قالوا بالأمس القريب- على لسان مندوبهم السامى- إنهم لا يتدخلون فى شئوننا الداخلية . . ورأيت بنفسى كيف يوفون بعهدهم . . عربات الشرطة اعترضت طريق الثائرين، كان موقفًا رهيبًا يا عزيزتى . . السلاح والقوة والإنجليز والوحشية فى جانب، والحق والحرية والكرامة العزلاء فى جانب آخر، وبينهما مسافة قصيرة لقد ظننت أن زحف الجماهير سوف يتوقف، لأن فوهات المدافع موجهة إلى صدورهم، والموت لا يحتاج لأكثر من أمر يصدر أو إشارة تعطى . . سوف يفرون حتمًا، وكفاهم ما هتفوا به، لقد عبروا عن رأيهم وإرادة شعبهم، ومن الجنون أن يطمعوا فى المزيد، فالأيدى الفارغة العزلاء لا تستطيع أن تصمد فى معركة، أو تواجه السلاح الإنجليزى وخيانة الباشاوات وطغيان القصر والغرباء . لكنى ذهلت عندما سمعت الهتافات تخفت، والجماهير تزحف فى إصرار وقد ازدادت وجوهها شحوبًا، والذئاب يربضون خلف متاريسهم مصوبين فوهات بنادقهم كالوعيد، والمسافة بين الجانبين تضيق، أية مشاعر كانت تضج فى أعماق هؤلاء المظلومين!! وصوت إنذار ينبعث من مكبر

الصوت لدى الفئة الباغية يصيح فى تحدٍّ وكبرياء وثقة: «عودوا إلى أعمالكم.. لا داعى لكل هذا.. سوف نطلق الرصاص» السادة يأمرون، يا للمهزلة شعبنا يذبح على قربان المطامع، حرياتنا تهدر، مصيرنا فى يد الغرباء العابثين.. حقوقنا ضائعه ومع ذلك يقولون «لا داعى لكل هذا سوف نطلق الرصاص» وخيل إلىَّ أنى أرى بسمة شاحبة ترسم على الثغور المرتعشة التى كفت عن الهتاف، لكنها ما زالت تواصل الزحف إلى الأمام، وعيونها مصوبة نحو فوهات المدافع المنصوبة

وصمت ضياء الدين لحظات، وسال العرق غزيرًا على وجهه المحتقن، وأخذ يلهث كمن يبذل جهدًا جبارًا، وصفاء قد تسمرت فى مكانها لا تتكلم وعيناها إلى شفتيه، ظامئة إلى المزيد من حديثه الثائر المخيف، ومن آن لآخر توشك أن تطلق صرخة مدوية، لكن صوتها لا يخرج، وكأنها فقدت القدرة على الكلام..

واستطرد ضياء الدين فى حديثه:

- أيقنت أن الكارثة ستقع، والذئاب الجائعة العطشى لا تعرف الرحمة، وستكون النتيجة قاسية مفزعة، وأحسست أن كل فرد فى تلك المظاهرة الضخمة هو أنا.. وأنا الذى سأموت إذا سقط أحد منهم مضرجًا بدمائه، وتخيلت كل واحد منهم له أسرة

وأطفال وآمال كبيرة فى الحياة . . وأنه من الواجب أن يعيش، لأن صورة آلاف الأطفال الأبرياء قد ملأت رأسى، وكلمة «بابا . . بابا» يتردد صداها جريحًا ذليلاً فى أعماقى، ووجدتنى على الرغم منى أصرخ عاليًا: «ارجعوا . . سوف يقتلكم هؤلاء الأوباش»، وضاعت صيحاتى فى خضم الهدير الصاخب الذى ملأ الجو رعدًا قاصفًا . . وفى هذه اللحظات العنيفة يا عزيزتى ينسى المرء نفسه، وينسى أشياء كثيرة جدًا، ولا يذكر سوى القضية الكبرى العادلة التى تحتل رأسه، وأنها يجب أن تنتصر، ثم يندفع إلى الأمام، ويبدو الموت لعينيه شيئًا تافهًا ولعبة طريفة، أو تجربة مثيرة لا أكثر . . وأفقت لنفسى فوجدت الجو دخانًا، والرصاص يئز أزيزًا مجنونًا، ومناجل الموت تحصد الأبرياء المتعبين، وتحصد معهم آمالاً ومستقبلاً وسلامًا حلموا به طويلاً . .

وكنت أجرى يا عزيزتى بين الجماهير لا أدرى لى وجهة، وليس فى رأسى فكرة معينة، لكنى أذكر أنى أخذت أحاول أن أعترض السيل الجارف، وأوقف المندفعين إلى الموت لا يخافون الفوهات المفتوحة التى تقذف بالحمم والنار الحاقدة، وأدركت بعد مجهود مضن فاشل أنى مجرد ريشة فى مهب الرياح العاتية، فارتميت على الأرض مقهورًا خائر القوى، وبعد فترة تلفت حولى . . الدم ينزف، والسحنات الشاحبة تبتسم . . هل رأيت يا عزيزتى موتى يبتسمون؟؟ كانوا

يبتسمون حقيقة، وبعضه كان ينبعث منه أنين خافت، وأخذت أزحف بينهم كنت أقبل الجراح التى ينبثق منها الدم . . هذه الينابيع التى تدفع إلينا برحيق الحب والحرية والنضال . .

ثم خلا الميدان إلا من الجرحى والقتلى، ووجدت نفسى أرقد بينهم بلا جراح جسدية، وإن كانت روحى تنزف . . وأمسكت بيدى كفاً غليظة ملوثة :

- من أنت؟؟

- صحفى . . .

فجذبنى إليه فى غيظ وقال : «وما الذى أتى بك إلى هنا؟» .

فقلت :

- هذا عملنا، إننا نجمع الأخبار . .

- عد إلى جريدتك . . هذه ليست للنشر . .

وعدت يا عزيزتى إلى مسكنى أهذى كمحموم، لم أكن أصدق أنى أعيش فى دنيا الحقائق، وتمنيت أن يكون ما رأيته مجرد رؤيا عابرة، حلم من الأحلام المزعجة التى أراها فى منامى كثيراً . . لكن الدم يصرخ، والوجوه الشاحبة تبتسم ابتسامة غريبة . . وأنا . . أنا أتعذب . ثم أجهش ضياء الدين بالبكاء . .

□□□

[١٥]

كانت الأيام الأخيرة كفيلة بأن تزيد من اندماج ضياء الدين وصفاء، وتقرب المسافة بينهما، وقد ساعد على ذلك التقاؤهما عند مبادئ واحدة، ومفاهيم مشتركة، تتعلق بقضاياهم الخاصة، وبمشكلات أمتهما الكبرى، وأصبح جليًا أن العاطفة الشريفة بين قلبيهما ازدادت توثقًا وقوة. . وكأن كلاً منهما قد خلق للآخر منذ زمن بعيد، برغم الغموض والارتباك اللذين شابا علاقاتهما منذ البداية، واستطاعت كثرة الأعمال -أثناء مرض رئيس التحرير- أن تسم علاقتهما تلك بغير قليل من الرزانة والهدوء، وكلما توطدت هذه الثقة ازدادت الرزانة والهدوء، وبقيت نقطة واحدة كان على ضياء الدين أن يكاشفها بها، لم يكن مترددًا أو خائفًا، وإنما كان هناك شيء من الحذر الضروري الذي لا غنى عنه في مثل هذه الظروف القاسية، واستطاع ضياء في نهاية الأمر أن يقول لها:

- أحسبك معي في أن الكفاح على الورق لا يكفي . .

- هذه حقيقة، إن الأقوال يجب أن تدعمها أعمال . .

- وهذا ما يجعلني الآن أعترف لك بأني أرأس تشكيلاً ثوريًا سريًا .

وقد كان تصريحه هذا مفاجأة كبرى بالنسبة لها، وتيقظت حواسها لكلماته الهادئة الخطيرة، أية هزة عنيفة تعرضت لها وهي تستمع إلى النبأ الخطير، إن معنى ذلك تضحية لا حد لها، قد تصل إلى بذل الحياة في أي وقت، إن التشكيل الثوري السري معناه المغامرة والسجن أو الموت .

وضد من؟ ضد ملك يحميه استعمار، وضد حكومة من الإقطاعيين والنفعيين لا يحترمون دستورًا، ولا يقدسون حرية . . كانت تضحية أشبه بالانتحار، لأن قوة ضياء الدين المادية إذا ما قيست بقوة العدو شيء ضئيل جدًا، وأدرك ضياء ما يعتمل في ذهنها من حيرة وخوف، فقال :

- ستقولين إنني كمن يحاول زحزحة المقطم بمفرده . . لكن تأكدي يا عزيزتي أني لا أجهل إمكانياتي المتواضعة، إن خللاً بسيطًا في آلة كبيرة -نزع مسمار منها مثلاً- سوف يعطل دورانها . . أنا وزملائي سنحاول أن نبعث الخلل والارتباك في الجهاز الاستعماري الرهيب، فقالت وكلها آذان صاغية لما يقول :

- وكيف؟

- سنؤكد لهم أن الاستعمار لن يعيش آمنًا بيننا لأننا نكرهه . .

- كراهية الاستعمار أمر بديهى . .

- أعلم ذلك . . أقصد أننا سنحاول أن نحيطهم بجو من القلق والرعب ، وسنكبدهم الخسائر دائمًا ، ونؤكد لهم أنهم لن يستطيعوا الاعتماد علينا فى الأوقات الحرجة ، إن كمية صغيرة من المتفجرات مثلاً لا يزيد ثمنها على بضعة قروش تستطيع أن تنسف مخزنًا للذخيرة يقدر ثمنها بآلاف الجنيهات ، ورصاصة واحدة تستطيع أن تضع حدًا لحياة ضابط إنجليزى كبير ، وبهذه الطريقة نرغمهم على أن يفكروا فى وضعهم ، هل يحققون خسارة أم كسبًا ، وبعملية حسابية بسيطة يوقنون أن وجودهم عبث لا طائل تحته . .

- إن إراقة الدماء أمر فظيع . .

- هذا حق . . أنا أكرهه مثلك تمامًا يا عزيزتى . . إن دم الإنسان غال ، وحياته هبة من الله مقدسة ، أفهم ذلك ، وأحزن أعمق الحزن من أجل كل قطرة دم تسيل ، لكنه القصاص يا عزيزتى ، القانون الذى أنزلته السماء ، ليس المعقول أن يقتلونا ويسرقونا ، ثم نحنى لهم رءوسنا ونقول : مرحبًا بكم أيها

القتلة والجلادون فى بلادنا . . مرحبًا بكم، لن نقتلكم لأن إراقة الدماء أمر فظيع . .

وأخذ ضياء يسرد لها تاريخًا رهيبًا لمجازرهم وطغيانهم، كانوا يذبحون رجال «عرابى» على الكثبان، ويلقون بجثثهم فى الترع والأنهار، وفى مأساة «دنشواى» ألبسوا الباطل ثوب الحق، وحاكموا الأبرياء، ونصبوا المشانق على قارعة الطريق، وفى الحرب الكبرى عام ١٩١٤ ساقونا إلى خط النار بلا سبب، وقاتلنا من أجلهم . . من أجل جلادنا وطاغيتنا، ومات خلق كثير، وفى ثورتنا عام ١٩١٩ -عندما حرمونا الحرية والاستقلال، ونكثوا بوعودهم بعد الحرب- حصدونا بالمدافع ثم قال : أنت لا تتصورين مئات طلبة المدارس والأزهر وهم يتساقطون فى عمر الزهور، وثغورهم الصغيرة البريئة تهتف بالحرية والاستقلال والدستور . ولا تعرف سببًا مقنعًا لقتلهم هكذا ببساطة .

وغمغم فى انفعال :

- المسألة فى هدوء يا عزيزتى هى أن رأس الشيطان يجب أن يحطم . .

هل كانت صفاء تجهل التاريخ وأحداثه الرهيبة، إنها تعلمت الكثير وهى فى المدرسة السنية التى كانت نهاية مرحلة

تعليمها، وهى تذكر أيضًا حكايات كثيرة هزت أرجاء مصر . . كانت لم تزل صغيرة، لكنها سمعت عن فلاحين انحدروا من الوجه القبلى، وسالت بهم أوديته، وزحفوا أيضًا من الوجه البحرى يحملون الفئوس والعصى الغليظة، ليواجهوا دولة عظمى، وسمعت ما يشبه الأساطير من رجال وشباب ونساء قذفوا بأنفسهم على مدافع العدو واستشهدوا دون خوف، وأغنيات شعبية كثيرة تروى ملاحم فريدة، وأيامًا خالدة، كانت تستمع إليها آنذاك فيقف شعر رأسها، وتسرى القشعريرة فى جسدها، وطنين طاغ عنيف يملأ رأسها ووجدانها ثم تنهمر منها الدموع، وأبوها يربت على كتفها فى حنان، ويرفه عنها، ويقدم لها الحلوى، لكنها كانت تدفعها فى رفق، وهى تشعر بفقدان شهية لا مثيل لها . . أجل . . حكايات كثيرة جدًا عن رجال ساقوهم إلى السجون، ورجال آخرين بعثوا بهم إلى المنفى السحيق فى جزر نائية وسط البحار والمحيطات، وأفاقت صفاء من ذكرياتها المريرة على صوت ضياء :

- «الدم بالدم يا عزيزتى - والبادى أظلم» .

فقالت وقد تجمعت الثورة والحقد والألم فى قلبها :

- أجل . .

***

والتقى الأصدقاء الأربعة : ضياء الدين وعدنان الأسطوانى السورى ومندوب الطلبة والعمال فى حانوت للبقالة فى شارع محمد على، يديره محروس أفندى، أو السنى كما أطلق عليه أهل المنطقة، وتدارسوا الموقف من جميع نواحيه، واتفقوا على أن الثأر لشهداء مظاهرة العمال الكبرى ضرورة لا مفر منها، وواجب مقدس، وأكدت لهم وسائل العنف التى يتبعها الاستعمار إيمانهم بالانتقام ممن يريقون دم المواطنين ظلمًا وعدوانًا كان عيد الميلاد قد أوشك، وعيد الميلاد فرصة ذهبية لأولئك الذين يسكرون ويعربدون ويغنون دون أن يؤرقهم طغيانهم، أو تعذبهم ضمائرهم، وقال الأسطوانى :

- ليس الإنجليز بهذه السذاجة . . إنهم يشددون الحراسة خارج ناديهم، ويفتحون عيونهم تمامًا، ومن ثم ترى أن المسألة محفوفة بالمخاطر . . نحن أحرص من أن ينكشف أمرنا لا خوفًا من الموت، وإنما إشفاقًا من النكسة التى قد تصيب حركتنا . .

فقال ضياء الدين :

- أعرف ذلك وقد أعددت الخطة .

- كيف؟؟

- الأيدى الناعمة تتسلل فى خفة، وتعمل دون أن يشعر بها أحد . .

- لا أفهمك . .

- صبراً . . إن زميلتنا المحررة صفاء، قد انضمت إلى التشكيل وأقسمت القسم، وهى تفهم قضيتنا من زمن بعيد، وتدافع عنها فى حرارة .

فقال الأسطوانى وهو يبدى عدم ارتياحه :

- أنا لاأثق كثيراً فى النساء . .

- لكنى أثق فيها مائة فى المائة . .

- ربما تكون مدفوعًا بعواطفك نحوها . .

- أنا فى مجال العمل والتضحية أفكر بعقلى، وأنحى عواطفى جانبًا، أنا أدرك أنها مسألة حياة أو موت . .

وأردف الأسطوانى فى شىء من الحدة :

- إنهن رقيقات، لم يألفن مثل هذه الأعمال العنيفة الخشنة . .

- لكنهن مواطنات يؤرقهن الظلم الواقع بأمتهن، ويعذبهن الهوان الذى نحيا فيه .

- لا شك أنهن مخلصات، لكن عواطفهن لا تحتمل الضغط، لا أستطيع أن أرسم لصفاء هذه فى ذهنى سوى صورة واحدة . . وجه شاحب، أيدٍ مرتجفة، خطوات متعثرة،

دموع توشك أن تنفرط لأوهى سبب، وإذا ما جد الجد، وآن أوان العمل، ونظرت حولها، وتصورت ما يحدث. فلسوف تنهار حتمًا، وتسقط مغمى عليها، أو تصرخ باكية، إنى خائف ولا أخفى عنكم ما يراودنى من شك. .

وأسرع مندوب العمال قائلاً:

- ألم يعد لدينا رجال حتى نلجأ للنساء؟ يا للعار!

وأدلى مندوب الطلبة بدلوه قائلاً:

- لشد ما تحيروننى!! إننى أسمع منكم كلامًا يخالف تمام المخالفة ما نادى المصلح الاجتماعى «قاسم أمين» الذى دعا إلى تحرير المرأة والاعتماد عليها، والاستفادة من طاقتها المعطلة. .

وحاول ضياء جاهدًا أن يعرف الطريق إلى إقناعهم، وجعلهم يؤمنون بدور المرأة فى الكفاح الوطنى، والمشاركة فى أعبائه وتكاليفه، وخاصة إذا كانت مثقفة واعية، وأكد لهم أن «صفاء» استطاعت بقلمها الواعى المخلص أن تبث المبادئ الوطنية فى نفوس الكثيرين من القراء، بل إنها فعلت ما لم يفعله الكثيرون من الرجال المثقفين، فضلاً عن أنها كصحفية تستطيع أن تحسن التصرف وتؤدى دورها على أكمل وجه.

وفى النهاية قال:

- من العسير أيها الأصدقاء أن يدخل أحدكم «النادى»

الذى سيقام فيه الاحتفال برأس السنة، إن الذين يشتركون مع الإنجليز فى مثل هذه الاحتفالات طبقة معروفة من أصدقائهم العرب الموثوق فيهم، ودخول أحدكم سوف يثير الشبهات، وقد تنكشف الخطة قبل أن تفعل شيئًا، فيموت أملنا فى مهده. . صفاء سوف تذهب إلى الحفل. وتحمل معها قنبلة زمنية، وتضعها فى حجرة داخلية يأوى إليها الكبار فقط من جنرالات ومستشارين وميجورات. وبذلك نحطم الرءوس الكبيرة وحدها، ولا نمس النساء والأطفال بسوء. . صفاء هى الوسيلة المضمونة الوحيدة فى مثل هذه الظروف. . ألستم معى؟

فهزوا رءوسهم موافقين.

وجاءهم صوت محروس أفندى وادعًا رقراقًا.

- أتشربون القهوة؟ سوف تنعشكم حتمًا.

فقال ضياء الدين: «لا مانع».

أخذ عم محروس يفرك يديه، ويصفق قائلاً فى لهجة مجذوب: «وحدوه» كل ذلك وهو يبحث عن الموقد الكحولى الصغير المنزوى تحت أريكة خشبية عتيقة.

وفى صبيحة اليوم التالى لعيد الميلاد خرجت الصحف وفى صدر صفحتها الأولى عناوين مثيرة. . وأخذت تتحدث عن

المتطرفين الوطنيين الذين وضعوا المتفجرات الزمنية فى النادى الليلى، وتسببوا فى قتل سبعة وجرح عشرة من كبار الشخصيات الإنجليزية، وطغت أنباء الحادث على أخبار عيد الميلاد وتنبؤات العام الجديد، وأخبار المجتمع وتصريحات الوزراء.. كانت ضربة مذهلة، إن مخابراتهم تجمع المعلومات وتحاول أن تدرك كنه الحادث ومن وراءه، والشخصيات الغريبة التى دخلت الحفل، والعربة السوداء التى كانت تنتظر قرب النادى ثم فرت هاربة بمن ركبوها بعد الانفجار، والأيدى التى دبرت المكيدة.. هل عادت عصابة اليد السوداء، والجمعيات السرية، وأسلوب الاغتيال العنيف؟.. وخرجت صحيفة النهضة العربية، وفى صدرها مقالة للدكتور ضياء الدين بعنوان «من المسئول؟؟» تحدث فيه عن الحريات الضائعة، وعن حقوق الفلاحين والعمال المهدرة، وعن أساليب التدخل الإنجليزى الأحمق فى شئون البلاد، ومحاربته لأمانى البلاد فى الحرية والاستقلال والاتحاد مع السودان، واختتم مقاله قائلاً: لا تحاسبوا من وضعوا المتفجرات، ولكن حاسبوا المسئول الحقيقى الذى مهد لسفك الدماء، حاسبوا قتلة ولصوص الدستور..».

وكان بديهيًا أن تصادر الجريدة، لكن هذا لم يحدث إلا بعد فوات الأوان، فقد كانت الضربة مذهلة، ولم يفكر أحد أن

صحيفة من الصحف، وخاصة جريدة النهضة العربية المتزنة- تستطيع أن تتكلم هكذا بصراحة.

وكان ضياء الدين كابيًا حزينًا، واقتربت صفاء منه قائلة:

- كانت عناية الله تحرسنا.

- ألم تخافى؟؟

- كنت مخدرة تمامًا، أتصرف كآلة تدفعها قوة سحرية.. أحسست فى البداية أن العيون كلها ترمقنى، وتكاد تقول اقبضوا عليها، لكنى أغمضت عينى ولم أعد أرى أحدًا، وضعت المتفجرات بهدوء تحت «مقعد فوتيه» كبير مثلما أضع حذائى تحت سريرى فى مسكنى لكن.. لكن دموعى تساقطت على الرغم منى وأنا أفر هاربة مع الزملاء.

فقاطعها ضياء الدين قائلاً:

- أعرف ما تودين قوله.. شىء رهيب أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان.. إن قلبى يبكى يا عزيزتى هؤلاء الأغنياء والغرباء، لماذا يرفعون فوق رءوسنا السيوف وينصبون لنا المشانق، ويفسدون معنى الحياة؟ وهؤلاء الخونة من أبناء جلدتنا لماذا يبيعون ضمائرهم، ويمهدون للطغيان؟ إننى أتعذب، لكن السرطان لا بد أن يستأصل، الساق العليلة

بدائهـا الخبـيث من الضـرورى بتـرها . . ومع ذلك فإن قلبى يبكى .

وحاول ضياء أن يوجه الحديث وجهة أخرى ، ويبدد جو الألم الذى يشوب حلاوة الانتصار ونجاح الخطة ، فاغتصب ابتسامة باهتة وقال :

- ما رأيك فى مقالى اليوم؟

- فى الصميم . . لقد نفدت كل نسخ الجريدة ، وارتفع رقم توزيعها إلى القمة . . لكن كان لى رأى آخر .

فقال ضياء فى لهفة :

- أى رأى؟

- كان من الواجب أن نصمت تمامًا فى مثل هذه الظروف ، ونختفى تمامًا عن الأنظار بأجسامنا وأقلامنا ، إن الخطة كانت دقيقة ، وعيونهم لم تلتقط خيطًا واحدًا يوصلها إلى «الفاعل» ، وهم يبحثون الآن عن ضحية . . أية ضحية . . ثم ، أتعتقد إن المسألة ستمر بهذه البساطه؟

فضحك ضياء وأردف :

- إنى أعرف ما سيحدث ، سوف تستجوبنى «النيابة» بسبب مقالى ، وأنا فى انتظارهم الآن ، إننا نعرف كيف نتلاعب بالألفاظ فى الوقت المناسب .

- وهم أيضًا يعرفون كيف يسيئون التأويل، ويحرفون الكلام عن مواضعه ويضربون الأحرار فى الصميم. .

وصمت ضياء الدين فترة، وتمتم:

- أعرف أنى أخطأت فى كتابته، أعترف لك بالذكاء والمهارة، لكن مهما كان الأمر فلن يسوء الموقف بالنسبة لى، إنهم يشفقون على رئيس التحرير المريض، وليس من المعقول أن يقبضوا على نائبه فتتعطل الجريدة. . لن يتعدى الأمر تحقيقًا سريعًا ولفت نظر أو تهديد. .

ونظر ضياء إليها فى حنان. .

ونظرت إليه. . كانت نظراتهما تتعانق، وكانت تعبيرات وجهها نابضة بالحياة والحب والأمل، وكأنها قد ثأرت لنفسها من الطغيان، من بركات وصفاقاته، ومن رئيس التحرير وغروره، ومن الظروف القاسية التى حرمتها مما كانت تحلم به فى طفولتها وفجر شبابها. . وأحست أنها قد فعلت شيئًا لوطنها، وبرهنت على أنها تعرف كيف تمسك القلم والمفرقعات وتضعهما فى المكان المناسب والوقت المناسب. . من أجل الحق، ومن أجل المعذبين والضائعين فى وطنها الحبيب. . وخيل إليها أنها أصبحت إنسانة جديدة، وسمعته يقول وهو يتثاءب:

- جان دارك . . قديستى العزيزة . . متى نقوم بالجولة الثانية؟

فقالت وهى تهب واقفة عازمة على النزول إلى مطابع الجريدة :

- عندما يخفت الضجيج المثار حول الجولة الأولى . .

❑❑❑

[١٦]

قرأت القرية الأنباء المزعجة فى صحف الصباح. وزاغت العيون المحملقة وهى تمر على السطور. وارتعشت الأيدى الممسكة بالجرائد، وارتسم الوجوم على الوجوه الشاحبة المجهدة، لسوف تشق الحكومة مصرفًا كبيرًا فى الأراضى المزروعة، وإلى جواره سوف تسوى الأرض على هيئة طريق زراعى واسع تستطيع العربات أن تسير عليه، وتشق ترعة للرى، كان هذا شيئًا جميلاً فى حد ذاته، وهل يستطيع أحد أن ينكر فائدة المصارف وسط الأراضى الزراعية، وهل يكره أهالى القرية أن يكون هناك طريق زراعى نظيف واسع يصلها بعاصمة الإقليم، ويجعل الانتقال سهلاً ميسورًا؟؟ إن هذا عمل جميل فى حد ذاته، لكن الذى أزعج الفلاحين هو أن عثمان باشا بنفوذه وسيطرته استطاع أن يتفادى أملاكه وعزبته، وبقيت حدائقه الواسعة، ومزارعه التى تمتد وراء الأفق، بقيت سليمة، ولكن العبء كله وقع على أصحاب المساحات

الصغيرة التى تتراوح بين فدان ونصف فدان أو أقل من ذلك سوف يخترق المصرف هذه الأراضى، وسوف يقتطع الطريق الزراعى جزءاً كبيراً منها، وستدفع الحكومة لهم تعويضاً تافهاً أو ثمنًا اسمياً، وبذلك تتشرد العائلات الصغيرة التى ليس لها مورد رزق سوى هذه القراريط التى تطعمهم الذرة، وتطعم بهائهم البرسيم، وتعطيهم قليلاً من القطن يسدون به بعض نفقتهم طوال العام، أما أرض عثمان باشا التى وضع المشروع أساسًا لمصلحتها فلم تنقص شبراً واحداً، وستصلها المياه، وسوف تجرى جياد الباشا وعرباته فوق الطريق المستوى الجديد، وتطلق صهيلها عاليًا مزعجًا فيه معنى التحدى والاستعلاء والقوة التى لا يستطيع أحد أن يقف فى طريقها أو يعترض مشيئتها، أما التعساء الأشقياء فسوف يفقدون قراريطهم، وينضمون إلى الرهط الكبير، والجيش الحزين الذى يستجدى الباشا، ويطلب منه التكرم بالسماح له بالعمل كأجراء.. أو يطلب منه فدانًا لزراعته بالإيجار.. الإيجار الباهظ الذى لا يرحم، ويقبعون فى بيوتهم القميئة الكالحة إلى جوار بهائمهم النحيلة، ينتظرون فرج الله، ورضى الباشا، يلفهم الحزن العميق ويحرقهم الشوق إلى الحب والعدل ورغد العيش..

وحار الفلاحون، وأرقهم التفكير والألم، ماذا يفعلون؟ إن

كلمة الحكومة مقدسة لا ترد وأوامرها فوق الاعتراض، وذاتها كالملك تمامًا مصونة لا تمس، وهم فلاحون.. مجرد فلاحين، أما صاحب العزبة فهو باشا كبير.. ووزير عظيم! وهيهات للحشرات- كما يسميهم عثمان باشا- أن تبعد عن أجسادها الأحذية الثقيلة الموحلة التي تريد أن تسحقها. وقال أحدهم:

- لماذا لا نذهب إلى الباشا، ونعرض عليه الأمر، ونتوسل إليه بفقرنا وأسانا، وبأطفالنا وأملنا فيه؟ ألا يصح أن يشفق علينا، ويرق قلبه من أجل دموعنا والكارثة التي تهدد مستقبلنا وكياننا؟

فرد آخر في سخرية:

- تريدنا أن نستجير من الرمضاء بالنار، إن الباشا هو صاحب فكرة هذه المشروعات، وهو الساعي إلى تنفيذها بنفوذه وسطوته..

- لعله لم يكن يعلم ضررها بالنسبة لنا..

- أيها الأبله!! ماذا تنتظر من الباشا؟

- أطمع أن يكون إنسانًا ولو مرة واحدة في حياته، إن مغالاته في طلب الإيجار ورفع قيمته قد يكون أمرًا مقبولاً، وحجزه على ممتلكاتنا عندما تتأخر عن السداد قد يكون حقًا شرعه له القانون القاسي الأعمى، لكن الكارثة

الجديدة تختلف تمام الاختلاف عن كل شيء يفعله معنا في قسوة . .

فقال زميله حانقًا :

- الباشا يعرف كل شيء . . هل كنت تعتقد أنه سوف يشق الترع والمصارف وينشئ الطرق الزراعية في أرضه هو؟؟ إنه في مسيس الحاجة إلى الماء لأرضه، وللطريق الزراعي من أجل عرباته . . وهو لا يريد أن يفقد قيراطًا واحدًا، بل إنه يدبر المؤامرات، ويشتري بعض المساحات المجاورة بالخديعة تارة، وبالإرغام تارة أخرى، وبرفع السعر أحيانًا، حتى تزيد أملاكه، كشارب الخمر كلما ازداد شربًا ازدادت شراهته إلى جديد من الخمر . . نحن دائمًا القنطرة التي يعبرها إلى مجده وسعادته ومغانمه، وكما يمتص دماءنا وعرقنا، فهو يستمد ما يحتاج إليه من ماء الترع التي تجري بين مساحاتنا الصغيرة . . هل فهمت؟؟

- فهمت . . لكن أتعتقد أنه قاسٍ لهذا الحد؟

- لا يعرف الرحمة . .

- فلنلجأ إلى القضاء . .

- ليس من حق القضاء التدخل في مشروعات الحكومة التي جاءت أساسًا للمنفعة العامة، ولخير الفلاحين . .

- فلنبعث إذن بعريضة إلى الحكومة . .

- الباشا هو الحكومة . . إنك تدور فى حلقة مفرغة، مثل ثورك الذى يدور فى الساقية تمامًا . .

وبحثت القرية الموضوع من جميع أطرافه، وجعلت من المصاطب والمساجد والحقول منابر للرأى والمناقشة، . وكلما أوغلوا فى البحث والتفكير، يجدون أنفسهم غارقين فى متاهات الضلال والضياع واليأس، لشد ما يؤلمهم الوضع الشائن الظالم، وتصدمهم الحقيقة المرة . . الباشا هو الموعز، وهو الذى يرعى القرارات ويحميها، وهو الذى سوف يجنى أكبر الفوائد دون أن يفقد سهمًا واحدًا من أملاكه الشاسعة . . الباشا كل شىء، وهم ! ! مجرد كائنات ضائعة تؤمر فتطيع، وتطلب منها التضحية فتضحى، وتنهال عليها الكوارث والنكبات فتحنى رأسها فى ذلك وأسى . . وقال قائل منهم بعد أن ضلوا السبيل إلى حل موفق :

- لماذا لا نذهب إلى الشيخ الشاذلى؟؟

وتدافعوا نحو بيت الشيخ، ومدوا أيديهم كالغرقى إليه، وذرفوا على يديه الدموع وهم يقبلونهما متزاحمين، وخشعت الأصوات فلا تكاد تسمع إلا همسًا، وقال رائدهم :

- جئنا إليك بعد أن استشكل الأمر . .

- كيف وأنا عبد ذليل . . ؟

- إنهم ينوون أخذ أرضنا . .

- يأخذون العرض الزائل، والدنيا الفانية . .

- لكننا فى حاجة إليها، إن أرض الباشا واسعة، ومن العدل أن تشق فيها المصارف والترع والطرق . .

فترنم فى نبرات مبللة بالدموع :

- أتعرفون القصة الخالدة . . ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

فتململ الرجل فى ضيق وقال :

- إنها كارثة ونريدك أن تحادث الباشا فى الأمر لعله يستجيب لك .

- أنا أريد وأنت تريد، والله فعال لما يريد . . والأرض لله يورث من يشاء من عباده، وقلبى لم يعد يتعلق بشىء من الدنيا، وأنا لم آتِ سوى الله، ولم أحنِ رأسى لسواه . .

- لكننا أبناؤك، ومشكلتنا تهمك، وأطفالنا . . أطفالنا . .

وحنى الشيخ الشاذلى رأسه، وأفلتت منه دمعتان بللتا لحيته البيضاء وغمغم :

- أمركم . . سوف أرسل له خطابًا، والشكوى لغير الله مذلة يا أبنائى وتزاحمت الأيدى والأفواه المحترقة، متسابقة إلى يدى الشيخ، تقبلهما من جديد، والأمل الحلو يداعب الأحلام الكليلة المتعثرة أرهقها الظلام والخوف والهوان . .

❊❊❊

وفى هذا الأثناء جاء الدكتور ضياء الدين إلى القرية فى زيارة خاطفة وكان مجيئه محببًا إلى النفوس، إنه الأمل المجسم بالنسبة لهم جميعًا والنسيم الرطب الذى يحيى نفوسهم، ويبعث فى قلوبهم السلوى والعزاء، إنه قريب دائمًا إلى أرواحهم، كلماته تنفذ إلى أعماقهم، وتجد لها صدى طيبًا لديهم، هو خير من يفهمهم، ويحس بآلامهم وأحزانهم، وكأنه واحد منهم، وما إن سرى نبأ وصوله حتى تقاطروا على بيت الحاج رضوان أخيه وكلهم ثقة أنه الوحيد الذى يستطيع أن يمد لهم يد النجاة . .

وقال أحدهم :

- نحن لا نريد هذه المشروعات النافعة ما دامت ستجلب علينا البوار والتشرد والفقر . .

وصمت ضياء الدين طويلاً، كان يدير المسألة فى رأسه، ويفكر فيها، ويبحث عن طريق للخلاص، وغمغم فى سخرية يائسة :

- هل ذهبتم للباشا . . ؟

- الوصول إليه صعب عسير، وأنت تعرف أنه لم يستقبل أحدًا منا فى حياته، ولم يقبل لنا رجاء طول عمره، بل كان يرفض رفضًا باتًا أن يضع مشكلاتنا على بساط البحث . . لقد تحدثنا مع سلطان ابن محروس أفندى الناظر . .

فقال ضياء والألم بادٍ فى عينيه :

- وماذا قال بكم سلطان؟؟

- ثار فى وجوهنا، كال لنا السباب والشتائم . . كان شلالاً من الوقاحة، يتطاير منه رذاذ التهديد والوعيد- من أنتم أيها الأوباش حتى تقفوا فى وجه الباشا والحكومة؟؟ وأقسم أنه سوف يربى المتمردين، حتى لكأننا ناقصو التربية، وليس لنا مجرد الحق فى التوسل والرجاء . . بل إن «سلطان» الجاهل تمادى فى غضبه وسخر من خطاب الشيخ الشاذلى وعرض به دون حياء أو خجل . .

كان ضياء يستمع إلى مأساتهم فى شرود، إنها مأساة صغيرة، مصر كلها ضيعة مباحة للباشاوات، وكل عزبة بؤرة من فساد ومظالم، الوزارات والمصالح أجهزة خاصة لخدمة الإقطاع، والائتمار بأمر رأس المال، والاستجابة لرغبات الاستعمار، ليست مأساة بقعة صغيرة أو قرية منعزلة تنام

مذعورة تحت جناح الباشا وظله الأسود القاتل، وإنما مأساة كبرى شاملة تغرق الوطن كله فى ظلام دامس. .

وسدد ضياء إليهم نظرات حزينة مكروبة وقال:

- سوف أفعل ما بوسعى.

- إنك تبعث فينا الأمل من جديد. .

- الصبر طيب. .

- والله معك يا ضياء الدين. .

***

وفوجئت القرية فى اليوم التالى بعربات نقل كبيرة محملة بالرجال والأدوات وبها أيضًا عدد من المهندسين، وسرعان ما نصبوا خيامهم وأخذوا يرسمون ويخططون، وارتفعت المعاول والفئوس فى الهواء ثم أنشبت أنيابها فى الأرض الخضراء، لقد بدأ تنفيذ المشروع الجديد المصرف والترعة والطريق الزراعى الواسع، وتأكد لأهل القرية أن الكارثة قد وقعت وأنه لا مفر من قضاء الله وأوامر الحكومة؛ ومع ذلك فقد أعولت النسوة وبكين وعض الرجال على شفاههم من الغيظ، وقد ازدادت وجوههم شحوبًا، وتعلقت بأهدابهم دموع خرساء.

وأسرع ضياء الدين خارج القرية ليرى بعينه مولد المشروعات الإصلاحية التى جاءت بها الحكومة من أجل رفاهية الفلاح والنهوض بمستواه الاجتماعى.

وكما عاد الشيخ الشاذلى إلى أذكاره وابتهالاته، عاد ضياء الدين إلى أقلامه وأوراقه ليحبر مقالاً ثائرًا مزودًا بالصور.. وصدرت جريدته بعد يومين تحمل التناقض الصارخ.. صورة لقصر الباشا وعربته.. وصورة لأكواخ الفلاحين ومساحاتهم الصغيرة التى ابتلعها المشروع كما ابتلع الطغيان حريتهم ورفاهيتهم وحقهم فى الحياة الحرة الشريفة، وحمل حملة شعواء على المشروعات المغرضة التى تجعل الفلاح يتحمل العبء ويدفع التضحى من رزقه وقوت عياله ومستقبله، ولم ينسَ أن يقول لعثمان باشا فى ختام المقال: هل هذا هو الإصلاح يا رجل الإصلاح؟ هل هذا هو البر والإحسان والعطف على الفقراء والفلاحين الذين ينبتون لك الذهب، ويبذلون عرقهم وطاقتهم فى أرضك؟؟

وثار عثمان باشا عند قراءته للمقال، وإطلاعه على الصور، وشعر أن هذا التصرف ضربة لا تغتفر موجهة إلى سمعته وكبريائه، وتعريض به وبسياسته «الحكيمة» التى تستهدف الصالح العام، وإن لم يدفع الثمن من جيبه، وإنما

سرقه من جيوب الفقراء الكادحين، وقصد لتوه دار الجريدة وعندما التقى بضياء الدين صرخ فيه محتدًا:

- أنسيت أني أسد عجز جريدتكم؟؟ تستطيع أن تسأل رئيس التحرير..

- لكني أقول الحق..

- إنك ضيق الأفق.. مغرور، يحلو لك أن تحرض الدهماء وتثيرهم بلا سبب..

- معذرة يا معالي الباشا.. لكن القضية واضحة..

فقاطعه عثمان باشا قائلاً:

- ما جئت للمناقشة والتفاهم.. فقط جئت لأنذرك..

واستدار خارجًا يدق الأرض بأقدام غاضبة متوعدة.

□□□

[١٧]

خرج رئيس التحرير من المستشفى محطم الروح والجسد، وفى جيوبه عدد كبير من العقاقير الطبية، وفى رأسه المصدع عشرات الأوامر الطبية الصارمة التى لا تقبل المناقشة أو التأجيل، دواء فى الصباح، وآخر قبل الأكل وثالث بعده، وأقراص عند النوم، وحقنة عند الأزمة، ثم إن تناول الأكل دون ملح الطعام جزء مهم من العلاج. وتجنب الانفعالات والإرهاق البدنى والنفسى أمر ضرورى، وشعر رئيس التحرير وهو يجلس خلف مكتبه الذى لم يغيره الزمان، أنه قد أصبح سجينًا، سجين نظام رتيب ممل فى المأكل والمشرب، وفى اليقظة والمنام، وفى العمل والراحة. لقد غدا مجرد آلة تديرها العقاقير، ويصرف أمرها الأطباء.. وفقد المسكين الكثير من لذة الحياة ومباهجها. وخمدت فى قلبه العليل أحاسيس السعادة والنشوة، وحل محلها شعور يائسى، وحرمان مرير.

فى غمضة عين انطفأ الأمل، وذابت حرارة الحب والحياة تحت وهج الحقيقة القاسية وأنا . . من أنا؟؟ عجوز عليل محطم حلم طويلاً بالمجد، فأنساه بريقه حتى نفسه وأنساه جمال الحياة النظيفة الممتعة . . لم أرَ فى الوجود سوى الوسائل التى تخدم مطامعى ورغباتى . . يا للسخريات!! أنا كنت ألبس مسرح الرهبان ، وأحمل راية المثل العليا، مدافعًا عنها فى حرارة كاذبة، ودهاء ماكر، ما دامت المصلحة تقتضى ذلك، كنت مع التيار دائمًا، مع السيل الجارف، لم أفكر فى الاعتراض على القوة التى من الجائز أن تسحق إرادتى وآمالى، ولو كانت هذه القوة غاشمة . . ظالمة، وأنا آخر ألبس رداء المحافظين على التقاليد، الداعين إلى إحياء التراث القديم، وفى بعض الأحيان أدعو إلى التحرر المطلق، والإباحية الفاسدة والانسلاخ عن كل قديم، والأخذ بكل أسباب الحياة الحديثة شريفها وسافلها. أجل، لطالما مددت يدى للطغيان وهو فى عنفوانه، ثم صفعته وهو يركع ذليلاً تحت وطأة الظروف المتغيرة التى لا ثبات لها ولا أمان . . أكلت على كل مائدة، وانضممت إلى كل حزب، وضربت على كل نغمة . والآن من أنا؟؟ لا شىء. وما هى نتيجة تعبى وكدحى؟؟ صحيفة يومية قد انخفض معدل توزيعها، أغطى عجزها بأموال حرام . . من المصروفات السرية التى ترصدها الحكومة

لأعوانها، ومن جيب الباشا . . عثمان باشا الذى أصبح هو الوجه الفعلى لسياسة الجريدة، هو مالكها الحقيقى لأنه يملك كرسى الوزارة، ويملك المال ويملك النفوس الضعيفة من أمثالى، ويملك الضمائر والمثل ومستقبل الملايين المعذبة . . يا للكارثة . . أهذا هو الحصاد؟؟ إن حياتى تتركز فى كلمة واحدة . . «الضياع» . . ولا شىء غير «الضياع» . . وغداً . . سواء أجاء هذا الغد مسرعًا أم تأخر . . ألفظ أنفاسى الأخيرة، وتخمد جمرة الحياة المتقدة، وأنام بارداً كلوح من الثلج فوق فراشى وحيداً . . حزينًا بلا زوجة تذرف الدموع ولا أطفال يصرخون . . لا أحد أبدًا يأسى من أجلى، لن يذكرنى عثمان باشا، ولا حتى أولئك المحررون لن يفعلوا شيئًا سوى سطور قليلة فى الجريدة ينعوننى فيها، ويبثونها عبارات النعى الجوفاء المتكررة . «إلى جنة الخلد مثواك، مع الصديقين والشهداء . . ألهم الله ذويه الصبر والسلوان . . كلمات تقال لكل راحل، سواء ذهب إلى جهنم أو إلى الجنة» .

وشعر رئيس التحرير برغبة جارفة فى البكاء، كان يريد أن يعبر عن أساه وضيعته وعجزه، والمستقبل الأسود القصير الذى ينتظره، لكن الأمل لا يموت، واليأس من رحمة الله كفر، والحياة لم تزل جميلة برغم الداء والظلام والظلم، وفى الإمكان أن يبدأ من جديد، لكن شيطانه قهقه ساخراً: من

جديد؟؟ كيف؟؟ إنك تهذى، إن إحدى رجليك فى القبر، والأخرى تزحف إليه مسرعة.. لا تخدع نفسك، فلتقبل الأمر بشجاعة، واعترف بينك وبين نفسك، أنك كنت أنانيًا.. نذلاً وقحًا مثل الكثيرين. مثل عثمان باشا وباقى الباشاوات والمستعمرين». لكنه صرخ فى إصرار وثقة وقد انفرطت دموعه على الرغم منه هذه المرة: «لا.. لا.. اليأس وحده هو الموت، ولن أيأس ما دام فى العمر بقية ولو لحظات.. ألم يخبرنى الطبيب أنه فى الإمكان أن أعيش عشر سنوات.. بل خمس عشرة سنة ما دمت محافظًا على تعليماته؟؟» ولم يدرِ لماذا وثب إلى ذهنه بيت من شعر شوقى يقول فيه:

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت

كالحلم.. واهًا لأيام الهوى.. واها

وأخذ يترنم بالبيت الشعرى فى انفعال، وكلما انتهى من ترديده أخذ يعيده من جديد وهو فى شبه حلم، شارد عن كل ما حوله من أوراق وأقلام ومحابر.

***

وفى حجرة سكرتير التحرير كانت صفاء تجلس صامتة بالقرب من ضياء الدين، وهو يواصل عمله فى هدوء يحسد

عليه، ويكتب بعض المواد الخاصة بعدد الغد، وتململت فى جلستها وزفرت فى قلق، ثم قالت :

- ما رأيك؟؟

فقالت دون أن يرفع رأسه عن أوراقه :

- فيم؟؟

- الوضع الجديد.

- الوضع كما هو لحين صدور أوامر أخرى.

فقالت فى حدة :

- لتكف عن الكتابة.. كلمنى.. إنك لا تفهمنى.

- بل أعرف كل شىء.

فقالت فى صبر نافذ :

- ماذا أفعل الآن؟ إنى فى وضع حرج، أشعر أن مهمتى هنا قد انتهت بعد أن عاد رئيس التحرير إلى مكتبه، وخرج من المستشفى.

- ولماذا هذا الظن؟؟

- كيف أعمل معه؟ وبأى وجه ألقاه بعدما حدث بينى وبينه؟ لقد كنت السبب فى الأزمة التى كادت تودى بحياته.

- بل كان هو السبب .

- افهمنى . . إن مجر وجودى معه يذكره بالمأساة، وتجاهل الأمر كلية لا يكفى، وأظن أنه لم يعد فى حاجة إلىّ كسكرتيرة خاصة بعد أن انتهى الدافع الأصلى، أعنى بعد أن فشل موضوع زواجه منى، وتدهورت صحته . .

وصمتت صفاء، وأخذ ضياء يعمل فكره فى عمق، ليست المسألة بالبساطة التى يتصورها فعلاً، إن صفاء أبعد نظراً منه بالنسبة للمشكلة، من العسير أن تواصل عملها مع الرئيس، تلك حقيقة لا تنكر، ووضع ضياء الدين هو الآخر وضع شائك ينذر بالخطر بعد الصدام الذى نشب بينه وبين وزير المواصلات عثمان باشا، الحكومة غير راضية عنه بعد أن كتب معلقًا فى حادث الانفجار الذى هز أرجاء النادى ليلة عيد الميلاد، وهز كرسى الوزارة تحت صدقى، والباشا غير راضٍ عنه بعد أن تعرض له بالسخرية والتشنيع عقب مشروع الرى والصرف والطريق الزراعى، ونقطة أخرى جديرة بالاعتبار، لقد استطاع بركات الداهية أن يتصل بالطبيب المعالج، وبرئيس التحرير وهو فى سرير المرض، ويعلم السبب الحقيقى لأزمة المرض التى دهمت رئيس التحرير فجأة، فلم يتوانَ عن التصريح لرئيس التحرير بأن صفاء وضياء الدين يعيشان فى قصة حب خفية مريبة، ولا يفكران إلا فى متعهما واستغلال

عملهما الصحفى فى ابتزاز الأموال الحرام، والتحريض فى أفكار هدامة تضر بالجريدة وسمعتها، ليخدما أغراضهما الشخصية . . إن ضياء يعرف ذلك، بل إن كل محررى الدار يعرفونه، لأن بركات لا يخفى شيئًا، بل يجاهر بعدائه . . ويفتخر بالمقالب التى يدبرها لمن يكرههم، دون حياء أو خجل، ولم لا؟؟ إنه السكرتير الصحفى لمعالى عثمان باشا، والباشا لا يضن عليه بالمال والحماية فهو سفيره وجاسوسه، وكلبه الأمين المطيع، وقلمه السيال الذى يتغنى بمجده، وينشر محامده ومحامد زوجته فى الآفاق.

وأدركت صفاء ما يعانيه الدكتور ضياء الدين من كرب فقالت بانفعال :

- لم يعد لنا مجال هنا.

- أتعتقدين هذا حقًا؟

- بالنسبة لى على الأقل . .

فقال وهو يبتسم فى مرارة مكتئبة :

- بل أنا أسوأ منك وضعًا . .

- ربما . . لكن ما العمل؟؟

- وأين نذهب يا عزيزتى بعد الاستقالة؟

- نذهب إلى . . إلى . . لا أدرى .

ووضح -بما لا يدع مجالاً للشك- أن المصير غامض، والمستقبل مخيف محزن، إذ ليس لهما مكان يأويان إليه غير الشارع . . بل الشوارع الكثيرة التى تلتقى وتتنافر فى القاهرة، وتكتظ بالآلاف العاطلين الباحثين عن لقمة العيش، بعد أن فقدوا العون، وضلوا النصير . .

وتمتم ضياء :

- إنها مغامرة .

- لكننا مرغمون . .

- والأسرة التى تعولينها .

وصحت صفاء من أحلامها الثائرة على الحقيقة التعسة فى أول الشهر يجب أن تدفع إيجار الشقة، وحساب البقال والجزار والكواء والنور، وتشترى لأبيها القهوة والدخان وبعض العقاقير، وتنفق أيضًا على نفسها، ولم يخف على ضياء الدين ما تعانيه المسكينة، ولذا قال :

- ولماذا لا نبحث عن حل وسط؟ .

فقالت وكأنها تنتظر العثور على شىء قد افتقدته وطال بحثها عنه .

- وما هو؟

- التفاهم . . التفاهم مع رئيس التحرير على أن ينقلك إلى «الأرشيف» حيث لا تكتبين المقالات، ولا تثيرين الزوابع، وفى الوقت نفسه يستطيع أن يبحث لنفسه عن سكرتيرة خاصة أخرى، على شرط ألا تكون جميلة.

فاغتصبت صفاء ابتسامة واهنة وهى تقول:

- وأنت؟؟

- أنا؟؟ أتحول إلى «بصمجى» من جديد، وأضع قلمى وأوراقى درج المكتب وأغلقه بالمفتاح . . أسجنها كمثات المسجونين خلف الأسوار، ومن حسن الحظ أن الأوراق والأقلام لن تشكو من سجنها، أو تتمرد على سجانها . . أليس هذا أفضل بكثير من أيام زمان؟لعلك تذكرين ما قلته لك ذات يوم . . كنت فى بداية حياتى الصحفية لا أجد الفرصة لنشر مقالاتى، وكنت مؤمنًا بها واثقًا من أهميتها وتأثيرها، وفجأة طلب منى «أحد الكبار» مقالة عن موضوع معين فأسرعت بتدبيجها على أروع وجه، وفوجئت فى اليوم التالى بمقالتى فى صدر الصحيفة . . لكنى يا للخسارة!! لقد كانت ممهورة باسم الرجل «الكبير» الذى طلبها منى، وثارت الدماء فى عروقى، وذهبت إليه فابتسم فى رقة ودس فى يدى جنيهين

وأفهمنى أن المسألة بسيطة . . وشائعة فى كل الصحف . . المهم أن مقالتى بحذافيرها وقرأها الناس وانفعلوا بها، وأخذوا يعلقون عليها . . والثناء كله كان له هو . . وليس للجندى المجهول غير السعادة . . سعادته بأن يقرأ الناس له، ويثنون على أفكاره الناضجة . . والآن لم أعد أبيع الكلمات الشريفة . . إنها جزء من كيانى وروحى، وحينما أبيعها أبيع روحى وكيانى . . خير ألا أكتب على الإطلاق من أن يكون قلمى أجيرًا أو عبدًا مثل التعساء الذين يشتغلون فى عزبة معالى الباشا .

***

لم يحاول ضياء الدين أن ينفذ ما اتفق عليه بالنسبة للعمل فى الجريدة، لقد فكر -هو وصفاء- من جديد، وأيقنا أن العاصفة سوف تجتاحهما حتمًا، وتلقى بهما إلى الشارع، ومحاولة الهروب من هذه الحقيقة عبث ضائع، ومحاولات يائسة لا طائل تحتها فلماذا لا يذهبان إلى رئيس التحرير فى كبرياء وشموخ، ولا يمنحانه فرصة للتشفى والإذلال، ويقولان له : «نحن نقدم استقالتنا . . ولك الشكر»؟الاستقالة أشرف من الطرد وحتى الطرد نفسه أشرف من «بركات» الذئب . .

واتفقا على أن يحاول هو أن يفتتح مكتبًا للمحاماة، ويتفرغ له وللاستشارات القانونية، أما صفاء فقد عزمت على أن تطرق باب شركة كبيرة، وتطلب فيها عملاً كتابيًا وخاصة أنها تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة، وسوف يساعدها فى ذلك بعض من تعرف من الشخصيات المرموقة التى تثق فيها بعض الثقة.

***

وذهل رئيس التحرير وهو يقرأ استقالتيهما.. طوفان من المشاعر الخجلة الجريحة غمر روحه، وإحساس بالأسى والحزن لمس شغاف قلبه، ورفع الرجل وجهًا شاحبًا غاض منه الكثير من بريق الحياة، وهمس وهو يغالب ألمه:

- ما هذا الذى تفعلان..؟

فرد ضياء الدين متمالكًا أعصابه، محاولاً الظهور بمظهر الهدوء المعتاد:

- الاستقالة..

- أنا لم أفكر فى هذا. أنت.. ابنتى يا صفاء.. وأنت ابنى يا ضياء.. أليس من الجحود أن تتمردا.. على أبيكما المريض؟ إننا نبدأ عهدًا جديدًا، وعفا الله عما سلف، وسأترك لحكمتك وعقلك وتقديرك للمسئولية، حرية التصرف فى أمر الجريدة منذ الآن يا دكتور ضياء.. خذا هذه الأوراق.. يجب أن تمزقاها..

فقال ضياء وقد غلبه شعور بالعطف نحو الرجل العجوز المريض الذى يعبر عن اعتذاره بنظراته ودموعه وشحوبه :

- لكننا جلبنا لك كثيراً من المتاعب . .

- لكنى فخور بكما مع ذلك . .

- ووجودنا سيعرض الجريدة للخطر .

- لا عليكما . .

وفكر الثلاثة ، لسوف يثور عثمان باشا ، وستشعل نار الحقد فى قلب بركات ، ولا شك أن الجريدة ستقاسى الكثير من الصعوبات المالية المصادرة وسخط الحكومة ، لكن رئيس التحرير كان سعيداً ، لأول مرة يحس أنه يفعل شيئًا كبيراً لا من أجل نفسه ، وإنما من أجل المبادئ السامية وجماهير الشعب المظلومة ، وحقوق الإنسان الضائعة فى سوق العبث ، ومسامر الكبار ، ومنتديات السهر الحمراء التى تعج بالضباط الإنجليز ورجال القصر والباشاوات . . وفكر ضياء هو الآخر ، سوف يقفون لكل كلمة يكتبها بالمرصاد ، ولن يقبلوا منه ولا من جريدته التحدى والتعريض بسياسة الحكومة والدستور المزيف وظلم الإقطاع فى أعماق الريف الصابر الحزين ، وسوف يستدعونه للتحقيق من آن لآخر ، ويقبضون عليه اليوم ليطلقوا سراحه غداً ، ليفعلوا ما شاءوا فما قدر يكون ، وليس من قضاء الله مهرب . . وفكرت صفاء . . لسوف تلاحقها الشائعات

من جديد، ولسوف يحيطونها هى وضياء بجو من الشك والريبة والأكاذيب، ويحاولون أن يحيلوا هدوءها إلى قلق، وسعادتها إلى شقاء، ويسرقون منها لحظات الهناءة والسعاد التى تحلم فى ظلها بالمستقبل الباسم لها ولشعبها المناضل، لكنها يجب أن تسير، وتطأ بأقدامها سفاسف الأمور، وتبصق على الشائعات والأراجيف ما دامت واثقة تمام الثقة من نقاء ضميرها، ونظافة سلوكها، وسلامة مبادئها.

وحنى كل منهما رأسه شكرًا لرئيس التحرير، ثم أدارا ظهريهما وخرجا. ولدى عتبة الباب جاءهما صوت الرجل يقول فى خفوت:

- وتأكدا أنه لا دخل فى علاقتكم الشخصية.. لأنكما - كما أومن- فوق الشك والريبة.

***

الأحداث الكبيرة تهز الناس هزًا عنيفًا، والمآسى تخلقهم من جديد، وتعيد تكوين عقائدهم ومثالياتهم، وتلقى لهم - برغم قسوتها- أضواء على الحياة ومفاهيمها الغامضة التى غلفها الزيف والغرور والجهل، المرض مثلاً، قلب رئيس التحرير قلبًا. وخلق منه إنسانًا نظيفًا يؤمن بالله والشعب والقيم الخالدة... هذا ما فكر فيه ضياء الدين وهو يسير إلى جوار صفاء.. ولم تفهم تمامًا ما قصده حين قال:

- لكم أتمنى أن يصاب صدقى باشا. . وغيره من الباشاوات بعلة خطرة ثم يشفوا منها. .

فقالت صفاء مداعبة وقد غمرها ابتهاج داخلى لانتهاء الأمور لهذا الحل المرضى:

- حرام عليك. .

- الإنسان لا يفيق لنفسه إلا على هزة عنيفة. . تمامًا مثلما يحدث لمرضى الأمراض العصبية، إنهم فى فرنسا كانوا يعطونهم صدمات كهربية فى رءوسهم فترعشهم، وتجعل كل عضلة فى أجسامهم تختلج، وبعد بضع جلسات يفيقون إلى نفوسهم، ويشفون تمامًا.

وهمت صفاء أن تقول شيئًا، لكن واحدًا من خدم الدار كان يأتى مهرولاً ناحية الدكتور ويقول لاهثًا:

- برقية يا دكتور ضياء.

- خير. .

قالها وهو يفض الغلاف بسرعة، ويقرأ:

- احضر حالاً للقرية. . نحن فى خطر.

أخوك

□□□

[١٨]

تساءلت صفاء وهى جالسة وحدها فى غرفة نومها، وغلالة رقيقة تستر جسدها، وأحلام حلوة منعشة تطوف بذهنها. . إلى متى يظل موقفه هكذا؟» لكم تخاف صفاء على الدكتور ضياء الدين أن ينسى نفسه، ويتجاهل رغباته الفردية، وأحلامه الخاصة كرجل. . كإنسان يريد أن يقيم لنفسه أسرة وكيانًا مستقلاً، إن صورة رئيس التحرير المريض الوحيد، المنطوى على نفسه فى «فيلا» صامتة موحشة كالقبر تزعجها وتبعث فى قلبها المشبوب الألم، أمن المعقول أن يكون ضياء مثله فى هذه الناحية مع الفارق الكبير بين خطتى كل منهما؟؟ هل ينسيه كفاحه من أجل قضايا الجماهير الكادحة، ومثله العليا الكبيرة، حقوقه كفرد، وشعرت صفاء أن أمره يهمها لدرجة كبيرة، وبدت هذه المشكلة تحت بصرها مشكلة جديدة تضاف إلى مشاكلها الخاصة، حقاً إنها أمر يتعلق بضياء وحده وهو حر التصرف فى مستقبله وآماله، وتفكير أكبر من أن

يجهل مثل هذه الحقائق المهمة . . لكن صفاء منزعجة، إن المسألة تتعلق بها هى الأخرى، لم تعد تستطيع أن تستغنى عن الرجل الذى أحبته وتغلغل حبه فى كل ذرة من كيانها وروحها، ولم تعد تتصور أنها ستكون لرجل سواه مهما كان هذا الرجل، من العسير عليها أن تغلق قلبها عن الرجل الذى غذاها بأفكاره النيرة المضيئة، وصنعها على مبادئه الرائعة، وعلمها كيف تخط الكلمة الشريفة، ونقلها من مجال الأقوال المجردة إلى دنيا الكفاح الفعل المثير، فصحت ذات يوم على حقيقة كبرى، وهى أنها أصبحت إنسانة تضع لبنة فى بناء الوطن المناضل، أصبح للحياة طعم ومذاق وقيمة، لكن إلى متى يظل هكذا صامتًا؟ أليس من اللياقة أن يرتبط معها بكلمة، أن يقول لها فى رقة :

- عزيزتى صفاء . . إنى أخطبك لنفسى . . فهل تقبلينني زوجًا؟

أية سعادة شائقة سوف تسكر روحها، وتهدهد قلبها وهى تستمع لتلك الكلمات السحرية، أو اللحن العذب الذى ينقلها إلى دنيا جميلة تفيض بالخير والجمال والمتعة، ليس جحودًا أن يحب ويتزوج ضياء، وليس انحرافًا وكفرانًا بالمبادئ أن تعيش صفاء فى هذا الحب النابض بالحرقة والشوق والأمل، ويوم يلتقيان روحًا وجسدًا، فسوف يزداد نفوسهما اطمئنانًا وثقة

وسعادة، وينطلقان معًا ضمن القافلة المناضلة يكتبان الكلمة الشريفة على صفحات الجرائد، ويطلقان الموت والأرق والقلق فى صدور الأعداء، وسوف ينجبان أطفالاً ودعاة برآء يتغنون بأنشودة الحرية والاستقلال ويترنمون بالمعارك المشرقة التى عاشها آباؤهم وأجدادهم، وتصب صفاء فى آذانهم عندما ينامون حكايات كثيرة عن رجل جبار أحب بلاده، اسمه عرابى. . وعن شاب صغير رقيق الجسم قوى الصوت ملأ الدنيا ضجيجًا فضح اللصوص، ومات فى ريعان الشباب اسمه مصطفى كامل. وعن نساء ورجال وصبيان واجهوا الموت أبطالاً لم يقعد بهم الضعف والهوان والفقر. واستبد بها شعور الأمومة، ورأت بعين الأحلام أطفالها الصغار يثيرون الضجيج، ويحطمون الأطباق والأكواب، ثم يشتبكون فى معارك صغيرة كثيرة، ولا يكفون عن العبث إلا بعد أن يداعب النوم أجفانهم الرقيقة الحلوة، فينبعث غطيطهم شجيًا عذبًا. يا لها من أحلام!! وتمادت فى أحلامها العجيبة فتصورتهم وهم يتشبثون بسترة أبيهم، ويلحون فى مصاحبته إلى الخارج وطلب النقود والحلوى منه، ثم يحاولون اختطاف أوراقه ويمزقون المقالات التى يكتبها، أو يعوقونه عن التفكير وإعداد مواد الجريدة، واستنامت لهذه الخواطر الجميلة. . ما أجمل أن يكون لها بيت مستقل وأولاد وزوج طيب نبيل يرعاهم،

ويحقق لهم الآمال التى يحلمون بها . . ولم تفق من رحلتها الخيالية إلا عند دخول أمها ومبادلتها تحية المساء . . وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث وبالطبع لم يفتهما ذكر الدكتور ضياء الدين فقد أصبح واحدًا من معارف الأسرة لزياراته النادرة، وورود اسمه على لسان صفاء من آن لآخر، ووجدت أمها الفرصة سانحة لتلقى ما بقلبها، فقالت :

- اسمحى لى أن أقول لك يا بنتى إنك كثيرة الشرود فى هذه الأيام، وتعيشين بيننا كالغريبة، منطوية على مشاكلك وخواطرك، الأم سر ابنتها، وأنت لم تشعرينى بهذا المعنى منذ أمد طويل.

وهمت صفاء أن تقول شيئًا، لكن أمها استطردت قائلة :

- أهناك ما يؤرقك؟

فقالت صفاء وهى تراوغ :

- ومن منا بلا مشاكل؟

- أية مشاكل تقصدين؟

- العمل الذى أعمل فيه . . إن الصحافة سوق كبير، مضاربات ومساومات، تختلط فيها الحسنات بالسيئات، ومجتمعها يضم الذئاب والملائكة، نحن يا أمى نجرى وراء

الأخبار، ونبحث عن الحقائق، نطرق كل باب، ونقابل أنماطًا متعددة من البشر، وتقابلنا السخافات الكثيرة . . هذه حياتى متاعب لا تنتهى، ومشاكل لا آخر لها، ومؤامرات فى الصباح والمساء، إنها مهمة الأرق والتضحيات والمتاعب، وخاصة فى هذه الأيام العصيبة .

ولم تكن أمها من الغباء بحيث يصرفها هذا الحديث اللبق عن جوهر الموضوع، ولذلك نظرت أمها إليها نظرة ذات معنى وهمت :

- أهذا ما فى الموضوع؟

- أجل .

فانطلقت أمها تقول فى صراحة تبعث على الخجل والارتباك :

- ألم تفكرى فى الزواج؟

فهتفت دون وعى :

- الزواج؟

- أجل . . هذا أمر طبيعى، هو منتهى أمل كل فتاة .

- لكن . .

- لكن ماذا؟ لن تعيشى راهبة، ليس هذا من طبيعتك، لو

زعمت أنك لا تفكرين فيه فستكونين إما كاذبة أو مريضة شاذة عن بنات جنسك . . وآلمتها هذه اللهجة الحاسمة من أمها، فأحست بشيء من الانقباض والإيذاء لشعورها، ولو قال أحد غير أمها مثل هذا الكلام، لألقمته حجرًا، وانهالت عليه تقريعًا ولومًا، وتمالكت صفاء أعصابها، والتزمت جانب الحكمة والصبر وهمست فى ألم:

- الزواج قسمة ونصيب، وأظن أنه لم يئن بالأوان بعد.

فقالت أمها غاضبة:

- ولم؟ أنت ذات جمال وفى ربيع عمرك؟ ولديك عمل يدر عليك مالاً، ونحن.. نحن لا نفكر فى مالك بقدر ما نفكر فى مستقبلك الذى يهمنا لأبعد مدى.

- ربما . . لكن ما شأنى أنا فى ذلك؟

- لقد رفضت ابن عمك . .

- لأنى أحس بنفور منه.

- ورفضت رئيس التحرير.

- لأنه فى مثل سن أبى . .

فصرخت أمها فى حنق:

- ورفضت الأستاذ بركات . .

- لأنى لا أستطيع أن أعيش مع ذئب . .

وجلل الغرفة صمت عاصف قلق، قطعته صفاء قائلة :

- مسألة زواجى تهمنى وحدى . .

- وتهمنا أيضًا يا بنتى .

- لكنها ليست «سلق بيض» . . من الصعب أن نرسم الطريق بعقولنا وحدها فى هذا الأمر الشائك، إن لعواطفنا دخلاً كبيرًا، وثوب عمتى الفضفاض لا يتناسب مع قوامى، لكل حال ما يوائمها، وأنا لا أكره الزواج ، بل أعتبره سترًا وحفاظًا للمرأة الصالحة التى تفهم رسالتها الخالدة فهمًا سليمًا، لكنى أريده زواجًا مناسبًا موفقًا، أشعر فى ظله بالسعادة والأمن، وينمو أولادى فى رحابه نموًا طبيعيًا لا تعقيد فيه ولا نفور . .

وتنهدت أمها فى ملل، وارتسم الضيق على وجهها، ثم دققت النظر فى وجه ابنتها وقذفت بالكلم التى ظلت طوال الوقت خجلة من النطق بها :

- وضياء الدين بك؟

وشمت فى عبارة أمها رائحة السخرية والعتاب، فغمغمت :

- ما شأنه؟

فقالت أمها وهى تحرك يديها ورأسها حركات تمثيلية متقنة تخفى وراءها معنى :

- شاب رقيق، متعلم، وذو مركز يحسد عليه. أخلاقه لا غبار عليها، ليس ذئبًا ولا فى سن أبيك لم ألحظ بينكما نفورًا، ولا أستطيع أن أشبهه بثوب عمتك الفضفاض.

وفى نبرة تنطق بالتحدى الخفى :

- هو كذلك فعلاً.

وأرادت أمها أن تنفجر، ترمى ابنتها بالطيش والتهاون، وتتهمها بالخيبة وسوء التصرف، أليس من العار أن تبقى هكذا بلا زواج ورفيقاتها الآن قد أنجبن أطفالاً؟ إن ابنتها فى نظرها متكاسلة، خجولة أكثر من اللازم، تتشبث بأفكار جوفاء، وثقافات مثبطة، لم تحاول مرة واحدة أن تغتنم فرصة، أو تصطاد لها زوجًا، وإذا حاولت الأم أن تقوم بهذا العمل المحرج نيابة عن ابنتها، اصطدمت بالصخرة العاتية، إن رأى الابنة وميولها وحقها فى الرفض والقبول معوق كبير لكل ما بذلته من جهود، ودبرته من حيل، وكانت الأم تبحث دائمًا عن السبب الحقيقى الذى يتربص بزواج ابنتها الدوائر، ويمنع حلمها من أن يتحقق، ويقف حجر عثرة فى سبيل الانتهاء من هذا الشكل، وتمتمت الأم :

- لست غبية . . إنى أنظر فى عينيك فأعرف كل شىء . . وضياء الدين هو الحاجز الذى يفصل بينك وبين جنة الزواج الموعودة. إنك تحبينه ولا شىء غير ذلك، نحن لا نعترض، بل إننا سنكون فخورين به، لكنه يتوانى ويماطل ويلتزم الصمت المطبق، لماذا لا يتكلم، لو كان يحبك فعلاً ويغار عليك لأسرع بطلب يدك مخافة أن يسبقه أحد . . صدقينى إن أمره محير، وقلبى تتناوشه الهواجس والهموم . . إنه لا يتزوج ولا يدع غيره يتزوج .

فقالت صفاء وكأنها تتوسل إليها :

- أمى . . لندع هذا الموضوع الآن . إنه أشد اتصافًا بى من أى إنسان آخر وأستطيع أن أطرق فى الوقت الذى أراه .

- إنك ترفضين أى تدخل منا، وكأننا إنجليز .

وهمست صفاء وهى تدارى انفعالها :

- معذرة . . أنا حرة فى خصوصياتى .

- حرة؟؟

- أجل .

- هذه كلمة كبيرة، وضياء يزورنا من آن لآخر، ويجلس معك ويتبسط فى الحديث، والعيون الفضولية تنظر إليه من

خلف زجاج النوافذ وطالبو الزواج قد فروا . . أنت حرة؟؟ يا للفضيحة!!

وانتزعت الأم نفسها، وولت نافرة، وقلبها يطفح ألمًا وأسى . .

وبقيت صفاء وحدها حيث الصمت والوحدة وذكريات المسافر إلى قريته، ترى متى يعود؟ لشد ما تشعر بالوحشة والفراغ بعيدًا عنه!! إنها تحبه بلا شك، وتعشق نضاله ومغامراته الخطرة، وتعشق قلبه الكبير الذى يرجح ذهب الدنيا بأسرها . . وشعرت بلذعات الندم تلهب ضميرها، إنها تعترف بينها وبين نفسها أن كلمات أمها الصريحة الثائرة قد صادفت هوى فى نفسها وإن لم تقر لها بذلك، أجل . . يجب أن يتحرك ضياء، وأن يمد يده طالبًا الزواج لينشلها من الأرق والانتظار، ويخلص أسرتها من القلق والمرارة والخوف من المستقبل ، وعادت إلى ذهنها الكلمة الخطيرة التى أفلتت منها . . أنا حرة . . هل هى حرة حقيقة؟ هل تستطيع أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء؟ لو كانت كذلك لواجهت ضياء الدين بالحقيقة، وطلبت منه فى صراحة أن يقرر ما إذا كان سيتزوجها أم لا ، يبدو أن الحرية التى تتشدق بها مجرد قضية تحتاج لدلائل وإثباتات .

وناوشها خاطر مزعج . . ترى ماذا يقول ضياء عندما تواجهه بصراحة وتطلب رأيه فى هذا المسألة الشائكة؟ هل يظن أنها تطلب منه الثمن، ثمن الانضمام إلى تشكيلهم السرى، وثمن التضحيات التى قدمتها حينما عرضت نفسها للموت أو السجن ليلة عيد الميلاد؟؟ لا . . لا إنها أكبر من ذلك، وان تعرض صداقتها وتضحيتها فى سوق العبيد، لئن تزوجها، فذلك غاية المنى، ومنتهى السعادة، وإن ظل صامتًا فستبقى هى على وفائها لقضية وطنها الكبرى، محتفظة له فى قلبها بأعظم الذكريات، معترفة له بالجميل، لأن حبه فى قلبها لا يموت أبدًا، فهو خالد خلود الوطن والكفاح والمبادئ العالية . .

وغدًا تذهب لأمها، وتغمر وجهها بقبلات الحب والاعتذار، وتمسح عن قلبها الأبيض الطاهر كل ما علق به من حزن وألم بسبب تلك المناقشات الحادة، ولن يغيض ينبوع الحنان الأبدى فى قلب أمها الكبير الذى يتسع للكثير من طيش الأبناء وحدتهم وتمردهم.

□□□

[١٩]

أقسم «سلطان» ناظر عزبة الباشا ألا يفيد أهل القرية والكفور المجاورة بمليم واحد، ولن يتيح الفرصة لواحد منهم- كائنًا من كان- أن يجد عملاً فى الفدادين الشاسعة كى يحصل على قوته، وقوت عياله، وشعر فقراء القرية والمتعطلون فيها أن هذا قرار جائر، يسبب لهم مزيدًا من التعاسة والفقر، لقد كانوا يعملون فى أرض الباشا من مطلع الشمس إلى مغربها، مقابل قروش قليلة لا تكاد تفى بالحد الأدنى من مطالبهم، لكن شيئًا- على أى حال- أحسن من لا شىء، وكأن سلطان لم يكفه ما هم فيه من فاقة، وما يقاسونه من ذل الفلاح العامل دون أن يملك شبرًا واحدًا فى الأرض التى يفلحها ويسقيها بعرقه وطاقته ونور عينيه، ولم يكفه أيضًا الاستغلال البشع والأجور التافهة التى يعطيها لهم وكأنها صدقة وإحسان وليست ثمنًا لجهودهم المبذولة فى سخاء . .

كان سلطان حانقًا أشد الحنق، فقد دهم بعض اللصوص

حقول القطن التى يمتلكها الباشا وسرقوا منها كمية صغيرة لا تزيد على نصف قنطار، ومع أن رجال الباشا وخفراءه قد أطلقوا الرصاص على اللصوص وقتلوا منهم واحدًا، وأصيب البعض بجراح، والباقون أخذوا تحت وابل السياط إلى سجن المركز، مع هذا كله فقد ملأ سلطان القرية تهديدًا، وأقسم أن يقطع اليد التى تمتد إلى حقول الباشا، ويحطم الرأس الذى يرتفع أمامه فى احتجاج وتمرد، ثم أرسل رجاله إلى البلاد النائية ليجلبوا «التراحيل» كى يعملوا فى جمع القطن، وفلاحة أراضى العزبة.

ولم يكن سلطان قد نسى بعد أن بعض الفلاحين.. أصحاب الملكيات الصغيرة- قد تقدموا بعرائض والتماسات للمسئولين كى يعيدوا النظر فى أمر مشروع الصرف والرى والطريق الزراعى، وظن سلطان أن هذا التصرف تمرد على إرادة الباشا، وطعنة موجهة إلى كبريائه هو، وسلطاته التى خولها له وضعه كناظر بعد أبيه للعزبة.. إن من الصفاقة وقلة الأدب أن يحاول أحد أن يشكو الباشا أو يعترض على تصرفاته، حتى لكأن مجرد الشكوى- وهى حق مكفول للجميع- أمر خارج على الطاعة والنظام وكرامة صاحب القصر والأرض، لم ينسَ سلطان هذه الحادثة برغم أنها لم تقدم أو تأخر، ولم تغير من الواقع المرير فى شىء..

ونزل عمال «التراحيل» المنطقة فى ثيابهم المهلهلة الرثة، وأقدامهم الحافية المتشققة، وعلى وجوههم الشاحبة المغبرة آلام الغربة التعسة، وسمات الذل والضياع، وساقوهم كقطعان الأغنام إلى حظائر الماشية والخيول وأكواخ القش الهزيلة، وعلى ضفاف الترع الصغيرة، وبعض المساجد والزوايا، وكأنهم مخلفات أو بقايا بشرية ليس لهم سوق أو كرامة، وكل منهم يحمل جوالاً به أرغفة جافة وقليل من الملح، فيهم الأطفال والصغار الذين لا يكفون عن البكاء حتى فى أوقات العمل، وفيهم الصبايا اللاتى يدرجن إلى فجر الشباب المكتئب، الذى تغشى سماءه السحب الدكناء، وتلفه الأعاصير المتربة؛ وفيهم كهول سدت فى وجوههم سبل العيش، وأرهقهم الجوع؛ ودفعتهم الحاجة الملحة إلى هذه الضيعة الكبيرة؛ لعلهم يجدون فيها شيئًا من الطعام والقروش..

ولم تكن القرية راضية تمام الرضى عن قافله العبيد الحزينة التى جلبها سلطان ورجاله كوسيلة من وسائل الانتقام والتأديب للمتمردين، الذين يسرقون أرض الباشا ويعترضون على مشيئته، ويخذلونه فى الانتخابات، ويبتسمون فى وجهه، والثعابين الحاقدة تتلوى داخل قلوبهم، ونظر سلطان إلى الجيش الهزيل المحطم الذى غزا به العزبة، وشمخ بأنفه فى كبرياء، وأطلق ضحكة شيطانية، ثم قال:

- أنا سلطان . . والأجـــر على الله . . لو أردت أن أنقل «السيد البدوى» من طنطا إلى هنا لفعلت .

وجلس سلطان جوار جذع شجرة جميز عتيقة ، ثم أخرج علبته الصفيحية الصدئة وبها كمية متكدسة من الدخان وقطعة كبيرة من الحشيش ، وأخذ يسحق قطعة الحشيش حتى حولها إلى ما يشبه الرماد ، وخلطها بالدخان ، واستمر يلف السجائر فى سعادة غامرة ، وإلى جواره شيخ الخفراء ، وقال وهو يجذب الأنفاس من اللفافة ، ويصعد الدخان الأزرق ذا الرائحة المميزة :

- الآن يعرف هؤلاء الأوباش من أنا؟! أتسرق أرض الباشا فى عهدى؟؟ يا للعار!!

فرد شيخ الخفراء وهو يغالب خوفه وارتباكه :

- الحاجة والجوع هما اللذان دفعاهم إلى السرقة :

- أتلتمس لهم المعاذير؟؟

- كلا ، ما قصدت ذلك . . أعنى أنهم مساكين . .

- يا شيخ الخفراء ، تلك بداية سيئة منهم ، أنا أعرف أن هؤلاء المجرمين قلوبهم عفنة ، ومهما أعطيتهم فلن يدينوا لك بالولاء والمحبة ، لأنهم يكرهون كل صاحب نعمة . .

فقال شيخ الخفراء فى عاطفة جياشة :

- لا أراك الله الفقر، والجوع كافر، والمعدة لا ترحم، والأجور قليلة، ماذا يفعل الرجل منهم بقرشين وله زوجة وأولاد، ليتك تراهم يأكلون كيزان الذرة الخضراء قبل أن ينضج . . كان أبوك- عافاه الله- يرفق بهم ويحاول أن يمد يد العون لهم فى السر دون علم الباشا . .

فأشعل سلطان سيجارة أخرى وصرخ فى حنق :

- ماذا كانت النتيجة؟؟

- كلهم يذكرونه بالخير حتى الآن . .

فقهقه سلطان وقال ساخرًا :

- كلهم يذكرونه بالخير . . يا فرحتى!! وما جدوى ذلك؟ فليذكروه بالخير أو الشر، هذا لا يهم، المهم أنهم غدروا به، لم يكفوا عن السرقة، ولم يحاولوا مساعدته فى الانتخاب الماضى، فوقع أبى فى ورطة أودت به، كان أبى أبله ساذجًا . قد أفسد عقله بترهات الشيخ الشاذلى، ونصائحه الخاسرة، إن الباشا قد ائتمننا على أملاكه وأمواله، ومن العار أن نفرط قيد شعرة فى إدارتها، وتصريف أمور هذه الضياع الشاسعة يحتاج لمزيد من الحزم والقسوة . . أقسم لك يا شيخ الخفراء لو ملأ الباشا جيوبهم بالذهب لظلوا على نقمتهم ولصوصيتهم . .

فقال شيخ الخفراء فيما يشبه الهمس :

- أنت شيء، والباشا شيء آخر، أنت فلاح مثلهم، تعرف آلامهم وأحزانهم . .

- هذا كلام خاطئ . . الباشا وأنا كيان واحد . . أنا ذراعه وعصاه وأوامره . .

وسادت فترة صمت قال سلطان بعدها، وعيناه تقدحان بالشرر :

- ما هذا الذى تقول؟؟ إن كلامك هذا ينطوى على الخيانة والغدر بمصالح الرجل ألذى وثق فيك وجعلك شيخًا لخفرائه، وجعل لك مرتبًا ثابتًا، ووهبك مركزًا تحسد عليه، يتحرق الناس إلى مثله شوقًا . . هل جننت يا شيخ الخفراء؟

فأسرع الرجل قائلاً فى انزعاج :

- ما قصدت ذلك، وإنما عنيت أن اللين وحسن السياسة والدهاء تجدى مع هؤلاء، ولن تكبدنا دمًا ولا خسائر . .

- بل تلك وسيلة الضعفاء والجبناء، وحاشا لسلطان أن يكون كذلك . .

- ربما . .

- تلك حقيقة . . يؤسفنى أن أقول إنك ضعيف . . و خائن . . فأجاب شيخ الخفراء وقد تبللت عيناه بالدموع :

- حرام عليك يا سلطان . . إن ما قلته مجرد رأى لا يرتبط بأية حال من الأحوال بالسياسة التى تأمرنا بها وننفذها على الفور، أنسيت أنى ورجالى قد أطلقنا الرصاص على اللصوص وقتلنا أحدهم، وجرحنا البعض وأمسكنا بالباقين وأودعناهم السجون؟ . .

وخفت حدة توتر «سلطان»، وانفرجت أساريره، وربت على كتف شيخ الخفراء، وتمتم فى نشوة عارمة، وعيناه تنظران إلى بعيد :

- الحشيش لذيذ . . لذيذ جدًا يا شيخ الخفراء . . على الطلاق من امرأتى لتدخنن واحدة . .

- لكنى لا أتعاطاه . .

- لكن اليمين صدر . .

- أمرك . .

وتوقف سلطان عن الحركة والحديث، ونسى تمامًا السيجارة المعبأة بالحشيش والتبغ، ونسى يمين الطلاق الذى صدر منه، ويد شيخ الخفراء الممتدة نحوه فى انتظارها، وصفر سلطان ذاهلاً، وهتف بأعلى صوته :

- تعالى يا بنت . .

وأقبلت الفتاة تتعثر فى ارتباكها وخجلها، وحاولت أن تحجب وجهها بشالها الأسود البالى، ووقفت أمام سلطان مطأطئة الرأس، دون أن تتكلم، وهتف سلطان فى غضب مفتعل:

- ما الذى جعلك تتركين العمل وتأتين إلى هنا . . ؟

- جئت لأملأ القلة من الترعة . .

- أما كان فى وسعك أن تنتظرى حتى ينتهى العمل . . ؟

فقالت بصوت باكٍ:

- شعرت بالعطش الشديد . . والجو حار . .

- ابعدى هذا الشال عن وجهك . .

ففعلت وهى تغالب الدموع فى عينيها، وتغالب الخجل الذى سيطر عليها، والتفت سلطان إلى شيخ الخفراء وقال:

- اذهب أنت . . لتشدد الحراسة على أكياس القطن، ولتوصى الخفراء بأن يفتحوا عيونهم، لو فقد فص قطن واحد فأنت المسئول . .

ومضى شيخ الخفراء فى طريقه المترب الملتوى، ودلف وسط أشجار القطن العارية من الذهب الأبيض، والشمس تتوسط السماء، وترسل أشعتها الحارقة فوق وجهه وقفاه،

وحصى الأرض ساخن يكوى قدميه، مذيب ينغز فيها ويشعره بالألم الذى يحاول ألا يبالى به، وما إن ابتعد حتى ابتسم سلطان، ورفع عينيه إلى الفتاة الواقفة أمامه، الشمس قد لوحت بشرتها البيضاء وصبغتها بسمرة فاتنة، والحرارة كأنما قد تكومت فوق خديها، فجعلتهما فى حمرة الدم وعيناها- برغم الفقر والنحول والتعب- تتحدثان حديث البراءة والفتنة والجمال، وقدماها الصغيرتان الدقيقتان- برغم الحفاء والوحل- تثيران فى نفسه المشتهية الجائعة إلى الحرام مشاعر تمزقه.. تلهب كيانه، والوهم الكبير الذى خلفه تعاطى الحشيش أنساه كل معنى إنسانى، وهمس فى رقة:

- ما اسمك يا عروسة..؟

- خدامتك نجية عبد السلام..

- وبلدك يا حلوة؟؟

- كفر العرب مركز زفتى..

- بلد الغوازى..

- أجل.. نحن ملاصقون لسنباط..

وغمز بإحدى عينيه، وابتسم ابتسامة عريضة، وأخذ يعبث بشاربه ويغنى بصوت أجش:

قالوا منين القوابل قلت سنباطى

يا وله . . يا وله . .

ثم قال وهو يشمخ بأنفه من جديد :

- أتعرفين من أنا؟؟

فقالت وهى ترتعش خوفًا :

- نعم . . حضرة الناظر . . سى سلطان . .

- شاطره . . لكن لماذا ترتعدين هكذا؟؟ هل اسم «سلطان» يبعث الذعر فى نفوسكم جميعًا؟؟

- والنبى كنت عطشانة . . وسأرجع للعمل فورًا . . لن ترانى عند الترعة مرة أخرى . .

فضحك بصوت عالٍ، وغمغم :

- لا تخافى . . إن «سلطان» ليس كما صوروه لك، أنا إنسان رقيق . . مؤدب وقلبى كبير . . كبير جدًا . . وأحب البنات الحلوة . . مجرد ذكر اسم سنباط والغوازى يجعلنى أشبه بالسكران . . يثير فى نفسى شيئًا يشبه النار . . النار اللذيذة . .

ولم يفق من أحلامه إلا على صوت شهقاتها التى تحاول جاهدة أن تكتمها دون جدوى :

- مـا هذا ؟ أتبكين؟ لا تخـافى يا حلوة . . سلطان ليس مـخيـفًـا لهـذا الحـد ، وأنـا لا أخـيف إلا اللصـوص والأوباش والمتغطرسين . . اجلسى . . اجلسى إلى جوارى ولا تنزعجى ، أعدك بشرفى أنه لن يمسك أحد بأذى ، ولن ترهقى فى العمل ، وستحسين أنك لست غريبة . . بل واحدة من أهل الناحية . . هذا الجمال لا يصح أن تحرقه الشمس ، ويذبله العمل المرهق المضنى ، وأنا فى حاجة إليك ، زوجتى مريضة ، وأبحث بينكن عمن تخدمها وتخدمنى . .

وجلست إلى جواره- حسب الأوامر- صامتة مرتجفة ، لم تستطع كلماته الرقيقة الهادئة أن تبعث فى قلبها طمأنينة ، أو تسكب فى فؤادها أمنًا ، شعور بالخوف أكد لها أنها فريسة صغيرة ضعيفة أمام وحش كاسر ، أصابعه ومخالبه تقبض على العزبة ورجالها وعمالها وقراها بيد من حديد ، ومن العسير أن يفلت أحد من قبضته الحديدية المخيفة ، وهى بنت الستة عشر ربيعًا غريبة . . وحيدة . . ذليلة ، تجلس إلى جوار سلطان الجبار الذى تفوح من فمه رائحة الحشيش . .

ولمح عمال الترحيلة حضرة الناظر سلطان وهو يتخطر نحو بيته ، ويطوح بعصاه الخيزران فى الهواء ، وطاقيته الصوفية مائلة جهة اليمين ، ومن خلفه شبح أسود يتبعه مطأطئ الرأس ، وتناقلت الأفواه المنحنية اسم نجية عبد السلام ، بنت

كفر العرب بلد الغوازى، ولم يحاول واحد أو واحدة منهم أن ترفع رأسها، فقد كانت أيديهم تتسابق إلى جمع لوزات القطن المتفتح مخافة أن تهوى الكرابيج والحبال المجدولة فوق ظهورهم المنحنية.

وساد القرية وجوم، وفاحت رائحة الفضيحة، وكانت زوجة سلطان المريضة التى نهشت قلبها الغيرة، هى التى أطلقت الشائعات، وكشفت أوراق زوجها العربيد، ومع ذلك لم يحنِ سلطان رأسه، إنه يجاهر حتى بالرذيلة ويتمادى فى كبريائه وخطئه، لأن المداراة والدهاء، والاعتراف بالخطأ كلها مظهر من مظاهر الضعف لا يليق بالرجال ولا يليق بسلطان، وبقيت نجية عبد السلام أسيرة فى بيته، فى نفس المكان الذى يعيش فيه عياله وزوجته، ونجية الضحية التعسة لا تكف عن البكاء، وسلطان الغادر يهمس فى أذنها: «لا عليك.. لا تفكرى فى شىء.. لقد وعدتك بالزواج، ولسوف أتزوجك، هذه الألسن التى تنهش فى سمعتى سوف ترينها مقطوعة لتلتقطها كلاب العزبة، وزوجتى هذه المأفونة سأعرف كيف أحرق قلبها، وأذيقها العذاب..» ونجية أضعف من أن تثور أو تهرب أو تشكو بعد أن فقدت شرفها، لم يكن لديها وسيلة سوى الدموع تذرفها فى محضره وفى غيابه، والمسكينة تنظر إلى المستقبل فى خوف وحذر، لا أمل لها سوى أن يتزوجها

سلطان، وسلطان لا يكذب إنه يرق ويرفق بها، ويقدم لها كل ما تحتاجه، محال أن يغدر!! وكيف يغدر!! إنها لا تتصور نفسها وهى تسير فى طريق الوحدة والألم متجهة صوب كفر العرب، حاملة على رأسها العار والذل والضياع، زميلاتها سوف يتحدثن عندما يعدن إلى أهليهن، وقصة الناظر ونجية سوف تطرق كل مسمع.. من المستحيل أن يتركها ويتخلى عنها، لأنه لو فعل ذلك فستكون حياتها قد انتهت، ليتها ماتت قبل أن تسلم نفسها له.. لكنها لم تكن مستطيعة أن تعصيه، كان قويًا منتصرًا دائمًا، وهى لم تعرف فى حياتها غير التراحيل والوسايا وآلام الغرباء، ماتت فى نفسها من زمن بعيد قوة الاعتراض، وغريزة التمرد، فهى أجيرة دائمًا، تبيع أيامها وجهدها بالقروش، وتخاف اليوم الذى لا يأتيها فيه القرش، وأورثها الخوف حرصًا زائدًا على الحصول على القروش.. فهى تطيع سادتها ورؤساءها، أحيانًا تتردد وتتمنع لكنها سرعان ما تنهار أمام القوة والتهديد، والإغراء.. شىء واحد لم يزل حياً.. الأمل..

وفوجئ «سلطان» ذات يوم بخبر أزعجه أيما إزعاج!!

لقد جاءه الخولى وهمس فى أذنه:

- نصف عمال الترحيلة هربوا..

- كيف؟؟

- هذا ما حدث بعد أن تسلموا أجرهم الأسبوعى . .

وصرخ سلطان فى وجهه :

- وأين كنتم؟؟

- تسللوا تحت جنح الظلام . .

ولم يكن غامضًا لدى سلطان حقيقة الموقف، لقد شكا العمال من تناقص الأجر المتفق عليه يومًا بعد يوم، وشكوا من العمل المستمر والإرهاق المتصل كانوا يتناولون طعامهم وهم يجمعون القطن، ولا يستطيع أحد أن يذهب إلى الترعة ويشرب، والحبال المجدولة تهوى على ظهورهم من آن لآخر دون سبب، وأخيرًا الحادثة المروعة التى أرهبت النساء والفتيات، وملأت نفوس الرجال بالتقزز والنفور . . إن مأساة نجية عبد السلام بثت الرعب والأسى بين الأجساد الضامرة التى تنام تحت أسقف المساجد وفى الأكواخ المتهالكة، وعلى شواطئ الترع المكشوفة، وسيطر الرعب على الجميع، وما جاء آخر الأسبوع وتسلموا أجرهم، حتى شقوا طريقهم سيرًا على الأقدام فى اتجاهات متفرقة فى مجموعات صغيرة منهكة . .

وتمتم سلطان حانقًا :

- والحل؟؟

- لا بد أن تستدعى عمالاً آخرين. . الوقت ضيق، ولن تتمكن من جلبهم من خارج المنطقة، نحن مضطرون لأهل القرية. .

وصر سلطان على أسنانه، وضغط على الحروف وهو يقول:

- سلطان لا يهزم، ولا يقف فى طزيقه أحد. . إن أبى نفسه قد طردته من البلد. .

وبث سلطان رجاله فى أماكن كثيرة، ولم يعطهم مهلة غير يومين كى يعودوا بالعمال، وعلى الرغم منه رفع أجر العامل، وأعطى العمال فرصة للراحة والغذاء فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر، ومع ذلك فلم يكد ينتهى الأسبوع حتى اكتشف أن العمال الباقين قد هرب أغلبهم، ورجاله عادوا بعد يومين ومعهم عدد قليل من العمال لا يشفى غليله، وثارت فى قلبه مشاعر الهزيمة والكرامة الجريحة، والتفت إلى القرية الراقدة تحت وهج الشمس فى هدوء وبلادة وصاح:

- أيتها القرية الملعونة. . صبراً. . صبراً. .

واضطر سلطان اضطراراً إلى أن يذهب إلى القرية، ويسوق الرجال إلى حقول القطن لجمع المحصول الذى لم يتم جمعه،

لم يحاول مع ذلك أن يعترف بخطئه أو يقر بهزيمته، أو يرق فى حديثه حتى يتفادى الأزمة التى تأخذ بخناقه، كان واثقًا حتى الآن من قوته ونفوذه، لكن كم كانت دهشته عندما قابله الفلاحون بفتور غريب، وأظهروا زهدهم وتعففهم عن العمل معه فى أرض مولاه، كان يظن أنهم سوف يلعقون حذاءه كالكلاب، أو على الأقل يقبلون يديه لأنه سوف يفك ضيقهم، وينقذهم من التعطل والفراغ والفقر، لكنه سمع فى كل مكان: «نموت جوعًا ولا نتعاون مع الشيطان».

وهتف كالمجنون:

- هؤلاء الكلاب سوف أسوقهم سوق البقر..

وعاد إلى بيته حزينًا مكفهرًا، الأذلاء المحتقرون يظهرون بمظهر السادة، والأجراء الفقراء يتعالون وليس فى جيبهم مليم واحد، ولا فى خزائنهم لقمة عيش، ومع ذلك يرفضون العمل معه، وسمع سلطان نبرات حزينة ذليلة تهمس إلى جواره:

- كلهم ذهبوا..

- من؟؟..

- عمال الترحيلة..

- وما شأنك أنت يا بنت؟

- ألن تتزوجني؟

وهبت نجية عبد السلام فزعة على صوت ضحكاته الشيطانية:

- أتزوجك أنت؟

- ألم تعدني؟؟

- أنت مجنونة . .

- وأين أذهب يا سي سلطان؟

فأمسك بزندها في قسوة، وألسنة من اللهب تنبثق من عينيه، والرعب يملأ فؤادها الجريح، ثم جذبها إلى الخارج، ودفعها في غبشة الليل إلى المجهول وهو يقول في سخرية:

- هناك عند المنحنى تجدين طريقًا يحاذي أشجار الجازورينا، تستطيعين السير فيه . . ومن آن لآخر اسألي المارة فسوف يرشدونك عن الطريق الموصل إلى كفر العرب . .

ثم عاد وأغلق الباب، وما إن جلس حتى نسيه على الفور لم يكن يحتل ذهنه سوى صورة الهزيمة النكراء التي مني بها، كيف يجمع المحصول؟ وماذا يقول للباشا عن تأخره في ذلك؟

وكيف يرغم هؤلاء الفلاحين على الانصياع لأوامر والعمل فى أرض الباشا؟؟

ومشت نجية عبد السلام فى طريق أسود طويل، الليل صلد أصم كقلب الصخر، ونقيق ضفادع ينبعث من مستنقعات قريبة، وأشجار متوجة بالسواد تنتصب على جانبى الطريق كالأشباح المخيفة، «وكفر العرب» تلمع فى ذهنها على البعد بناسها وحيواناتهم وبيوتها، تلمع ثم تنطفئ كأمل يموت ملايين المرات، وحادثة مروعة عنها يرويها الرجال والنساء والصبايا.. عن نجية بنت عبد السلام التى عشقها ناظر عزبة عثمان باشا واحتجزها لنفسه، عن الفتاة التى لن تعود، أجل.. لن تعود فقد ماتت منذ أن خرجت من قريتها ضمن قافلة الترحيلة إلى بلاد لم تسمع بها، ولم تنزلها قط..

وشعرت نجية برأسها يدور، وبساقيها لا تكادان تحملانها، فانتحت جانبًا، ولمست يدها الباردة المرتجفة جذع نخلة عالية، فاتكأت عليها تلتقط أنفاسها اللاهثة، وتجفف الدموع التى تنفرط من عينيها دون أن تدرى، ودارت بعينها فيما حولها، حقول القطن تمتد إلى بعيد، والظلام يسد أمامها كل طريق، وكفر العرب، قرية الأحلام والطفولة تنام الآن.. وتحسست النخلة من جديد، وتحسست بطنها، وفى هدوء وذهول أخذت تتسلق النخلة، ثمرات البلح عالية هناك قرب السماء

وهى جائعة . . وحينما بلغت العناقيد الناعمة الملمس ، تلفتت فيما حولها من جديد ، هواء منعش يصفع وجهها ، لكن الظلام يطبق كظل شيطان قاس . لا مفر . ونظرت إلى المسافة الطويلة التى تفصل بينها وبين الأرض . ثم قذفت بنفسها . . وانتهت كإنسانة . . وإن ظل جسدها مطروحًا على الأرض ينزف دماء يسطر قصة مأساة دامية رهيبة . .

***

ولم تكد تمر ساعة أو بعض الساعة حتى انبعث الوهج فى السماء . وفاحت رائحة الحريق . . القرية تشتعل . . خفراء الباشا- بأمر من سلطان- بدءوا حملة انتقام من الفلاحين المتمردين الذين رفضوا العمل فى أرض الباشا . . واختلط صراخ الأطفال والنساء بنباح الكلاب وصفارات النجدة وظلت القرية تكافح النار حتى الفجر . . وساد الصمت وزحفت الجموع نحو بيت سلطان ولم يكن سلطان وحده . الرجال والكلاب والخفراء يقفون ببنادقهم . ووقعت المعركة الرهيبة التى كانت سببًا فى ضياع أرواح من الجانبين . وجعلت رجال الشرطة يفدون على عجل ويسيطرون على الموقف . .

***

وعندما وصل الدكتور ضياء الدين مع غروب اليوم التالى إلى القرية ، كان الجو الرهيب يوحى بالخطر ؛ وينطق بالكارثة ؛

قتلى وجرحى وبيوت محترقة ونجية عبد السلام جثة هامدة تحت النخلة؛ والنيابة تحقق وتبدى اهتماما بالغًا؛ لأن الأمر يهم عثمان باشا وهو ينتظر نتيجة التحقيق على أحر من الجمر؛ ويريد أن يعرف بأى ثمن أولئك الذين قتلوا سلطان ناظر عزبته وتمتم ضياء الدين:

- أحقًا مات السلطان.

- فجاءه صوت أخيه حانقًا:

- مات حقيرًا كالكلب القذر.. لقد دفنوا جثته قبل أن يدفنوا جثة ضحيته.

***

وصدرت جريدة النهضة العربية، وقد خصصت صفحتين كاملتين للمأساة، وعناوين مثيرة فى أعلى الصفحات.. الشيطان الذى أحال جنة الريف إلى جحيم.. العذراء الغريبة.. الإقطاع يبطش بالأبرياء.. أين الحرية والعدالة؟؟ وتخاطفت الأيدى فى شوارع القاهرة والمدن والأقاليم الصحيفة؛ بأسعار خيالية.. وأصبح الحديث عن ثورة الفلاحين فى عزبة عثمان باشا على كل لسان..

□□□

[٢٠]

عـاد ضـيـاء الدين من القـرية وقلبـه مـثـقل بحـزن عـمـيق، وبسـخط عـارم يفـقـده اتزانه وهدوءه، وبثـورة جارفة اجتـاحت كيانه كله فأعمته عن الصبر وتبصر الأخطار المحدقة التى ستنتج حتـمًـا عن تهـوره وكتـابة تحـقـيق صـحـفى صـادق عن الوضع التعس والسـاعات الحالكة التى قضتها القرية، وسار ضـياء فى طريقه إلى دار الجريدة ذاهلاً عن كل ما حوله وعن نفسه، ليس فى رأسـه غيـر صـورة بشـعـة لعـثـمـان باشـاً ويداه ملوثتـان بدم الأبرياء ودم سلطان، وصـورة الجنود والضـبـاط الإنجليـز وهم يتـرنحـون كـالسكارى الرقـعـاء فى شـوارع القـاهرة ومـيـادينهـا وملاهيها، وصورة الحفاة الجياع من أهل قريته، وهم بين أيدى المحققـين ورجـال الشـرطة، يخـاطبـونه بعـيـونهم، ويحـدثونه حديثًا صـامتًـا ضـارعًا لعله يأخذ بيدهم وهـم فى هذه الورطة التى غرقـوا فـيـهـا على الرغم منـهم، لقـد دفعـهم إليـهـا طغـيـان «سلطان» وتهـوره وحـمـاقـاتـه، ومـا إن بلغ دار الجـريدة حـتى

سارع بإعداد المواد والتحقيق الذى كتبه، ثم عاد إلى بيته متعبًا باكى القلب، لعله ينال قسطًا من الراحة، وقليلاً من النوم.

وقبل أن يدلف إلى داخل البيت، سمع عم محروس يقول:

- أهلاً.. أهلاً.. خير إن شاء الله..

وأطبق ضياء فاه، لم ينطق بكلمة واحدة، وبدا فى وقفته تلك حائرًا مرتبكًا. فأقبل نحوه محروس فى خطوات واجفة. وهمس:

- هل حدث شر لا قدر الله؟ كيف حال أخيك الحاج رضوان؟ ولما لم يجب ضياء لعبت برأس محروس الهواجس. واشتد شحوب وجهه وأمسك بيده وقال فى ضراعة:

- بربك.. كيف تركت الناس فى القرية؟

- تركتهم بين الدم والنار ورجال الشرطة..

وكأنما أحس الرجل الملهم بما حدث فصرخ وفى عينيه دموع.

- وسلطان؟

- احترق فى النار التى أشعلها.. قتلوه كما قتلهم.. اعذرنى يا محروس أفندى.. أعرف أنها مأساة كبرى دامية.

لكن . . لكن . . كيف أنقل إليك الأنباء؟ إنه لأمر محير . . وتهاوى الرجل إلى الأرض خائر القوى . وحاول ضياء أن يسنده . كان الشيخ ينهنه ولحيته ترتعش وتبللها الدموع : إنه يبكى لا من أجل سلطان الشرس الطاغية الذى عق أباه . وتنكر لقومه . وانصاع لإغراء الباشا حتى أورده موارد الموت . ولكنه يبكى سلطان الابن . سلطان الذى من لحمه ودمه . ويبكى أيضًا من أجل المصير السيىء . والذكرى البشعة التى خلفها ابنه فى قلوب خلق الله . . إن الله لا شك غاضب على ابنه . . والعصاة مأواهم نار جهنم . . .

وهمس ضياء وهو يربت على كتفه :

- أتبكى ؟؟

- إنه -مهما كان- ابنى . . . إنه من أهلى . .

- إنه ليس من أهلك . .

وخيل إلى محروس أن ما يسمعه ليس صوت ضياء ، ولكنه صوت الشيخ الشاذلى يحكى له قصة سيدنا نوح من واقع القرآن الكريم ، حينما تمرد ابنه عليه وانضم إلى الجاحدين والكافرين ، ولما أراد الله أن ينزل بالعصاة عذابه ، كانت فى نفسى نوح -عليه السلام- حاجة . إنه يحن إلى ابنه فجاءه قول

الله صريحًا حازمًا: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] وتمتم محروس وهو لم يزل يبكى:

- كان نوح نبيّاً أما أنا فبشر ضعيف، أحاول أن أصعد إلى السماء حيث الملائكة الأطهار، فيجذبنى إلى الأرض شىء خفى أو قوة خبيثة لا أعرف كنهها.

وقال ضياء وهو يعاونه على الوقوف:

- هون عليك، كلنا إلى زوال، ربما أراد الله له هذه الميتة كى يكفر عن خطاياه، لتغلق المحل ولتصعد معى إلى الشقة. غفر الله له..

فجاء صوت الرجل جريحًا منتحبًا:

- هل دفنوه؟

- أجل..

- وسار الناس فى جنازته؟

- بالطبع..

- مسكين يا ولدى، لم تكن فى وعيك، كنت طائشًا مغرورًا، تحلم بالمجد من أى طريق، استطاع الباشا أن يجعلك مطية لغدره، وجشعه كما فعل بجدك من قبل وكما حاول أن يفعل بأبيك، ليس الذنب ذنبك وإنما ذنب الوباء الأسود صاحب العزبة والقصر الكبير معالى الوزير..

وشعر ضياء بأن قلب الشيخ يتمزق، قد هدته الكارثة، وحطمه الخير المفزع لم يكن يتصور أن مصير ابنه سيكون الموت، لقد ظن أنه حتمًا سيفيق إلى نفسه فى لحظة من لحظات اليقظة الروحية، وينتبه ضميره إلى الحضيض الذى تدلى فيه، فيندم على عقوقه لأبيه، وتنكره للفلاحين من أهل قريته، ويثوب إلى رشده.. لكنه مات.. مات هكذا فجأة على هذه الصورة البشعة وانتهى الأمر.

- هيا لنصعد يا عم محروس..

- كلا..

- لِمَ؟

- لقد عزمت على الرحيل..

- إلى أين؟

- إلى قبر سلطان، يجب أن أبلل ثراه بالدموع، وأواسى امرأته، وأقبل أطفاله الأبرياء المساكين، ولسوف أعود، ويعلم الله متى أعود..

***

أما الباشا فقد جاءته الأنباء تترى، كانت مزعجة مثيرة، أثارت لديه الحنق والضيق، إن ما حدث تطور غريب من نوعه، لم يحدث فى تاريخ العزبة المديد أن تمرد الفلاحون على

هذه الصورة، وحملوا السلاح وهاجموا رجاله وقتلوا ناظر عزبته، كانوا يتلقون ضرباته وضربات رجاله من قبل دون أن يثوروا أو يرفعوا رءوسهم ، الصمت والتسليم والانزواء هى الردود التى يلجئون إليها عندما يعصف الغضب بالباشا ورجاله. أما أن يحدث هذا، وهو وزير مرموق، صاحب رأى وكلمة مسموعة، فهذا كثير.

وفكر الباشا، وبركان الغيظ يتفجر فى قلبه:

سلطان فى ستين داهية يموت الكلب يأتى كلب غيره.

الفلاحون الذين قتلوا.. ليذهبوا إلى الجحيم، إن موتهم أو حياتهم لا يؤبه له.

إن مركزه فى الوزارة سوف يهتز وخاصة لو تسرب الخبر إلى الصحف بل قد ترغمه على الاستقالة.. الباشا الآن لا يفكر إلا فى أمرين: الوزارة، ومستقبل العزبة، أما الدماء والحرائق والقلق والتوتر والمصائب التى حلت بالقرية فهى مسائل ثانوية لا أهمية لها..

وأمسك الباشا بسماعة التليفون، طالبًا مدير الغربية:

- أنا عثمان باشا وزير المواصلات، حوادث عزبتى قد أزعجتنى، يجب أن تنتقل إلى هناك بنفسك، إن تمرد الفلاحين بادرة شر ودلالة خطيرة، هناك أيد خبيثة تلعب فى

الخفاء، وهى التى دبرت الحادث، وسفكت الدماء، اقبضوا على أكبر عدد من الفلاحين، وانتزعوا منهم الاعترافات بأية صورة، وأجروا التحقيق بسرعة، إن مستقبل العزبة وأمنها فى خطر إذا لم تضربوا بيد من حديد وتعطوهم درسًا لا ينسونه. . وأنا فى انتظار النتيجة. . آلو. . اسمع سوف أتكلم مع وزير الداخلية فى الموضوع، وسوف يتصل بك فوراً.

وهدأت وساوس الباشا بعض الشىء بعد أن أكد المدير أن الأمور سوف تسير على ما يرام، وسوف يعود السلام إلى أرجاء المنطقة فى أقرب وقت، والشرطة لن تتوانى فى القبض على المحرضين والمشتبه فى أمرهم كى تضع يدها على الفاعل الحقيقى.

وأقبلت زوجة الباشا وهى فى أوج زينتها وقالت بنبرات مائعة:

- انظر ما رأيك فى هذا الفستان الجميل. . إنه من أحدث موديلات باريس.

- جميل. . جميل جدًا يا حبيبتى. .

- أؤكد لك يا عثمان أن هذا الفستان لم تلبسه امرأة فى القاهرة ولا فى قصر صاحب الجلالة.

- لا شك. . لا شك. .

- ستكون سهرة ممتعة جداً . . وسترفع رأسك عاليًا وأنت ترى زوجتك أجمل «وأشيك» سيدة الليلة .

وحانت منها التفاتة فرأت الكدر فى عينيه وعلى ملامح وجهه، فقالت :

- ماذا حدث؟

- قتلوا ناظر العزبة .

- من قتله؟

- الفلاحون .

- الفلاحون؟؟ ليس هذا معقولاً . . هذه الحيوانات لا يمكن أن تسىء إلى رجل من رجالك ، ولماذا لم يقتلهم هو؟

- هذا ما حدث . . قتل منهم ، وقتلوه وأصابوا بعض رجالنا . . .

وصمتت برهة ثم أخذت تدور وتنزلق بنظراتها المعجبة من كتفيها إلى زندها العارى ، وثوبها الأنيق ، ثم تتحسس شعرها وجواهرها ، وتتمايل وتلف وتدور أمام مرآة مثبتة فى الحائط ، ثم التفتت إلى زوجها قائلة :

- أليست هناك كلمة غزل واحدة تفتح بها نفسى ، يالقسوتك ! ! فيم تفكر ! إن ما حدث فى العزبة مجرد شىء لا

يؤبه له، ونحن لم نخسر شيئًا، تستطيع أن تعين ناظرًا جديدًا، وتأتى برجال آخرين، ثم تقذف بالمتمردين إلى السجن، وهذا كله لن يستغرق من وقتك أكثر من دقائق قليلة . . .

- باى . . باى . . سوف أسبقك إلى السهرة، وسآخذ معى بركات حتى تلحق بنا . .

وامتلأت خياشيم بركات بالروائح العطرية التى تفوح منها وهى جالسة إلى جواره فى العربة، وشم فيها رائحة الإثم الذى عاش فى أوحاله منذ جاء فى خدمة الباشا كسكرتير وصحفى ولم يستيقظ ضميره، بل تيقظت فيه مشاعر الحيوان المفترس الذى لا يفهم شيئًا عن القيم المقدسة أو المعانى الكبيرة، وهمس:

- كم أنت جميلة الليلة يا فاتنتى ! !

- احذر . . السائق قد يسمعك .

- عندما أراك على هذه الصورة أفقد عقلى، وأنسى كل شىء إلا الوجه الفاتن الذى يسكرنى .

- اخرس أيها الأسود اللئيم .

وأحست بيده تزحف كمخلب ذئب، ثم يمسك بيدها الصغيرة البضة، ويضغط عليها فى انفعال ثم يتنهد وتتنهد، وتهتف به فى صوت مبحوح : «ليس الآن» .

[٢١]

وكم كانت دهشة الشيخ الشاذلى عندما جاء إليه العمدة بنفسه، وطلب منه أن يأتى معه إلى «الدوار». والعمدة رجل ضعيف لا سلطان له على قريته، قد تخطى السبعين، منطوٍ على نفسه، لا يتحرك إلا إذا وفد إلى القرية أحد الرجال الرسميين، والجميع يعرفون أن السلطة فى القرية ليست للعمدة أو خفرائه، وإنما صاحب الكلمة النافذة، والرأى الأخير دائمًا هو ناظر عزبة عثمان باشا ورجاله العديدون، وتمتم الشيخ:

- لم أظلم أو أحرق.. أو أقتل.. تركت لكم الدنيا وما فيها. وأنتم أخبر بشئون دنياكم.

- اعذرنى يا مولانا، فأنا عبد المأمور.

- ويحك يا عمدة، بل أنت عبد الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

- ربنا يجملها بالستر يا مولانا . .

وخرج الشيخ الشاذلى راكبًا حماره، وحوله أتباعه ومريدوه، كان الجميع يرددون اسم الله وكأنهم فى مهرجان المولد النبوى، أو فى ليلة من ليالى الاحتفال بذكرى أولياء الله الصالحين، ورمقته العيون من خلف النوافذ والأبواب، وتوقف السائرون فى الطرقات، وقد أخذهم جلال الموكب، ورهبة الأحداث المتتالية؛ وعساكر الشرطة نزلوا عن جيادهم فى الطرقات؛ وتسابقوا إلى تقبيل يديه والتماس الدعوات والبركات؛ ووجدوا أنفسهم -على الرغم منهم- يرددون مع الدراويش اسم الله المنغوم وقد طغت عليهم موجة صوفية عارمة . .

وقال وكيل النائب العام :

- فقط أردنا استكمال التحقيق فهل تتكرم بالجلوس لنستجويك، فجلس الشيخ دون أن يرفع عينيه إليه والمسبحة الطويلة فى يده وتمتم :

- إن يوم الحساب يوم عظيم .

وقال المحقق بنبرات رقيقة :

- قل لنا معلوماتك عن الحادث .

- علمها عند ربى .

- ألم يأتك نبؤها؟

- «قوم نسوا الله فأنساهم أنفسهم وجعل بأسهم بينهم شديدًا» .

- من أشعل النار؟

- قبل إشعال النار اشتعلت النفوس بالحقد والكراهية .

- كيف؟؟

- يسأل فى ذلك من احترقوا .

وتململ المحقق فى شىء من الضيق وقال بإيجاز :

- من قتل سلطان؟

- ما المسئول عنها بأعلم من السائل . .

- ألم تسر إليك شائعة عن مقتله؟

- قتله بغيه ، ولو قبضتم على هذا «البغى» لأمسكتم بالخيط الأول فى القضية ، ولوفرتم على أنفسكم وقتًا ومالاً ومتاعب . .

وصعد المحقق أنفاسه فى ملل ، وقال :

- حدثنا عن أخلاق سلطان . .

- سئلت عائشة عن أخلاق رسول الله، فقالت: كان خلقه القرآن..

- وسلطان؟؟

- اذكروا محاسن موتاكم..

- والباشا..؟

- أيضًا أقول: «اذكروا محاسن موتاكم».

- لكن الباشا لم يمت يا مولانا.

- مات سلطان وهو حى، ثم مات مرة أخرى عندما سفك دمه. وأنت ترى أن الباشا لم يمت، من مات مات، ومن لم يمت فهو فى طريقه إلى الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال الرجل وهو يجمع أوراقه، ويسرع بإنهاء الاستجواب:

- ألديك أقوال أخرى؟

- وفى النفس حاجات وفيك فطانة.. والسلام..

وخرج الشيخ الشاذلى فوقف الحاضرون إجلالاً وتقديرًا، وعند مروره بناحية الدوار صك سمعه أصوات العشرات من المحبوسين فى غرفة واسعة وهم يصيحون عبر النافذة: «ادع لنا

يا سى الشيخ . . . اقرأ عدة ياسين على الظالم وابن الحرام . . بركاتك يا سيدنا الشيخ»، ونظر الشيخ بعين دامعة إلى الأيدى العجفاء التى تلوح له من بين قبضان النافذة وإلى الوجوه الشاحبة التى لم تذق النوم طيلة ليلة أمس، ولم تذق لقمة واحدة من الطعام، بل ذاقت ألوان الصفعات والسياط التى لا ترحم، وتمتم الشيخ بصوت جريح: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ثم سار فى طريقه. والدراويش يرددون اسم الله من جديد وانضم إليهم صوت المسجونين فى غرفة الدوار قوياً مجلجلاً: «يا الله . . يا الله . .» وسرى فى الجموع تيار عنيف. ألهب حماسهم وصغر فى أعينهم كل كبير. وحقر لديهم كل عظيم. حتى بدت لهم الآلام الجسدية والنفسية التى يقاسونها وكأنها حكات أظافر لا تدمى ولا تخيف، وانطلق صوت ثائر ساخط خلف القضبان: «يسقط الظلم . . يسقط عثمان باشا». وساد الجو سكون رهيب. وكأن الجميع يزحفون فى معركة بشعة تحت ستار الظلام. ويتوقعون لحظة انفجار هائلة تقلب الدنيا رأسًا على عقب. وعاد الموكب الروحانى يردد اسم الله من جديد، وأخذ يبتعد رويدًا رويدًا. والطرقات مكتظة بنساء يعولن، وأطفال يصرخون، وبرجال يصرون على أسنانهم فى صمت وثورة مكبوتة.

وقال ضابط المباحث ساخرًا، وهو يغلل أيدى المتهمين بحبال متينة، وبقيود حديدية قاسية: «لقد نسى شيخكم أن يقول: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩].

ودخل الشيخ داره وحوله أتباعه، واكفهر وجه الشيخ الذى ظل محافظًا على هدوئه طيلة الوقت، وبان الغضب فى عينيه الزائغتين والتفت إلى رجاله:

- لا تقربوا الطعام..

- لم تنوِ الصيام..

- ولا تقربوا الشراب.

- لكن..

- ولا تعودوا إلى بيوتكم وعيالكم.

ودار الهمس بين الدراويش ماذا يعنى الشيخ الشاذلى بذلك؟؟ أهى عقوبة جديدة يفرضها علينا لتطهر نفوسنا وتصفو قلوبنا، ونذكر الله مخافة أن نكون قد نسيناه فى خضم الأحداث الدامية؟ إننا لم ننسَ الله لحظة واحدة، وجاء صوت الشيخ حازمًا قاطعًا:

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١].

ورأى الشيخ فى عيونهم الحيرة والتساؤل، وهمس أحدهم فى خشوع :

- نريد أن نعرف خطيئتنا .

فهتف والزبد يطفر من فيه :

- وهل أخطأ إخوانكم الذين قبضوا عليهم بالأمس، وحرموهم الطعام والشراب والنوم، وانتزعوهم من بين عيالهم؟

وفهم الجميع ما يقصده الشيخ، إنه يؤنبهم على التزامهم جانب الصمت تجاه إخوانهم المقبوض عليهم، ويضع أمامهم الصورة الرهيبة المتناقضة، هم يمرحون ويأكلون ويشربون، ويقبلون أطفالهم ويربتون على ظهورهم فى حنان، أما إخوانهم المتهمون فيعيشون فى حرمان تام، وينتظرون أيامًا سوداء حالكة . . وقال رجل منهم :

- وماذا سيستفيد إخواننا من ذلك . . !

فقال الشيخ وقد عادت إليه رحابة صدره، وإشراقة وجهه :

-بل أنتم الذين تجنون الفائدة، سوف تعيشون فى زهد صنعتموه بأيديكم، وتأخذون أنفسكم بالرياضة الشاقة التى قد تزعمون عليها فى يوم من الأيام، وفى الوقت نفسه سيظل شىء ما يربطكم بإخوانكم. . المشاركة فى الشعور والكفاح، ومع ذلك فستكونون أحسن حالاً منهم.

وأشار الشيخ بيده للحادى فأخذ يترنم بخمرياته الصوفية الغامضة المعنى:

الليلة الليلة بنداويها

اللى جانا الفقرا فيها

جانا الأحباب

من غير نداب

شربوا الخمرا بتصافيها

وظلوا غارقين فى أذكارهم وخمرياتهم العذبة التى تلعب بالقلوب، وتحلق بالأرواح إلى سماوات العشق الإلهى، والروحانية الوضاءة، دون أن يشعروا بحواجز الزمان والمكان، وما إن أذن المؤذن للصلاة حت كفوا عن أذكارهم وقصدوا مكان الوضوء، وما إن أدوا الصلاة حتى وقف الشيخ الشاذلى بينهم وقال:

- سيروا فى الطرقات، واذكروا الله بصوت عال، تتفتح لكم أبواب السماوات، واجمعوا المال والطعام لإخوانكم وذويهم، واذهبوا إلى المدينة فى الصباح . . اذهبوا جميعًا بنسائكم وأطفالكم، ولا يبقين فى القرية أحد، واتصلوا بالمحامين ووكلوهم فى قضيتكم، ولا تتركوا إخوانكم المسجونين قبل أن يأكلوا ويشربوا ويطمئنوا إلى مصيرهم، وأعلموهم أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأوصوهم بتقوى الله على كل حال. وليصبروا صبر أيوب، واذكروا لهم أن أحد الصالحين خرج من بطن الحوت بعد فترة ليست بالقصيرة، وبقى بالرغم من ذلك حياً يرزق لأن عناية الله كانت ترعاه . . والآن . . انصرفوا يغفر الله لى ولكم.

***

وكاد الباشا ينفجر من الغيظ وهو يتصفح جريدة النهضة العربية، ثم أمسك بالجريدة ومزقها إربًا إربًا، وداسها بحذائه فى كراهية شديدة . . إن الأوباش يعرفون كيف يسددون إليه الطعنة، ويختارون الوقت المناسب ليوقعوه فى حرج شديد، ويجعلون كرس الوزارة يهتز من تحته، هذا الكرسى الذى ظل عشرات السنين يحلم به، ويبذل من ماله وجهوده وصحته كى يفوز به، فإذا ما تحقق أمله، وبلغ مبتغاه، نبحت من حوله الكلاب، كى تؤرق سعادته، وتشوب رضاه. وتحيل مجده

العظيم إلى أشواك تنغرز فى جسده، والسبب فى ذلك كله ليست سياسته المجحفة ولا طغيانه الرهيب، ولا رجاله الذى يسعون فى الأرض فساداً، ولا كبرياءه المدمرة، ليست كل هذه فى نظر الباشا أسبابًا وجيهة من الممكن أن تؤدى إلى المأساة التى حدثت، وإنما السبب الوحيد فى نظره هو ذلك الطائش المغرور الفوضوى الذى ذهب إلى فرنسا وعاد وقد عششت فى رأسه خزعبلات وفلسفات مدمرة هوجاء.. هو الدكتور ضياء الدين، هذا الوغد الذى كان يجلس بين الفلاحين، ويقول لهم: «هذه الأرض أرضكم وأرض أجدادكم، قد اغتصبها الباشا وأجداده الوافدون من تركيا منكم فى غفلة من الزمان، وفى فترة من فترات الضعف والنوم.. هذه الأرض يجب أن تعود إلى أصحابها.. تعود إليكم أنتم يا من تكدحون وتزرعون وتنبتون الذهب، وتصنعون التاريخ والرفاهية والثراء.. وأنتم وحدكم تستطيعون أن تستردوا حقوقكم الضائعة من بين أنياب الذئاب.. ويظل ذلك الثائر المتمر يروى لهم الحكايات عن رجل فى روسيا اسمه «تولستوى»، يكتب المقالات والروايات عن فساد الطبقات الحاكمة، وظلم القياصرة، ثم يجمع الفلاحين ويقول لهم هذه أرض أوزعها عليكم عن طيب خاطر لأنكم أحق بها منى... ويحدثهم ضياء الدين المأفون عن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح

الذى رد الحقوق لأصحابها يوم توليه الحكم، بعد أن انتزعها من أيدى أقربائه وأمراء البيت المالك . . ».

ويتمتم الباشا فى غيظ : «خزعبلات كثيرة تلك التى ملأ بها ضياء الدين رءوس الفلاحين الخاوية الحمقاء . . . لكنى أقسم لأنتقمن منه ولأكيلن له الصاع صاعين.

***

واستبد بالباشا الحنق عندما علم أن أهالى القرية قد زحفوا إلى عاصمة المديرية بنسائهم وأطفالهم، ورابطوا هناك حتى يبت فى شأن القضية التى صنعها الظلم، وضاعف من خطرها الطغيان الذى يرتفع فى ظله رجال الباشا وخفراؤه، وكم كانت دهشته عندما علم أن الشيخ الشاذلى هو صاحب هذه الفكرة الخطرة . . . لقد أصبح الشيخ الشاذلى هو الآخر مصدرًا جديدًا للخطر وأمسك سماعة التليفون، وطلب من مدير الغربية أن يقبض على الشيخ فى التو واللحظة.

وعزم عثمان باشا على أن يذهب بنفسه إلى «طنطا» ليشرف على التحقيق، ولم ينسَ أن يستدعى بركات، ويكلفه بإلغاء كل المواعيد، والاعتذار عن الزيارات المتفق عليها، ثم يسلمه بيانًا لنشره فى الصحف جاء فيه : «إن معالى عثمان باشا يأسف أشد الأسف لما حدث فى عزبته، ويؤكد بكل ثقة أنها أحداث

مفتعلة، قصدها الإساءة إلى سمعته وإلى سمعة الحزب الذى ينتمى إليه ويؤكد للجميع أن العدالة سوف تأخذ مجراها، حتى يتم الوصول إلى المحرضين الأشقياء، والمأجورين الجبناء، الذين تحركهم الأحزاب الرجعية الآثمة، حقداً منها على الانتصار الساحق الذى حققه حزب الشعب، فى ظل صاحب الجلالة الملك العظيم، وفى ظل الدستور الوطنى الجديد، وعلى الباغى تدور الدوائر».

ولم ينسَ عثمان باشا أن يوصى بركات بالسيدة حرمه خيراً، وأن يكون دائم الاتصال بها تليفونياً، وأن يعتذر لها عن سفر الباشا المفاجئ، بعد أن تصحو من نومها، وقهقه الشيطان فى أعماق بركات وهو يستمع لهذه النصائح «الغالية»، وغمغم وهو ينحنى فى تبجيل وتوقير:

- اطمئن يا معالى الباشا.

ومضى الباشا إلى عزبته.

وعاد بركات إلى داخل «الفيلا» ليستعجل إيقاظ صاحبة العصمة، وهمس لنفسه وهو يصعد الدرج: يا لها من فرصة. فرصة لذيذة.. هيه والله صبرت ونلت يا بركات يا ابن الشيطانة..

□□□

[٢٢]

حاول رجال الأمن مرارًا أن يفرقوا جموع الفلاحين الزاحفين من القرية، بالضرب تارة والقبض على بعض منهم وإيداعهم سجن القسم تارة أخرى، لكن الفلاحين لم تهن عزائمهم بل ظلوا مصرين على تجمهرهم منذ الصباح حتى المساء، وبعد القبض على الشيخ الشاذلى، لم يعد هناك بارقة أمل فى القضاء على تجمهرهم، ألم يقل الشيخ لهم إن اجتماعهم على قلب رجل واحد ما هو إلا جهاد فى سبيل الله؟ وإن السجن من أجل قضية عادلة خلوة وعبادة، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وإن الله لا بد ناصر من ينصره، ألم يقل لهم الشيخ كل هذا؟ فكيف يخالفون أمره، ويعصون مشيئته؟

وتقبض قلب الباشا حينما أتى بنفسه، ورأى الفلاحين على هذه الصورة، وأيقن أن الكبرياء فى هذه المرة خطر داهم، وزاد من قلقه التعليق اليومى الذى يكتبه ضياء الدين فى الجريدة،

بعناوين مثيرة مثل: زحف الثائرين ضد الإقطاع . . نحن ننتظر حقيقة الموقف . . متى تظهر نتيجة التحقيق؟ وشنع ضياء كثيراً للقبض على الشيخ الشاذلى الرجل الصالح، ومصدر الأمن والاستقامة فى المنطقة، والداعى إلى الفضيلة، والإشعاع الروحى الذى يشرق دائمًا بإنسانيته العالية، ودعوته الخالصة لوجه الله . .

والتقى الباشا بمدير الغربية، واستقبله المدير بما هو أهل له من تبجيل وتكريم، وأفهمه أنهم قد أعادوا الأمن إلى القرية، وقضوا على بوادر أى اشتباك مرتقب، وسخر الباشا منه ثم أشار إلى جماهير الفلاحين المحتشدين داخل مبنى المديرية وخارجه، وكأنه يقول له: هل عجزت الشرطة بسلاحها وعصيها أن تشتت هذا التجمع الذى يتحدى قوتهم وسلطتهم؟ وهل تجمهرهم على هذه الصورة يعطى فكرة عن السلام المنتظر، وعودة الأمور إلى نصابها، وقتل الفتنة التى توشك أن تدمر كل شىء؟ ولم يحاول المدير أن يستسلم أو يتجاهل الحقيقة الواقعة، بل قال للباشا: إنه ليس من المستطاع أن نسجن قرية بأكملها، ونملأ الزنازين بالأطفال والنساء وعاد الباشا يقول:

- والآن لعلك تدرك أن وراء هذا الحادث المدبر يدًا خبيثة، أقسم وأنا واثق مما أقول أن الأحزاب المطرودة من الحكم هى

التى افتعلت هذه الأزمة، وتسببت فى إراقة الدماء، وهل هناك فائدة ترجى من أن يشعل رجالى مثل هذه المعركة؟ إننى قبل أى إنسان آخر يهمنى أن يعيش أهل دائرتى- الذين انتخبونى نائبًا عنهم- فى هدوء وأمن، وبدا على المدير أنه غير مقتنع بما يزعمه الباشا، وتذكر ما كتبه محرر جريدة النهضة العربية تعليقًا على بيان وزير المواصلات، محاولاً أن يفند مزاعم الباشا وافتراءاته، ويسخر من «الأيدى الخفية» التى تحدث عنها، ثم تذكر المدير التحقيق الذى أشرف عليه بنفسه، واستطلاعه لرأى القاضى وممثلى الاتهام واستماعه لدفاع المحامين، فوجد أن ما تجمع لديه من حقائق يخالف تمام المخالفة ما يزعمه معالى الباشا؛ وبعد فترة قال المدير:

- لقد اعترف رجال معاليكم أن سلطان هو الذى حرم الأهالى من العمل فى العزبة، واعترفوا أيضًا أن سلطان هو الذى أشعل الحرائق فى القرية عندما رفض الفلاحون العمل معه على الأسس الجائرة التى رسمها، ومن حق الفلاحين يا معالى الباشا أن يعملوا أو يرفضوا العمل؛ واعترفوا أيضًا أن «نجية عبد السلام» الفتاة القتيلة؛ كانت تعيش مع سلطان على الرغم منها، والكشف الطبى على الجثة أثبت العدوان على أنوثتها. . هذه هى الدوافع التى أدت إلى الكارثة؛ إنها من سلطان وليست من الفلاحين ولا من الشيخ الشاذلى.

واحتقن وجه الباشا غيظًا، وقال:

- لست أدرى لماذا تفهمون الأمور هنا بهذه السطحية؟

- نحن ننظر إلى الوقائع التى أمامنا يا معالى الباشا.

- أية وقائع؟ هل حاولتم التثبت من موقف الدكتور ضياء الدين؟

ألم يقل لكم أحد منهم شيئًا عن الاجتماعات التى كان يعقدها؛ والسموم التى أخذ ينفثها بينهم؛ والفلسفات الفارغة التى يحشو بها رءوسهم؟.. «الأرض أرضكم.. الباشا طاغية.. الحكومة لا تمثل الشعب، تمردوا على الإقطاع..». هذا هو أساس الفتنة.

فقال المدير فى حيرة:

- لم يحاول أحد أن يلقى عليه ظلاً من الاتهام من قبل.. ولا معاليكم.

- حسن حسن.. على العموم سوف يتكفل به وزير الداخلية فى القاهرة، فقد أردت أن أوضح لك أن المسألة أعمق من ذلك.

وصمت الباشا فترة ثم استطرد:

- لماذا يا حضرة المدير لم تتحدث عن المعركة التى نشبت

بعد الحريق؟ أزحف الفلاحون نحو سلطان ورجاله أم هو الذى هاجمهم؟ . . هه . . تكلم.

- لا يسعنا يا معالى الباشا إلا أن نمشى مع التحقيق خطوة خطوة، والمجرم سيلقى جزاءه.

- أجل سيلقى جزاءه، إنها مشاجرة فى عز الليل، والمشتركون فيها يعدون بالعشرات، قل لى بربك كيف تعرف الجانى ومئات الأيدى قد امتدت لتقتل ناظر عزبتى وبعض رجاله؟؟

وهب الباشا واقفًا والغضب يهدر فى عينيه، وسمات التحدى والوعيد تصرخ بها ملامحه، حتى ظن المدير أن هذه المأساة- لا شك- سوف تودى به وتضر بمنصبه وبسمعته لدى أولى الأمر، وعثمان باشا وزير، وقطب من أقطاب حزب الشعب، وصاحب ضياع واسعة، لكن ماذا يفعل المدير؟ إن الوضع محرج وجد شائك، واستجمع المدير شجاعته على الرغم من ذلك. وقال:

- لى رجاء يا معالى الباشا.

- تفضل . .

- اسمح لى معاليكم أن أقول إن مصلحة العزبة، والرغبة فى سيطرة الهدوء عليها، ووضع سيادتكم الخاص،

ومصلحتنا نحن هنا فى هذا الإقليم . . كل ذلك يقتضى أن نرضى الفلاحين، ونمسح ما علق بأذهانهم من ريبة وحنق، ونعطيهم الأجر المناسب، ونسلم مقاليد العزبة ونظارتها فى يد رجال يحسنون إدارتها . . ونحن بدورنا سنحاول أن نضع أيدينا على الجانى الفعلى، ونبذل فى ذلك أقصى ما نستطيع من جهد.

وقال الباشا فى سخرية:

- أتريدنى أن أحنى رأسى لهؤلاء الفلاحين؟ يا للعار! ! إنى لو فعلت ذلك فلن أرفعها قط، وسوف ينهبون أموالى ومحصولى وأرضى، هؤلا الكلاب لا يستجيبون لغير سياسة القمع والعصا والكرباج . . وشئون عزبتى ورجالى من شأنى أنا وليس لأحد- ياحضرة المدير - أن ينصحنى فى شىء من ذلك مفهوم؟؟

فقال المدير فى صوت خافت:

- إنه مجرد رأى . . وأحيط معاليكم علمًا بأنه قد تقرر الإفراج عن الجميع بالضمان الشخصى أو المالى، ونحن لا نستطيع الاعتراض على قرار القضاء، أو تجاهل حملة الصحافة . .

ولم يحاول الباشا أن يعلق بشىء، بل انتزع نفسه وخرج،

وكان حانقًا ثائرًا، يود بكل جوارحه أن يقطع تلك الرءوس السمراء المعفرة التى تمتد فى فضول فى كل ركن من أركان مبنى المديرية وخارجه، بل تمنى أن يشعل نارًا أو حديدًا منصهرًا ويرمى بهؤلاء الكلاب فى جحيمه.

***

وخرج العشرات من سجن المديرية، وابتسامات النصر تتألق فوق وجوههم، وفى مقدمة الركب كان الشيخ الشاذلى يركب حماره، غارقًا فى ملابسه البيضاء النظيفة، مطرقًا بوجهه الأشقر ذى اللحية البيضاء، وكأنه كتلة من نور سماوى، وتمتم الناس معجبين برجل من أهل الجنة تحدى سلطان الباشا وسخر من السجن والحديد والنار، وقاد فلاحى قريته فى الظلمات الحالكة إلى طريق النور والحرية والكرامة، وانطلق الموكب الكبير - بأطفاله ونسائه ورجاله- سيرًا على الأقدام من عاصمة الإقليم حتى القرية، مارًا فى طريقه بكثير من القرى والكفور، تلك التى خرجت على بكرة أبيها تستقبل العائدين بعد أن ملأت قصة ثورتهم الآفاق وتحدث عنها كل الناس..

ودخلوا القرية على شوق، لكم حنوا إلى أكواخهم الصغيرة المهلهلة، وإلى بيوتهم الطينية القميئة، وإلى بهائمهم

التى انبعث خوارها طويلاً متكررًا وكأنها تستقبلهم بالبشر والترحاب، وأخذوا يعانقون بنظراتهم المتعبة كل شىء. . الحقول. . الأشجار. . النخيل. . أكوام السماد. الترعة الصغيرة. . كل شىء. . وكأن مظاهر الطبيعة التى يأتونها فى لهفة جزء من كيانهم ووجودهم وسعادتهم.

وكانت البيارق تتمايل عالية شامخة بألوانها الخضراء ذات الكتابات البيضاء، والطبول والدفوف تدق فى إيقاع رتيب جميل، والناى تتردد أنغامه مسرعة متمردة، والمزامير البلدية تصدح وكأنها تقيم فرح العمر، والأجسام تتمايل يمنة ويسرة ناطقة باسم الله العلى الكبير، وحادى الركب يترنم بصوته العذب الجميل:

يا مــدعى الكبـر هو الكبـر عـلى مين؟
الكبر ياما خفض ناس كانوا علما وعلامين
فـرعـون لما طغى وحـاز الكبـرع العـالمين
إبليســه لما غـوا.. كـان اللـى غـره مين؟

وبرغم الجوع والسهر الطويل، وبعد المسافة التى قطعوها من المدينة حتى وصلوا القرية. كان الفلاحون يحسون بموجة جارفة من النشاط والقوة، وخيل إليهم فى لحظات الحماسة والنصر والروحانية الدافقة. . أنهم جبابرة. . يستطيعون بعون

الله ورعايته أن يصنعوا المستحيل ويحققوا المعجزات، ويدمروا قلاع الظلم والطغيان والفساد.

وشق الظلام فى ذلك الوقت من الليل ضوء قوى انبعث من عربة تقف على مقربة منهم، وتحولت عيونهم إلى هناك، برغم استمرارهم فى الأذكار والنشيد، ولاح الدكتور ضياء الدين قادمًا نحوهم، وعلى ثغره ابتسامة عريضة، ومن حوله بعض الزملاء من الصحفيين والمصورين، وهللوا له واندفعوا صوبه مرحبين، وقصد من فوره الشيخ الشاذلى فوق حماره وصافحه فى حرارة وشوق وهمس:

- جئت يا مولانا لأسجل لحظات النصر العظيم.. إنها بداية طيبة غير أن الشيخ تمتم فى صوت خاشع:

رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: جهاد النفس.

وابتسم ضياء فى سعادة، وهمس:

- أطال الله بقاءك.

- فى الصالحات.

- ونصرنا ببركاتك.

- ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ولمعت على الأفق آلات التصوير، فهلل العيال، وزغردت العذارى، وانبعث أغانيهم الشعبية مرفوعة المواكب الرائع :

احنـا الصـــوالحــه وكـــلامنـا تمام

ونســيب المحـابيس من بيت الديوان

احنا الـصــوالحــه وكــلامنا مــشى

ونسـيت المحـابيس من بيت البـشى[1]

وانبعث صوت الشيخ قوياً مجلجلاً :

- لا تنسوا موتاكم .

وساد الوجوم، وترقرقت الدموع فى العيون، وخفقت القلوب خفقات الحزن والأسى، وشابت فرحتهم الطارئة ذكريات مريرة، وذكريات الجرحى والموتى الذين راحوا ضحية العسف والطغيان .

ومن بعيد بدا قصر الباشا غامضاً مكفهراً كالشبح المخيف، وصمت ممتد عريض يسدل ستاره القاتم فوق الضيعة الشاسعة التى ينتصب فوقها اسم عثمان باشا .

□□□

(١) يقصد الشاعر الشعبى «الباشا» .

[٢٣]

اجتمع الدكتور ضياء الدين مع رفاقه، كانت صفاء معهم في الاجتماع، أما الزميل السوري عدنان الأسطواني فلم يكن موجودًا، فقد دلت تحريات المخابرات على أنه لا يتحفظ في أحاديثه، ويوجه إلى الهيئة الحاكمة نقدًا لاذعًا، ويتهمها بمهادنة الاستعمار والرجعية، ويعتبرها ضربة قاصمة للحركة الوطنية، وتعويقًا لحركة الوعي والتحرر القومي، ومن سوء حظه أنهم أمسكوا به متلبسًا بتوزيع بعض المنشورات الثورية التي تهاجم الحكومة والدستور، وتدعو الشعب- بطوائفه وأحزابه- إلى الاتحاد ليستطيعوا مواجهة العدوان على الحريات العامة وعلى مستقبل القضية الوطنية، وقبض على الأسطواني، وظل في السجن رهن التحقيق لمدة شهر، ولم يستطع المحققون برغم ما بذلوه من تهديد وتعذيب أن ينتزعوا منه كلمة واحدة، ولم يقل لهم سوى: «إن هذه المنشورات من صنعه هو، وإنه قام بطبعها بدافع من غيرته العربية، وهي

مجرد رأى، له الحق فى التعبير عنه» واعتبرت المخابرات أن ما أقدم عليه عدنان مجرد نشاط فردى، وليس مظهراً من مظاهر التكتل أو التنظيم السرى الخطر، ولهذا اكتفوا بإبعاده عن البلاد، فاختار الذهاب إلى الأراضى الحجازية، وسافر دون أن يجرؤ على وداع رفاق كفاحه..

وناقش المجتمعون برامجهم، وما حققوه منها، واقترحوا بعض التعديلات، وقرروا أن الدعوة إلى الاتحاد قد لقيت قبولاً لدى جميع الأحزاب السياسية التى لا تشترك فى الحكم، وسوف يهب الجميع صفًا واحدًا ضد صدقى وحزبه، ودستوره وتعاونه مع الاستعمار، والدليل على ذلك أن المظاهرة الأخيرة التى كانت تتألف من طلبة الجامعة، قد مثلت فيها جميع الأحزاب بشتى ميولها وأهوائها، ولم يكن خافيًا على الدكتور ضياء الدين أن الأحزاب لم تجتمع فى صعيد واحد لغاية نبيلة، وهدف قومى منزه عن الأطماع، فقد ملوا الانتظار، واشتاقوا إلى كرسى الوزارة، وضاقوا ذرعًا بالكبت وإهدار الحريات، وبالقبضة الحديدية التى يقبض بها صدقى على ناصية الحكم، وبهذا التقى الجميع - مخلصين وغير مخلصين - عند غاية واحدة هى كراهية الأداة الحاكمة. فلم يرَ ضياء الدين ورفاقه بدًا من المساهمة فى هذا النشاط الموجه ضد الحكومة، ومحاولة الاستفادة منه بطريقة شريفة..

ولم ينسَ المجتمعون ما اتفقوا عليه فى الجلسات السابقة ألا وهو مواصلة النضال العنيف ضد القوات الإنجليزية المعسكرة فى القاهرة وقاعدة القناة، واختطاف الجنود والقضاء عليهم، وإلقاء المتفجرات فى أماكن تجمعهم متى سنحت الفرصة لذلك . .

وناقشوا أيضًا الحملة القوية التى تزعمها ضياء، وحملت لواءها جريدة النهضة العربية، ومدى ما سببته هذه الحملة من إزعاج وتورط بالنسبة لعثمان باشا وبالنسبة للحكومة، وبارك المجتمعون هذا الاتجاه الذى كان له أكبر الأثر فى تنوير الأذهان، وفضح مؤامرات الحاكمين ومظالمهم، وتواصى الجميع بالسير قدمًا فى هذا الطريق، والاستمرار فى شتى نواحى النشاط المتشعبة . .

وعندما انفض الاجتماع، التفت ضياء الدين إلى صفاء قائلاً :

- غدًا الجولة الثانية . . إنها أخطر من سابقتها . . وتحتاج لأعصاب من حديد . .

وشعرت صفاء بقلق غامض، لم يكن خوفًا، وإنما كان فيه عنصر التقزز والألم، سوف تزيف عواطفها، وتلصق بنفسها بعض الصفات الشنيعة، وتبتسم لرجل آخر غير ضياء الدين،

وتدع يدها فى يده، وتسير معه فى الشارع، وتمثل دور العاشقة الوالهة، مع من؟؟ مع ذئب حقير تكرهه، لكن ماذا تعمل؟ عليها أن تصبر، وتذكر الهدف النبيل الذى من أجله ضحت- وتضحى- بالكثير من سنى عمرها وسعادتها وآمالها، وكلما همت بأن تسأل ضياء الدين عن اليوم الموعود الذى تحلم به، وعن اللحظات الهانئة التى سوف تشهد زفافها السعيد، تراجعت. . . ولزمت الصمت، لأن الأحداث تتوالى، والكوارث يأخذ بعضها برقاب بعض، وعمل الجريدة يلتهم كثيرًا من وقتها ووقته، والتنظيم السرى ضد الاحتلال يشغل حيزًا ضخمًا من تفكيرهم، ويشكل خطرًا جسيمًا على مستقبلهم. .

واكفهر وجه أم صفاء من الغضب، وهى ترى ابنتها تغطى وجهها بالمساحيق الكثيرة، وتستعمل أحمر الشفاه، وتعود من لدى الحلاق، وقد غيرت نسق شعرها تمام التغير، ولبست نظارة زجاجها ذو لون أسمر خفيف، وارتدت فستانًا جديدًا يبرز الكثير من مفاتنها، كانت خجلى وقد تغير شكلها تمامًا، لكنها كانت تحاول أن تنسى حرج موقفها وهى تتذكر الغاية الشريفة التى تناضل من أجلها، وهتفت أمها فى ذعر:

- ما هذا يا بنتى؟ هل جننت؟

– بل فى تمام عقلى . .

– يا للمصيبة ! ! لقد أصبحت مثل نجوم الشاشة ، بل يؤسفنى أن أقول إنك تبدين كراقصة محترفة . .

ولم تثر صفاء ، أو تحاول أن تدافع عن سلوكها وخلقها ، واكتفت بأن قالت :

– أغريب أن تهتم المرأة بزينتها ؟ . .

– ليس إلى هذا الحد ، قد تغتفر لك هذه الزينة إذا كنت متزوجة وفى عصمة رجل . .

ومضت أمها إلى أبيها ثائرة ، وقد ركبها هم الدنيا والآخرة ، وقالت حانقة :

– هذه البنت لا أفهمها أبدًا ، إنها غريبة الشأن ، إن وظيفتها كانت كارثة كبرى علينا وعليها ، ليتها بقيت مثل بنات الناس فى بيتها حتى خطبها ابن الحلال وأرحنا أنفسنا من هذا الغم كله . . لكن ماذا نفعل وقد كنا فى حاجة ماسة إلى ما نتعيش منه ؟ نحن نتعذب بين ذل الحاجة وعزة النفس . .

وتساءل الأب عن سر هذه الثورة المحتدمة ، فروت له الأم الطريقة التى تزينت بها ابنته ، وخروجها الدائم فى مواعيد العمل وفى غير مواعيد العمل ، وحياتها الغامضة المريبة المحاطة بالأسرار والألغاز ، وضياء الدين ذلك الرجل الذى لا

تدرى كنهه والذى لا يريد أن يتزوج أو يدع غيره يتزوج، وأجابها الأب وهو يرشف فنجان القهوة قائلاً:

- إنها ابنتى وأنا أعرفها، ولا يخالجنى أدنى شك فى سلوكها، إنها تفهم حياتها وظروفها أكثر منى ومنك..

- أنت مغرور واهم مثل ابنتك..

- سامحك الله يا أم صفاء.. أتقيمين الدنيا وتقعدينها من أجل فتاتك التى تحاول أن تظهر بمظهر يتناسب مع مركزها؟.. إنها تتزين كما كنت تتزينين ولا شيء غير هذا..

فقالت وهى تنصرف محنقة:

- لقد نفضت يدى منك ومن ابنتك، فافعلا ما تشاءان.

ولم تكن صفاء على استعداد لأن تدخل مع أمها فى مناقشة طويلة، فهى منصرفة تمام الانصراف إلى المهمة الخطرة المنوطة بها، والتى تقدم عليها بأعصابها المشدودة، وفكرها اليقظ، وعينيها المفتوحتين، وأسرعت خارجة وصيحات أمها الناقمة اللائمة تتناهى إلى سمعها وكأنها تصفعه، ومضت فى طريقها رشيقة جذابة، وعيون الفضوليين ترمقها خفية، وعندما رآها ضياء الدين على هذه الصورة لم يتمالك نفسه أن هتف معجبًا:

- ما أروعك الليلة!!

- لا مجال للغزل، إن جسدى كله يرتجف . .

- دعينى أعترف لك أنى أغار عليك . . كيف أسمح لك بالسير جنبًا إلى جنب مع شيطان أكرهه من كل قلبى؟ لشد ما أنا متردد!

فقالت صفاء وهى تطأطئ رأسها فى خجل:

- أتسخر؟

- الحقيقة تنطق وحدها.

فقالت مداعبة:

- والناس لا يسمعون حديثها.

- لأن حديثها قد ينبعث خافتًا وسط الضجيج.

- الآذان الحريصة المتشوقة تلتقط صوتها بين آلاف الأصوات.

- من تقصدين؟

- أقصد الحقيقة التى تتحدث عنها.

ولم يكن ضياء من الغباء بحيث يخفى عليه ما تقصده بكلامها الذى يحمل معنيين، معنى ظاهرًا وآخر باطنًا، هو

يفهم تمامًا أنها تقصد تأنيبه ولومه لأنه لم يتقدم حتى الآن بطلب يدها، ولم يحاول أن يفهم حقيقة مشاعرها ونداء عينها، ولم يستطع الإلمام بظروفها العائلية، وهو الذى يتردد على بيتها من آن لآخر ويجالس أمها وأباها دون أن يذكر كلمة واحدة عن الزواج، وتمتم ضياء :

- إنك قاسية . . وتتكلمين بالألغاز كما يتكلم الشيخ الشاذلى . .

- ربما . .

- لكن تأكدى أنى حاد السمع، ولا تخطئ أذناى سماع نداء الحقيقة، إننى أستقبل هذا النداء بكل حواسى وجوارحى وروحى، أما متى أمد يدى، فذلك فى وقت أنا أعلمه .

وهمهمت صفاء وإشراقة سعادة تشع من ملامحها :

- هل أستطيع الآن أن أذهب؟

- أجل . . يا عروس النيل . . يا رمز التضحية والفداء .

- يبدو أنك تتوهم أنك واقف فوق منصة خطابة . .

وضحكا . . وصافحته . . ومضت قاصدة ميدان قصر النيل، كأن فى قلبها جوقة تعزف ألحانًا سعيدة مرحة، وزال توترها أو خف لدرجة كبيرة وأخذت تنقل خطواتها فى ثبات

وهدوء، كانت تمثل دورها على وجه كامل، وإبداع مثير، وفاضت نفسها بالثقة والأمل الكبير. ألم يحدثها ضياء الدين منذ لحظات حديثًا كله عذوبة وسحر؟ ألم يفهم ما يدور فى نفسها من قلق وتساؤل وآمال؟ ثم، ألم يعدها وعدًا صريحًا بأنه سيمد يده إليها فى الوقت المناسب؟ لكن متى يأتى هذا الوقت المناسب؟ بعد أيام. بعد شهور. أم بعد سنين طويلة؟

وبلغت ميدان قصر النيل، وتناست إلى حين ضياء الدين وكلماته العذبة الرقيقة وروحه المرحة الوضاءة التى بدت أوضح ما تكون فى هذه الليلة بالذات، ولم تعد تذكر سوى الصيد الثمين الذى تبحث عنه، والعربة السوداء، والرجال الذين ينتظرون لدى شاطئ النيل من ناحية الجيزة، وغرقت صفاء فى المهمة الخطرة التى تحمل تبعتها، لشد ما عادت ترهقها وتثقل عليها!! لكن شعورها بأنها تؤدى واجبًا مقدسًا فيه مرارة وألم وفيه دماء وتضحيات، جعلها تمضى قدمًا إلى الأمام.

لم تكن تعرف كيف تدخن السيجارة، ومع ذلك فقد أشعلت واحدة وهى تحاول جاهدة أن تظهر بمظهر الخلاعة والمجون، كانت تسعل فى عنف كلما جذبت نفسًا، وتهتز من أثر السعال حتى يحتقن وجهها وتسيل عيناها، ومن آن لآخر تعزف بعض المقطوعات الموسيقية بفمها، ثم تخطر فى مشيتها

مستأنية، وتدور بنظراتها فى كل ناحية، باحثة عن الصيد، ومرت ساعتان، يئست خلالهما من العثور على بغيتها، الجنود الإنجليز يمرون فى عرباتهم ويصفرون أو يقذفون ببعض النكات الوقحة ثم تبتلعهم الشوارع المتفرعة من الميدان، أو يدلفون داخل الثكنات، واتجهت ناحية الجسر، ثم انحرفت، تجاه القصر العينى، ودق قلبها، كانت تحس أنها على أبواب العمل، ووجدت جندياً إنجليزياً يترنح، وتمتمت: «يبدو أنه قد شرب كثيراً، هذا لا يهم، المهم أن أعرف كيف أستدرجه» وبنبرات رقيقة، ولغة إنجليزية مفهومة قالت:

- طاب مساؤك.

فألقى عليها نظرة سريعة، ثم مضى فى طريقه وهو يرغى بعبارات لا تكاد تفهم، وتضايقت صفاء وهى ترى الفرصة تفلت من يدها بعد طول انتظار، فتبعته وهى تكظم غيظها، وكانت تقول:

- إنى أعدك بنزهة رائعة على شاطئ النيل.

فانتزع نفسه منها، وهو يسب ويلعن، فماذا تفعل؟ إن العربة السوداء تنتظر، والرجال لدى الشاطئ يتململون، وهذا الدب القذر يتمنع، ولو علم الحقيقة.. حقيقة مشاعرى لتأكد له أنى أتقزز، إنى كمن يشرب كأساً نتنة من حنظل وسم،

ونظرت إلى الجندى وهو يبتعد فى حسرة وألم، هل تعود بلا شيء؟ لكنها سمعت من خلفها صوتًا يقول بلهجة إنجليزية طليقة:

- هالو، إنك رائعة.

إنها نفس الكلمة التى قالها ضياء الدين، والتى نقشت على شغاف قلبها بأحرف وضاءة عندما انطلقت من بين شفتى ضياء كانت كالسحر، بعثت فى قلبها نشوة، وفى حياتها أملاً عذبًا، أما من فم هذا الذئب الذى يقبل نحوها فهى قاتلة مثيرة.. تبعث على التقزز والغثيان، ورمقته صفاء بعين ناعسة فيها نداء، بينما واصل الجندى الإنجليزى حديثه:

- دعينا من هذا المخمور الوقور، لقد سرقوا نقوده وسلاحه، فعاد غاضبًا مفلسًا لا فائدة منه، وقد ماتت فيه الرغبة..

- وأنت؟

- كما ترين، فى كامل وعيى، جيبى عامر بالذهب، والقطع الفضية المصرية..

وصمتت صفاء برهة، ثم غمغمت:

- أعرف أنك تريدين الثمن فقط..

- إنه ثمن باهظ . . هل تقدر عليه؟

- تعجبنى صراحتك، كلنا يشترى شيئًا . . أنا أشترى اللذة، وأنت تشترين الحياة، نحن فى بورصة كبيرة . .

- تأسرنى فلسفتك الجميلة . .

وصمتت مرة أخرى ثم قالت :

- إلى أين؟

- كما تشائين . . لكنى لا أدخل البيوت مخافة اللصوص، لا ثقة لى فى أحد . .

- لنبدأ جولتنا أولاً بنزهة قصيرة عند الشاطئ الثانى للنيل، هناك صمت وهدوء، ومصابيح النور قليلة، وفى مكان مظلم شاعرى لدى الشاطئ بين الماء والهواء والصمت والليل تحلو النجوى . . أنا أعشق العبث فى الهواء الطلق.

وأمسك بيدها، وسارا عبر الجسر الكبير، وهواء النيل المنعش يلطف من حرارة الجو ومن حرارة جسدها الملتهب المنفعل، كانت ذراعه وهى تتشابك مع ذراعها كحية رقطاء تلتف فى خبث، وتتحسس بشرتها فى جوع، لتحتمل مداعباته السمجة، ولمساته التى تجعلها توشك أن تقىء، فالعربة السوداء تنتظر، ولدى الشاطئ رجال واقفون، وضياء

الدين أيضًا فى دار الجريدة يرتجف، وينتظر هو الآخر على أحر من الجمر..

- أنت لطيفة. وسأعطيك خمسة وعشرين قرشًا دفعة واحدة، هل هذا يسرك؟

كانت شاردة، فالمكان المتفق عليه قد قرب، لهذا لم تجب، فاستطرد يقول:

- كثيرات مشين معى، وأنا أعرف كيف أعبث ببراعة.. وسترين.

- سنرى.

قالتها فى ذهول، ثم سحبته من يده، وجلست إلى جواره قرب الماء، فوق حجر نزلا إليه من الطريق الذى يرتفع فوق رأسيهما بما لا يقل عن مترين، وأخذا يحدقان فى ماء النيل الذى يبرق تحت ضوء النجوم، وشعرت بيده بخاصرها، فاقشعر بدنها، وهمست بينها وبين نفسها: «لقد بدأ سخافاته، إذا لم تدركنى عناية الله فسوف أفقد أعصابى، ثم أصفعه على وجهه، وأفر هاربة، لم أعد أحتمل، هذا الوغد السافل يطوقنى بذراعيه؟؟ يا للمهانة!! آه.. متى يأتون؟؟ يجب أن يأتوا حالاً، كيف أوقفه عند حده؟؟» وفى لباقة مذهلة دفعت يده عنها فى نفور، وابتعدت عنه خطوة، فقال فى استغراب:

- ما الذى دهاك؟

- الخمسة والعشرون قرشًا أولاً.

فقهقه فى مرح وقال:

- أهذا فقط ما يزعجك؟؟ ومع ذلك فأنت ظريفة، وأنت أيضًا شرسة، وأنا أحب هذا النوع من النساء..

كانت فقط تريد أن تضيع الوقت حتى يأتى الصحاب، ووضع الجندى الإنجليزى يده فى جيبه ولم يخرجها، فقد هوت فوق رأسه عصا غليظة فانكفأ على وجهه، ولم تتمالك صفاء نفسها، فندت عنها صرخة خافتة وسرعان ما أفاقت لنفسها، وسمعت صوتًا خشنا جريحًا تعرفه، يقول:

- أعطه ضربة أخرى ثم ادفعه إلى أعماق المقبرة.. أعنى أعماق النهر.

وتمت العملية بسرعة خاطفة..

القتيل يغوص إلى الأعماق، وأرجل الرجال تصعد إلى الشاطئ مهرولة، وهم يحبسون أنفاسهم اللاهثة، ومرقت بهم عربة سمراء ناحية كوبرى عباس.. وانتهى الأمر، لكن الضحية تغوص فى أعماق النهر.

والمندوب السامى فى سهرة خاصة مع بعض رجال السلك

السياسى والجالية الإنجليزية وصدقى باشا، وعثمان باشا يحترق من الغيظ والهزيمة.

وضياء على حافة الانتظار تنوشه ألسنة النيران والإشفاق والخوف..

والضحية يغوص.. ويغوص.. وصفاء فى قلبها دموع، إنها تقتل القاتل الجلاد، ومع ذلك تتألم لأنها تحس -كإنسانة- بأشواق الإنسان ولو كان حقيراً..

□□□

[٢٤]

وقع عثمان باشا في حرج شديد كانت العاصفة أقوى من أن يتصدى لها؛ لأنها تتعلق بمركزه كوزير بعد أن اتخذت طابع الانتشار، وعرفت طريقها إلى الصحف، وإلى قاعات القضاء، ولو لم يكن وزيراً لاستطاع أن يتخذ إجراءات محلية، ويقسو في معاملاته، ويبذل المال والوعود، ويصطنع التنافس والتناحر بين رجال القرية، فينسيهم المشكلة الرئيسية، ويحول المعركة إلى وجهة أخرى، لكن تهوره وتهور ناظر عزبته سلطان، والتصرف الخاطئ مع الشيخ الشاذلي، وحادثة نجية عبد السلام، كل هذه العوامل تكاتفت، فأعطت لضياء الدين فرصة كي يتشدق بكلمات الحرية والعدالة والمطالبة بقانون الإصلاح الزراعي ينظم العلاقة بين صاحب الأرض والمزارعين، وفي الوقت نفسه أبدى المندوب السامي استياءه من تلك التصرفات الرعناء التي أحرجت الحكومة ورجالها، وبالتالي شجعت المنظمات الشعبية الثورية على مواصلة

العدوان على القوات المحتلة، وخطفهم تارة، وإلقاء المتفجرات بينهم تارة أخرى، وقال المندوب السامى أيضًا: إنه لا يعترض على النظام الرأسمالى والإقطاع ولا على الأسلوب الذى تدار به العزب والمصانع، وإنما جل اعتراضه على «كشف الأوراق» والتمادى فى التحدى، وإعطاء الفرصة للفوضويين كى يدبجوا المقالات ويطعنوا الحكومة، والقوات المحتلة، وأمن البلاد فى الصميم، ورأى المحركون لدفة الأمور أن خير وسيلة لإسكات هذه الأقلام هى أن يستقيل عثمان باشا من الوزارة، وأن تشدد قبضة الرقابة على الصحف، ويؤاخذ كل من انتهزوا الفرصة وشنعوا على الحكومة.. وأن يقضى بأى حال من الأحوال على الدعوة الجديدة إلى الاتحاد وتكتل الأحزاب، أو على الأقل استغلاله لمصلحة الحكومة والاحتلال إذا كان تياره قوياً لا يمكن إيقافه.

وعندما علم عثمان باشا أن هناك اتجاهًا بقبول استقالته، احتدمت فى فؤاده نار الغيظ والحقد، كيف يسقط من القمة بعد أن صعد إليها بماله وقوته ودهائه؟ أيترك كرسى الوزارة بعد أن بذل فى سبيله ما بذل، وضحى من أجله ما ضحى؟ إنه هو والوزارة كيان واحد لا ينفصل، أو كل لا يتجزأ، وتركه لها معناه الموت.. الموت البطىء، ومعنى ذلك أيضًا أن الفلاحين

انتصروا، وأن ضياء الدين استطاع بقلمه أن يخرجه ويزحزحه عن كرسى الوزارة، إن عثمان باشا يتألم ويتألم، ولو أن الذى أسقطه من فوق الكرسى ملك أو قوة إنجليزية أو صدقى باشا مثلاً لما امتلأ قلبه بمثل هذه الضغينة والحقد، أما أن يتحكم فى مصيره الفلاحون والأجراء، وفتى شريد مثل ضياء الدين، فهذا منتهى الهوان والذلة.

ودخلت زوجة الباشا ناضرة يانعة، وقالت:

- أوه... لماذا تظل دائمًا نهبًا للأفكار وللمشاكل؟

فقال وهو يدارى ألمه:

- لا شىء... لا شىء مطلقًا.

فاقتربت منه وجلست فوق ركبتيه، ثم أخذت تداعب شاربه الأبيض المفتول وتقول:

- إذن نستطيع أن نتحدث فى حرية..

- كما تشائين يا عزيزتى..

- هيه.. ماذا قلت؟ أريد طفلاً، لا بد أن أنجب طفلاً جميلاً بأية طريقة..

فقال فى شىء من الضيق:

- إلى متى تكررين على سمعى مثل هذا الطلب؟ يا عزيزتى

قلت لك ألف مرة إنى لا أصنع الأطفال، ولا أشتريهم، هذه مسألة لا دخل لنا فيها بعد أن فشل الأطباء. .

فقالت وهى تتصنع الحزن:

- تقول هذا لأن لك أبناء من زوجة غيرى، ولو كنت فى مكانى وشبابى وجمالى لأحسست بمدى الكارثة التى أكتوى بنارها. .

- وماذا أفعل يا حبيبتى؟

- نسافر إلى أوربا. . إن الأطباء هنا حمير لا يفقهون شيئًا. .

- مستحيل أن نسافر فى هذا الوقت. .

- لماذا؟

- الأزمة الوزارية تشتد، والمظاهرات فى الشوارع لا يقمعها الرصاص ولا السجون، والحياة فى العزبة راكدة متعطلة. .

- الوزارة والعزبة. . ليس فى رأسك سوى هاتين الكلمتين اللتين كرهتهما من كل قلبى، وأنا؟ ألا تفكر فىَّ قط، وأنا التى ضحيت بكل شىء من أجلك. .

فتململ فى ضيق، وحاول أن ينحيها عن ركبتيه فى رفق، وتمتم:

- أرجوك . . أرجوك يا حبيبتى، ليس الآن، إن ورائى بعض الأعمال المهمة التى لا بد من إنجازها على الفور مع بركات . . معذرة . .

فانتزعت نفسها غاضبة ومضت، ورأت بركات قادمًا من بعيد بسحنته السمراء، وحلته الرمادية وكأنه «قرن خروب»، وكان مسرعًا يتعجل مقابلة الباشا، فحنقت عليه هو الآخر وقالت:

- هل الباشا أعز لديك منى؟

- هذا العجوز؟ كلا . . أنت تعرفين، لكنى من أجل الورد يسقى العليق . . والفرص يا حبيبتى لم تزل كثيرة فى المستقبل .

وغمز بإحدى عينيه ومضى .

***

كانا يجلسان، الباشا وبركات الزنارى، والوجوم يضفى على الغرفة وشاحًا كئيبًا، والألم يرتسم فى عينى الباشا وملامحه، وتمتم الباشا بكلمات فهم منها بركات أنه لا ينوى أن يستقيل مهما كلفه ذلك من ثمن، إنه يريد أن يضحى بكل شىء، ويقدم على أى عمل ويظل كما هو وزيراً للمواصلات، ونظر الباشا إليه، وهمس:

- فما رأيك يا بركات؟

وقال بركات بعد أن أعمل فكره طويلاً :

- أرجو أن يفسح الباشا لى صدره . . وصدق المرحوم شوقى حينما قال : «ومن السموم الناقعات دواء» . .

- ماذا تعنى؟

- أعنى أن حل الموقف هناك . .

- أين؟

- فى العزبة . . عند الفلاحين . .

وأخذ بركات يشرح له رأيه فى إسهاب مدعمًا وجهة نظره بالأدلة والبراهين، فما على «الباشا» إلا أن يذهب بنفسه، ويقصد لتوه دار الشيخ الشاذلى، موهمًا إياه أنه ما جاء إلا ليلتمس البركات، ويعتذر بحرارة عن كل ما صنعه رجاله المجرمون، وما اقترفوه فى حق الفلاحين المساكين دون علم منه، وأن يبدى استعداده للقيام بدفع التعويضات لكل من لحقه ضرر فى نفسه أو ماله أو رزقه، ويطلب منهم أن يختاروا هم بأنفسهم ناظرًا جديدًا للعزبة يثقون فيه ويؤمنون بحسن نواياه وصفاء سريرته .

واستمع الباشا لرأى بركات بكل حواسه، لشد ما يزعجه

أن يتنازل عن ذرة من كـبـريائه، ويرضخ لمطالب هؤلاء الفلاحين والأجراء، أليس من السخرية أن يمد الباشا يده مصافحًا العبيد والحفاة العراة، وأدرك «بركات» ما يرزح الباشا تحته من شعور بالهوان والألم، فاستطرد قائلاً:

- إن ما يقدم عليه معاليكم إجراء مؤقت، نستطيع أن نمحقه عندما تستتب الأمور، وتنام الفتنة، وتعود الأمور إلى نصابها، وتنتهى الأزمة الوزارية، إن ناظر العزبة الجديد من السهل طرده فى أى وقت، والتعويضات التى ندفعها لهم سوف نستردها حتمًا بشتى الطرق، أما الشيخ الشاذلى وهو عقبة جديدة فلن يطول به العمر، لقد تقدمت به السن، وهو على أعتاب القبر..

وبدا للباشا أن كلام بركات الزنارى على جانب كبير من الصحة، فقال:

- لكن أتعتقد أن الشيخ الشاذلى سوف يفتح لى قلبه؟

- هؤلاء الدراويش يا معالى الباشا قلبهم مفتوح دائمًا مثل باب لا يوصد فى وجه أحد..

- أتعتقد ذلك يا بركات؟

- بالطبع، ويسميهم بعض الناس بلهاء لذلك، لكنهم يفعلون ذلك عن عقيدة وإيمان لا عن بلاهة وضيق أفق..

وقهقه الباشا فى مرح :

- الله يخزى شيطانك يا بركات . . لست أدرى هل أنت صوفى أم سياسى أم أديب . . إنك مجموعة من القاذورات .

- ربنا يطول عمر معاليكم . . أنت الخير والبركة . .

وفهم الباشا الأمر بجلاء، إنْ مفتاح القضية هو الشيخ الشاذلى، ويوم أن يرضى الشيخ، ويفتح قلبه فإن قلوب أهل العزبة جميعًا سوف تفتح على مصارعها، والفلاحون أبرز صفاتهم السذاجة، سرعان ما ينسون الإساءة والدم المراق والبيوت المحترقة، وقصة نجية عبد السلام، وتعود الأمور إلى نصابها، لكن هل رضى الشيخ وأهل القرية كفيل بالقضاء على الأزمة الوزارية؟ ارتطم هذا السؤال برأس الباشا فنقله فى التو إلى مجال المناقشة بينه وبين بركات، فابتسم بركات فى ثقة، كان يفهم سلفًا أن الباشا سوف يطرح هذا السؤال، وأخذ بركات يشرح الخطوات التالية، سوف يطلب من الفلاحين أن يصدروا بيانًا بعودة السلام والصفاء إلى القرية وأنهم يؤيدون الباشا، ويعلنون انتهاء كل أثر سيئ للحوادث المؤسفة، ويلقون تبعة كل ما حدث على رأس سلطان القتيل، وبعض الرجال المتهورين فى العزبة وهذا ما أثبته التحقيق فعلاً، وفى الوقت نفسه يحمل بركات مئات الجنيهات فى جيبه ويتصل بعدد من الجرائد، ويغدق عليها المال لتتحدث بمحامد الباشا،

وأخذه المنحرفين من رجاله بالشدة وتبرعه لبناء مدرسة ومستشفى ومسجد بالقرية، وقال بركات :

- كل ذلك أستطيع القيام به فى أسبوع واحد، ولا تنسَ أن تتبرع للمشروعات الخيرية بمبلغ كبير، وأن تدفع شيئًا للسراية، وتحاول جاهدًا أن تقضى سهرة ممتعة مع المندوب السامى . . وينتهى كل شىء . . وتموت الأزمة الوزارية، ويستقبلك صدقى باشا والوزراء بالأحضان . .

وارتاح الباشا كثيرًا لحديث بركات، وبث فى نفسه الطمأنينة والأمل، لكن صورة مفزعة ارتسمت فى خيال الباشا فأزعجته إلى حين، وسرعان ما ابتسم من جديد، وجاء صوت بركات حانقًا :

- لكن ماذا نفعل فى الدكتور ضياء الدين؛ إنه سبب الكارثة . . وبقاؤه مدعاة للمتاعب، وتهديد للمستقبل ولخططنا التى نضعها الآن . .

فقال الباشا فى هدوء :

- هذا ما أفكر فيه الآن . .

- أعترف يا باشا أنى عجزت عن القضاء عليه بعد أن أفلت زمام جريدة النهضة الوطنية من يدنا، لست أدرى ما حدث، ما الذى دهى رئيس تحريرها المأفون؟

وهز الباشا رأسه فى ثقة ثم قال :

- لقد مات ضياء الدين . .

- حقًا؟؟

- لا أعنى ذلك الموت المتعارف عليه ، وإنما أعنى أن قلمه سوف يسكت إلى الأبد ، وسوف يجد نفسه فى الشارع بلا جريدة . . وبلا عمل . .

وطرب بركات لحديث الباشا وقال فى لهفة :

- كيف؟ كيف؟

فقال عثمان باشا :

- لقد قرر وزير الداخلية سحب رخصة جريدة النهضة العربية وتعطيلها ، ولديه من الحيثيات والوقائع ما يدين رئيس تحريرها ومحرريها . .

وكاد بركات يرقص من شدة الفرح لولا بقية من حياء ولولا وجود معالى الباشا معه ، لقد انهار الأمل الكبير الذى يصنعه الفلاحون ، وانقض الحصن الذى يلجئون إليه ليسمع الشعب أصواتهم الجريحة ، وقضاياهم المثيرة ، واستطرد الباشا قائلاً :

- ولن يمضى وقت طويل حتى نلفق له تهمة أو نضع فى

مـسكنه بعض المنشـورات الخطرة، ونسـوقـه كـالكلب إلى السجن . .

وأظلت الباشـا غـمـامة حـزن طارئة، وتـغيـرت سـحنتـه، وثارت كبرياؤه وهتف فى صوت كالفحيح :

- لكنى لـن أستطيـع أن أنسى ما حـييت أنى طأطأت رأسى لهـؤلاء الفـلاحـين ذات مـرة . . والويـل لمن ينال من كـبـريائى وسلطانى .

□□□

[٢٥]

عاد محروس أفندى من القرية محطم القلب، كان ينقل خطاه فى صعوبة وهزال، وعيناه ظللتا نديتين دائمًا، كأنه يبكى طول الليل والنهار، وخبا الكثير من بريقهما، واتخذ مكانه فى دكان البقالة صامتًا حزينًا، والمشترون يهمسون فى صوت خفيض من آن لآخر: «البقية فى حياتك يا عم محروس.. كلنا لآدم وآدم من تراب.. لا راد لقضاء الله» والرجل يرد عليهم شاكرًا محتسبًا، ويناولهم البضائع، ثم يمضون. تاركينه وراءهم نهبًا للذكريات والألم وشتاء الشيخوخة الحزينة ويغمغم المسكين: «الناس جميعًا يذهبون، وأنا هنا وحدى.. وسلطان مات، وترك زوجة وولدين وبنتًا.. يذهبون وأنا وحدى وفى قلبى عالم كبير من ذكريات بشعة، الباشا فوق أريكته يرمينى بأقذع الشتائم، ويصمنى بالخيانة وينتهرنى تارة ويجعلنى ذئبًا أو كلبًا تارة أخرى، كل ذلك من أجل الانتخابات.. كان يريدنى أن أسوق إليه

عواطف الناس كقطيع من الغنم، وأنا لا أعرف.. وسلطان يضربنى ويقسو علىّ، فأخرج من القرية هائمًا على وجهى، باحثًا عن الحب والحنان.. لقد شكوتك إلى الله يا سلطان ودعوت عليك بالانتقام الإلهى.. ومت يا مسكين أشنع ميتة، وترك أسرة تعسة وسخطًا عارمًا، وأحسست بعد الكارثة أنى ظلمتك وقسوت عليك بدعواتى الحانقة.. أنت ولدى يا سلطان.. وأبو أحفادى.. وأنا وحدى يا حبيبى فى مدينة كبيرة، ليس فيها باشا واحد فحسب وإنما عشرات الباشاوات، وفيها إنجليز وخلق كثير لا أعرفهم ولا يعرفوننى.. الناس يذهبون كما ذهبت أنت، والحياة تضج بأنفاس اللاهثين والمتعبين، وأنا لا أرجو فى خضم هذا السوق الكبير سوى أن ألقى الله وألقاك وأسألك: كيف قسوت على أبيك وإخوانك الفلاحين، وكيف أغرقك غرورك فى بحر من الآثام فقتلت وأحرقت بيوت الأبرياء وسحقت شرف العذارى، لكنى لم أزل هنا أبيع وأشترى والحزن يملأ قلبى..»

وحوقل عم محروس وبسمل، ثم استغفر من وساوس الشياطين، ودعا الله من أعماقه أن يقيه فتنة الدنيا، وعذاب الآخرة وأن يغفر للخطاة والمذنبين، ولمح الدكتور ضياء الدين قادمًا من بعيد، فخفق قلبه بالحب والامتنان، ودخل ضياء الدين بعد أن ألقى السلام، وجلس فى ركن قصى هادئًا

خاشعًا كان يحترم شعور إنسان هدته مأساة، ولم يطل بهما الصمت فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث، وتكلم عم محروس عن أهل القرية أولئك الذين استقبلوه بالعناق والدموع. وتمتم:

- كل رجل هناك أتى لعزائى، وأسف لمأساتى، وأرادنى أن أنزل ضيفًا عنده، حتى خيل إلىّ أن هؤلاء الفلاحين لا يمكن أن يكونوا هم قتلة ابنى.. أنا واثق أنهم لم يقتلوه، أعنى لم يروا فيه سلطان بن محروس وهم يقتلونه.. لا شك أنهم كانوا ينتقمون من طغيان الباشا وكبريائه المدمرة تلك التى تجسمت فى ولدى المسكين المغرور.. إن قلبى يا ضياء يغفر لهؤلا الناس كل شىء.. إنهم طيبون أبرياء، لكن لعنة الشيطان القابعة وراء أسرار القصر الكبير تلاحقهم وتسود عيشهم والشيخ الشاذلى -عفاه الله- يجلس فى بيته والوضاءة فى وجهه والمسك يفوح من أردانه، تشم فيه رائحة النعيم والجنة، واستقبلنى الشيخ فى عاطفة جياشة وقال: بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿أَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠].. صدق الله العظيم.. هذا ما قاله الخضر -عليه السلام- لموسى عندما

لامه على قتل الغلام الشقى . . ولله فى خلقه شئون يا شيخ محروس . . » .

واستمر عم محروس يحدث الدكتور ضياء عن أولاد سلطان وزوجته، وأن أمر الأسرة الناشئة قد أزعجه وضاعف حزنه وأساه، وأنه لم يخرج من القرية إلا بعد أن اتفق مع ابنه الأعزب -شقيق سلطان- على أن يتزوج من أرملة أخيه ويأوى عيالها، وتعهد محروس أفندى بمعاونته فى حياته المعيشية .

وأراد ضياء الدين أن يبدد جو الاكتئاب الذى أضفاه على الدكان حديث سلطان ومقتله ومستقبل أسرته، فقال :

- وكيف تركت أهل القرية؟

- تركتهم وأنا راضٍ عنهم، وهم يدعون لك آناء الليل وأطراف النهار . .

- والباشا؟

- عاد إلى القرية ذليلاً يستجدى رضاهم، ويضمد الجراح، ويداوى القلوب المريضة، زار مولانا الشيخ الشاذلى وملأ أذنيه بعبارات الندم والتوبة والاعتذار، ودفع التعويضات، لكن الفلاحين رفضوها بحجة أنهم يأنفون أن يبيعوا دماءهم المراقة بمال . . وبالاختصار سويت الأمور فى محضر الشيخ الشاذلى ووجود مدير الغربية، ولما سأل أهل القرية عن رجل

يرشحونه لنظارة العزبة اجتمعت كلمتهم عليّ أنا . . يريدونني أن أعود إلى النار بعد أن نجاني الله منها . .

فقال ضياء :

- هل رفضت رجاءهم؟

- بالطبع لقد أعتقت روحي ولن أضع قيود العبيد في ساقي من جديد . .

الحمد لله كثيرًا . .

ثم قبل كفه ظهرًا لبطن، حينما قال ضياء :

- ومن وقع عليه الاختيار بعدك إذن؟

فابتسم محروس ابتسامة شاحبة وقال :

- أخوك الحاج رضوان . . لكنه هو الآخر تمنع، إنه يريد أن يعيش مثلي في سلام . بعيدًا عن الشبهات والقاذورات . .

- وماذا فعل الباشا بعد ذلك؟

- قالوا إنه سوف يستقدم ناظر عزبة سابقًا كان قد فصل من عمله في عزبة مجاورة .

وأظهر ضياء شيئًا من الرضى عما وصلت إليه الأمور في القرية، وحمد الله كثيرًا أن عاد إليها السلام والاستقرار، بعد

البلبلة والاضطراب والقلق، فقد كان يحس إحساسًا عميقًا أن استمرار الأزمة سوف يكبد الفلاحين خسائر فادحة فى أرزاقهم، فتدفعهم الحاجة إلى بعض التصرفات التى تضر بسمعتهم واتحادهم، ولم يغب عن ذهن ضياء أن الباشا لم يلجأ إلى سياسة اللين والمهادنة إلا مضطرًا، ولم يحن رأسه إلا تحت ضغط شديد، ولا شك أن تظاهر الباشا بالخضوع سياسة مؤقتة لن تستمر طويلاً، وسرعان ما يستعيد سلطانه، ثم يحكم قبضته الحديدية ويعود من جديد إلى سياسة الإرهاب والدس والوقيعة.. إن ما فعله الباشا جزء من خطة شيطانية.. لقد امتلأت الصحف ببيانات مختلفة عن تأييد عثمان باشا وتجديد الثقة به، وسير أهل الدائرة صفًا واحدًا وراءه، واستطاع الرجل بماله وخبثه أن يفلت من الاستقالة التى أوشك أن يقدمها على الرغم منه. وقام عم محروس وأشعل موقده الكحولى وأعد فنجانين من القهوة، وعندما قدم للدكتور ضياء واحدًا سمعه يقول:

– ماذا قالوا عن الزواج يا عم محروس؟

وظن عم محروس أن ضياء يحاول أن يلجأ من جديد إلى مداعباته القديمة، حينما كان يقول لعم محروس لا بد أن تبحث لك عن عروس جميلة قاهرية، فاغتصب الرجل ابتسامة واهنة وقال:

- لم يعد بى رغبة لشىء . . إننى أعيش حسبما أتفق راجيًا رحمة الله .

- لكنى مصر على أن تعرف لى الزواج .

وأمام إلحاح ضياء ، تمتم عم محروس :

- قالوا نصف الدين . . وقالوا شر لا بد منه .

وضحك ضياء وقال :

- كلا التعريفين لا يتعارض مع ما اعتزمته . . غدًا سوف أتقدم بطلب يد زوجة طيبة .

فقال الشيخ :

- ألف مبروك يا بنى ، ربنا يتمم بالخير ، خيرًا فعلت ، إنى أعرف الآن ما يدور فى رأسك ، أتحسبنى أنقم على صنيعك وأعتبرك غير محترم لأحزانى؟ كلا يا ضياء . . لقد خطبت أرملة سلطان لولدى الثانى كما قلت لك قبل أن يجف دم المسكين ، أما زلت تشك فى حبى وتقديرى لك برغم الأحداث والسنين وهذه اللحية البيضاء . . سامحك الله .

وأضاءت ابتسامة الرضا وجه ضياء ، وقال :

- ستكون معنا غدًا .

- أنا؟ لا أظن . . سأكون فى سيدنا الحسين، نقيم الأذكار والصلوات، وسأقرأ لك الفاتحة بالتوفيق والسعادة . .

***

ولم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة لعم محروس وحده فقد كان ذلك بالنسبة لصفاء نفسها، لم تحسب مطلقًا أن ضياء سوف يخرج من صمته وتقاعسه هكذا دفعة واحدة، ويهمس فى أذنها بالكلمة الحلوة الشائقة التى سرت بالنشوة والسعادة فى كيانها كله، وسرعان ما انتزعت نفسها منه، وغادرت دار الجريدة فى غير مواعيد الانصراف، وعيناها تطفحان بشرًا، وقصدت أمها على الفور لتحمل إليها النبأ السعيد .

وابتسمت الأم، ورقص قلبها، وقد تجسم أمام عينيها كفاح السنين فى صورة رائعة جميلة حملت بها دهرًا، وقالت ودموع الفرح تنهمر فوق خديها :

- يوم المنى يا بنتى .

ثم أطلقت زغرودة عالية اهتزت لها جنبات البيت كله .

أما الأب فقد تنحنح، ورفع هامته فى كبرياء وسرور وقال :

- سيكون الدكتور ضياء الدين ابنًا ثانيًا لنا، كم أحب هذا الرجل . لست وحدى بل إن عشاقه يعدون بالآلاف، إنه صاحب قلم لا يشق له غبار، وصاحب رسالة كبرى . .

واستلقت صفاء فوق سريرها، بدا لها أن الحجرة الصغيرة أضيق من أن تحتمل سعادتها، وتسع نشوتها، كل شيء حولها رائع جميل، الستائر المتواضعة فوق النوافذ وهي تهتز تحت لمسات الهواء الرطب، المكتب الخشبي القديم وفوقه الأوراق والصحف والأقلام المتناثرة.. وعلى الحائط صورة «جمال الدين الأفغاني» بعمامته ولحيته الثائرة وعينيه القويتين اللتين تنفثان الثقة والعزم والإيمان، واللوحة الزيتيه ذات الألوان الصارخة وفيها النيل والسفن الشراعية وبضع نخلات، والسماء الزرقاء الفاتنة، ودورق بلوري ممتلئ لثلاثة أرباعه بالماء يبدو كالفضة الذائبة.. أجل كي شيء رائع وجميل، حتى الذكريات المريرة أروع ما تكون. إنها سطر مجرد سطر من كفاح شاق طويل.. رئيس التحرير.. وبركات الزنارى. الانفجار المروع ليلة عيد الميلاد، الذئب الذي قذفت به أيدي الرجال الأحرار إلى أعماق النيل مقبرة الغزاة والمعتدين.. كل شيء.. كل ذكرى بآلامها وأفراحها، تبعث الطرب والنشوة في قلبها الغض المتوثب.. سوف تتزوج وستنجب أطفالاً ودعاة كالبراعم الندية.. كالزهور التي لم تكد تتفتح.. وضياء الدين إلى جوارها أشرف رجل عرفته وسط الذئاب الماكرة.

وحينما عاد ضياء إلى شقته كان وحيداً مثلها إلا من

ذكريات ماضيه، وآمال غده، لطالما انتظر الوقت المناسب الذى يقول فيه لصفاء إنى أحبك وأخطبك لنفسى، لكن الأحداث كانت تتوالى، والأزمات يأخذ بعضها برقاب بعض، وماكينات الطباعة لا ترحم، إنها دائمًا فى انتظار المقالات فهى تدور وتدور، تحتضن الأوراق البيضاء، وتتركها وقد امتلأت بالسطور والصور، حياة مليئة كل ما فيها حبر وأوراق وأقلام ومشاعر محتدمة . .

وصفاء فى رأى ضياء الدين فتاة طيبة نبيلة مكافحة سبقت عصرها، وحملت عبء النضال معهم كإنسانة شريفة، وسجلت بكل فخر أن المرأة جديرة بأن تفعل الكثير . . ثم إنها . . جميلة وروحها الوضيئة الشفافة تلقى على سماتها وملامحها معنى آخر للجمال أشد فتنة وروعة . . أجل كان ضياء غارقًا فى أحداث وطنه الجسام .

فماذا يحدث إذا ما تزوج؟ هو الغريق فما خوفه من الليل؟ ليكن غريقًا فى الأحداث وفى الحب أيضًا . . والأحداث نابعة من حبه لوطنه ولجماهير شعبه المناضل، وزواجه نابع من حبه لفتاته التى تحمل راية الكفاح معه من أجل شعبها المناضل . . كل ما يحسه ضياء أنه يعيش فى معركة حب كبير له مظاهر عدة . .

وغداً يجتمع الشمل، ويتردد الغناء فى صحن دارها، ويحمل إليه الرفاق المحررون باقات الزهور، ويلقون قصائد التهانى، وأزجال المرح الخفيفة، ويجلس إلى جوارها، والعيون تصافحهما بنظرات الحب والصفاء وأخوه الحاج رضوان وبعض رجال القرية سيحضرون الحفل الصغير، ويباركون الرباط المقدس، ويشعر ضياء بالقلوب الطيبة تخفق من حوله وتدعو له بالسعادة وطول العمر . .

وفى مساء اليوم الثانى كان الحفل صورة مجسمة لكل ما حلم به ضياء وحلمت به صفاء، اللمبات الكهربائية بألوانها المختلفة تبهر أنظار الحاضرين وباقات الزهور يضوع شذاها، وأكواب الشربات تأتى ملأى وتعود فارغة، وفتيات صغيرات، وصديقات كثيرات لصفاء، ونسوة يباركن للأم ورجال على المعاش يحيون الأب ويستعيدون معه ذكريات الليالى الخوالى، وضحكاتهم تنطلق وتهز أرجاء الصالة الفسيحة، والأطفال يرتعون ويضحكون ويمرحون، وأغانى الفرح تتردد على وقع التصفيق المنغم وضياء الذين يستشعر غير قليل من الخجل، ويتمنى من أعماقه أن تنفض هذه المظاهرة الصاخبة ويعود إلى الهدوء والسكينة والأحلام الجميلة . .

وأفاق ضياء الدين على رجل يشق طريقه نحوه، حاملاً باقة كبيرة من الزهور، ويمضى رافعًا رأسه فى كبرياء، وابتسامة بلا معنى فوق ثغره، واقترب منه وانحنى قائلا :

- «مبروك يا أستاذ ضياء. . ».

ثم صافح العروس وقال دون أن يرفع نظراته إليها :

- مبروك يا عروسة.

لقد جاء الوغد بركات الزنارى يحمل باقة من الزهر، ويرفع التهانى لامرأة سحقت قلبه، ومرغت كبرياءه فى التراب، وليصافح رجلا احتقر قيمه الفاسدة، وسلوكه الملطخ، وسرى شىء من الامتعاض فى قلب ضياء وصفاء، وأوشك الوجوم أن يفرض سلطانه، لكن موجة عاتية من الزغاريد اكتسحت أمامها كل الشوائب، والتفت ضياء الدين إلى صفاء، وتلاقت نظراتهما معًا، قبلات صامتة من بعيد، وابتسامات نابعة من الأعماق تنشر بريق السعادة.

ووضع بركات باقة الزهر وتسلل خارجًا.

وفى الطريق كان ضجيج الفرح ينبعث إليه خافتًا مرحًا، وهو يعض على أنامله من الغيظ، ويلهب نفسه بسياط اللوم، ما الذى أتى به الساعة؟ هل جاء ليتيح لهما فرصة التشفى والسخرية. . أم أراد أن يشوه متعة الليلة، ويؤلب عليهما

المواجع، ويعود بهما القهقرى حيث الجو المكفهر المليء بالشائعات والأكاذيب؟ جاء بركات يتشفى ويثير الحنق والمرارة، لكنه كان أعجز من أن يعترض شلال الضوء الباهر بوجهه الأسود، وأضعف من أن يحطم سعادة الآخرين بقلبه الحانقة الموتور الذى تتلوى بداخله حيات سوداء، وخرج ذليلاً ضائعًا تنهشه الغيرة، ويأكل الحسد كيانه . . ومع ذلك فقد ابتسم بركات مواسيًا نفسه، فابتلع الظلام ابتسامته الصفراء .

□□□

[٢٦]

مر الأسبوع الأول بعد الخطبة وكأنه حلم جميل، ضياء يقبل على العمل فى همة ونشاط، وصفاء قد ازدادت إشراقًا ونضارة وثقة بنفسها، فهى تأتى دار الجريدة فى الصباح الباكر، كوردة ندية، وتظل تعمل دون أن تستشعر أدنى تعب أو ضيق، ورئيس التحرير كان نبيلاً فى سلوكه معهم إذ سرعان ما رفع مرتب كل منهما وأهداهما ساعتين ذهبيتين باسم جريدة النهضة العربية تقديراً لخدماتهما، وتعبيراً عن رضاه عن سلوكهما وعفة مبادئهما.. أما بركات الزنارى فقد كان يمسك جريدة النهضة العربية التى نشرت صورة ضياء وصفاء ثانى يوم الخطبة، ويدقق فيهما النظر حانقًا حاسداً، وكأنه يستمد من سعادتهما الواضحة وقوداً لنار حقده وغيظه، ويتمتم: «سيظلان يحلمان بالمثاليات الفارغة، ويتعسفان المبادئ الزائفة، حتى يحترقا، وعندئذ أبصق فوق كبريائهما بكل احتقار..» وكان أمر بركات غريبًا حقًا، فقد كان فى منصب

يحسد عليه، يقبض منه مرتبًا ضخمًا، فضلاً عما يقتطعه لنفسه من المصروفات السرية التى يقوم بتوزيعها على عملاء الباشا وألسنته وأقلامه فى المحافل والصحف، وقصر الباشا أيضًا ميدان مباح لبركات يصول فيه ويجول، يسرق اللذة الحرام، ويعيش مع سيدة القصر حياة كلها إثم وريبة وضلال، وصاحب المعالى نائم عن غزوات سكرتيره الصحفى، غارق فى مشاكل العزبة والوزارة، وأبناؤه يتنقلون من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى لبنان أو أوربا، حياة ممزقة متسخة بلا نظام أو معنى، الرجال يلبسون مسوح الرهبان تارة، وأردية الشياطين تارة أخرى، يقضون الليل متيقظين، والنهار نائمين، الزوج غريب مكروه، والغريب حبيب مقبول، تنتقل إليه حقوق الزوج، والرءوس تدور، والآثام تربو، والعالم يمضى أمام أعينهم مهزوزًا مترنحًا وكأنه شرب الخمر مثلهم، والذئاب تعوى وتعربد وتسرق وتبدد المال وتفترس بلا ضمير..

***

وقام ضياء الدين من نومه نشطًا سعيدًا كعادته كل صباح بعد الخطبة، متفائلاً أيما تفاؤل بالمستقبل بعد أن نجحت دعوته إلى الاتحاد بين الأحزاب، وأخذت المظاهرات تتدفق من

الجامعة والمدارس والمصانع والشركات، ووضع الجميع ميثاقًا لهذا الاتحاد وقرروا ألا يكفوا عن النضال حتى تنجاب غشاوة حكم الظلام، وتعود للشعب كلمته فيختار من يشاء، ويقول الكلمة التي تعتمل في ضميره، كما ازداد عدد أفراد التشكيل السري الذي يرأسه الدكتور ضياء، واستطاعوا أن يؤلبوا الكثيرين ضد الطاغية، ويجعلوا لأنفسهم كلمة مسموعة، وتأثيرًا في الجماهير التي تطلب الحرية والعدالة والاستقلال. . وقام ضياء وهو يتمطى ويتثاءب، ثم قصد الصالة، ودار بنظراته في أرجائها باحثًا عن الجريدة فقد اعتاد بائع الصحف أن يقذف بها من تحت الباب، ولما لم يجدها أرسل البواب ليحضر له واحدة، وكم كانت دهشته عندما عاد البواب خاوي اليدين ويقول:

- قال البائع أن الجريدة مصادرة . .

وارتسم الضيق الشديد على وجه ضياء، وهمس لنفسه: «هؤلاء المجرمون يصادرون الجريدة بعد أن تم طبعها، ويصيبون ميزانية الجريدة بعطب شديد، إنها لكارثة كبرى قد لا تحتملها أعصاب رئيس التحرير المريض. .» وارتدى ضياء ملابسه على عجل دون أن يتناول طعام الإفطار، وقصد لتوه دار الجريدة، وطول الطريق كان يرسل كلمات حانقة ثائرة:

«الأيدى القذرة هى التى تملك الزمام، وتقرر مصير الأحرار، وتسجن الكلمة الشريفة، وتعوق ركب التطور والحرية . . إنهم مجرد أدوات حقيرة، ووسائل سافلة فى يد المستعمر، ولو فكر هؤلاء الأوغاد لعلموا أنهم لا يطعنون معارضيهم فحسب، بل يطعنون أمتهم فى الصميم، ويجنون جناية بشعة على مستقبل الأجيال وكفاح الأمة التى حكموها بالحديد والنار . . والمسكين رئيس التحرير ليس لديه رصيد ليغطى خسائر الجريدة وينقذ مستقبلها من الضياع، والإعانات والمصروفات السرية لا تعطى إلا لمن يسير فى ركاب الحاكمين ويسبح بمجدهم ويطلق فى موكبهم الأرعن البخور، وقصائد المديح والثناء والبطولات الكاذبة . . لكن . . لا بأس، لسوف نجوع ونعرى . ونتنازل عن نصف مرتباتنا حتى نرأب الصدع، ونداوى الكارثة المالية التى حلت بالجريدة ونسير . . لأنه يجب علينا أن نسير ولو صدرت الجريدة وهى مكتوبة بالأقلام الرصاص . . » .

وبلغ دار الجريدة، النوافذ مغلقة، وكذلك الأبواب مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر، والمبنى الكبير يقبع فى صمت ذليل شاحب، وأمام المبنى تقف عربة من عربات الشرطة، وضباط وعساكر مبعثرون هنا وهناك بأيديهم العصى الغليظة، وعلى رءوسهم القبعات المعدنية، وساورت ضياء الدين الشكوك .

أية جريمة ارتكبتها الجريدة حتى يحاصروها بمثل هذه القوة ويغلقوها بالشمع الأحمر؟ وغذ السير ناحية الباب المغلق، فاعترضه ضابط برتبة صاغ، وهو يقول فى رقة :

- صباح الخير . .

- ما هذا؟

- معذرة يا أستاذ . . نحن هنا لتنفيذ الأوامر الصادرة من الداخلية، وقد سحبت رخصة الجريدة، وصدر أمر بإغلاقها . . ».

فهتف ضياء فى دهشة :

- «رخصة الجريدة» .

- أجل . .

- لكن هذا لا يصح إلا بحكم قضائى . .

فلوى الضابط شفتيه فى يأس وقال :

- القضاء؟ نحن لا نتلقى أوامرنا من هناك . .

فصرخ ضياء فى غيظ :

- أعرف كل شىء . . أوامركم من هناك . . من الموتورين أعداء الشعب والحريات . .

فلم يفقد الضابط اتزانه، بل ظل محافظًا على سمته الهادئ، وتمتم:

- هذا خطير.. تحاكم عليه..

- أليس هو الحقيقة؟

- الحقيقة الأكيدة هى أن الجريدة معطلة بعد أن سحبت رخصتها، ونحن هنا لتنفيذ الأوامر، ولسنا على استعداد لأن ندخل فى مناقشات سياسية وقانونية..

وهم ضياء أن يصرخ فيه مرة أخرى، لكن يدًا حانية كانت فى هذا الوقت، تلامس كتفه، ثم تمسك براحته، وتأخذه بعيدًا، كانت صفاء تمشى إلى جواره صامتة حزينة، وهو كالبركان يوشك أن ينفجر ويقذف بالحمم دون تعقل أو رزانة، وشعر برغبة عارمة فى أن ينطلق إلى كل ناحية ليقتل ويدمر ويرفع عقيرته منددًا بالخونة والعملاء، ويثير جماهير الشعب كى تنطلق وراءه كسيل جارف يغرق الحواجز، ويحطم رءوس الشياطين، ويكتسح أمامه كل العقبات.. لكنه.. ماذا يفعل؟ مجرد إنسان واحد، الحديد والنار والشرطة والسلطان والاحتلال تلك القوى الخبيثة كلها تواجهه.. الحقيقة المؤلمة التى تصفعه بمرارتها كل مرة فيفيق إلى نفسه.

وسمع صوت صفاء مرتعشًا متألمًا:

- كان هذا متوقعًا .

- لكنه لا يستند على أى أساس قانونى.

فضحكت صفاء فى مرارة، هل ضياء الدين فى حاجة لأن تشرح له الأمور، وتجلى له الحقائق التى يعرفها والتى تناولها دائمًا فى مقالاته؟ واكتفت بأن قالت :

- الاحتلال، هل له سند قانونى؟ حزب الشعب . . الانتخابات المزيفة . . قرارات الضغط والإرهاب، قتل المواطنين بالمئات . . عزب الباشاوات وما فيها من مآس . . الفساد والرشوة . . وقاموس الخطايا الكبير مرجع الطغاة والمستغلين . . هل لهذا كله سند قانونى؟

وهز رأسه مصدقًا لما بين يديه، وقد خفت حدة التوتر لحد ما، ثم توقف عن المسير، والتفت إليها قائلاً :

- أين نحن؟

فقالت ضاحكة :

- فى الشارع .

- فى الشارع؟

- لماذا تضحكين؟ أقول إلى أين نسير؟ هل يدعو هذا للضحك؟

- رئيس التحرير والمحررون يجلسون هناك فى المقهى القريب، وهم فى انتظارك.

وسارا جنبًا إلى جنب.

كانا يفكران فى القضية الكبرى.. قضية وطنهم الجريح.

ويفكران أيضًا فى قضيتهم هم.. المستقبل أصبح مهددًا.. من أين يأتى المال اللازم لبناء أسرة؟ وكيف يحصلان على الاستقرار والسعادة المنشودة؟ ووصلا إلى نتيجة حتمية طالما وصلا إليها مئات المرات من قبل، لا ضمان ولا استقرار ولا سعادة فى ظل الطغيان.. قريته تتململ وتغرق فى الفتن والكوارث والدم المراق والنار المشتعلة.. جريدته يخنقها الكبت ومصادرة الحريات.. سعادته الشخصية يحطمها التحدى والتهديد ومحاربة الأرزاق. وعندما وصلا إلى المقهى كان الصحاب يجلسون وفى مقدمتهم رئيس التحرير، وكأن الجميع فى مأتم صامت حزين، وعندما رآهما رئيس التحرير تمتم:

- هل جئت؟

- أجل.. وأعترف أنى أسأت إليك.

- لِمَ؟

- سياسة العنف والهجوم التى ورطت الجريدة فيها .

فابتسم الرجل العجوز فى سعادة وقال :

- على النقيض تمامًا . . إنى أشكرك وأشد على يدك فى حماسة وود كبيرين . .

أشعر الآن أنى قد فعلت شيئًا ، وأرضيت ضميرى وقدمت شيئًا لبلدى ، وأسهمت فى قضيته الكبرى . . ولو مت الآن لقضيت سعيداً مرتاح البال . . الحمد لله . .

واطمأن ضياء فى جلسته وهمس :

- أى عزاء رقيق ، ومجاملة فذة أستمع إليهما !

- أقسم إنى أقول الحقيقة . .

- حسن . . لكن ماذا تفعل الآن؟

فقال رئيس التحرير فى حيرة :

- لا أعرف ما يجب عمله بالضبط . . الأمر جد شائك وخطير ، ولن نجد جهة واحدة تناصرنا ، فقد أسأنا- ولله الحمد- إلى الجميع . .

وتحلق الجميع حول منضدة كبيرة ، وأخذوا يتبادلون الرأى . وقرروا ألا يستسلموا لأوامر الحكومة ، فهم أصحاب حق مشروع ، من الخيانة أن يسكتوا عنه ويتركوه يضيع ، واتفقوا على

أن يرفعوا الأمر للقضاء، وأن يتولى ضياء الدين- كمحامٍ- الدفاع عن القضية بكل ما أوتى من قوة، وقد تساندهم الظروف الحرجة التى تمر بها الوزارة، فهى فى وضع لا تحسد عليه، والمظاهرات الصاخبة تجوب الشوارع فى العاصمة والأقاليم، والميثاق الوطنى الذى يضم جميع الطوائف والهيئات قد أوقعها فى مأزق خطير، وهى الآن تتخبط ولا تدرى ماذا تفعل، بل تصدر مزيداً من القرارات الجائرة، وتلجأ إلى البطش والوعيد، وتدخلت صفاء مقاطعة وقالت:

- وقد نشرت الأهرام اليوم حديثًا خطيراً لعثمان باشا وزير المواصلات سوف يثير ثائرة الشعب، وأؤكد لكم أن الثورة سوف تجتاح مصر اليوم بسبب هذا الحديث..

والتفت ضياء الدين إليها قائلاً:

- بماذا صرح؟؟

- قال إن العلاقة بين مصر وبريطانيا زواج كاثوليكى أبدى لا طلاق فيه..

وكان واضحًا أن عثمان باشا يحاول تدعيم مركزه ومركز الوزارة التى هو عضو فيها بإظهار نواياه الحسنة للمندوب السامى وقوات الاحتلال، ولو أثار هذا حقد الشعب وحفيظته وأدى إلى ما لا تحمد عقباه من تمرد شعبى كبير.

وقال ضياء وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

- المجنون يسجل على نفسه عار الأبد، وعقم التفكير . .

وجاءت صفاء تقول مرة أخرى :

- لماذا لا نخرج الآن فى مظاهرة صغيرة، نعلن فيها سخطنا واحتجاجنا، ونعلن تحدينا للقرار الجائر الذى أصدرته السلطات لإغلاق الجريدة؟ وكم كانت دهشة الجميع عندما قال رئيس التحرير :

- فكرة رائعة، وسأشترك معكم . .

لم يصدقوا آذانهم، ونظروا إلى الرجل العجوز المريض، فوجدوا تعبيرات وجهه تنطق بالصدق والإصرار والتحدى .

- كم أكون سعيدًا يا أبنائى وأنا أسير بينكم لنحمى شرف الكلمة، ونسقط أعداء الحرية أولئك الذين يعتبرون، الاحتلال أمر لا مفر منه ويظنونه زواجًا كاثوليكيًا . . العلاقة النجسة الحقيرة يسميها زواجًا . . أية وقاحة!!!

وخرجت المظاهرة الصغيرة . . المحررون والسعاة وخدم الدار، وفى المقدمة رئيس التحرير وإلى جواره صفاء تحمل لافتة كبيرة، عليها شعارات تدعو إلى الحرية والعدالة وتنقم على الاستعمار، وبصوتها النسائى الرفيع أخذت تردد الهتافات الصاخبة : الحرية- الحرية يا أعداء الإنسانية . .

يسقط العملاء.. عاشت وحدة وادى النيل.. جريدة النهضة العربية تحيى كفاح الشعب الباسل..

وكلما قطعت المظاهرة شوطًا فى سيرها انضمت إليها وفود الشباب والفتيات، وتعالى الهتاف قويًا صاخبًا كالرعد القاصف..

والتفت رئيس التحرير خلفه فوجد خلقًا كثيرًا يزحفون وراءه، يرددون الهتافات فى إصرار وقوة، فمال على أذن ضياء الدين وقال:

- كم أنا سعيد؟

فرد عليه ضياء قائلاً:

- انظر إلى بعيد.

ورفع الرجل عينيه، كانت عربات الشرطة تتبعهم، ورائحة الغدر تفوح، وأصوات الجماهير تهتف: يسقط عثمان باشا الخائن.. الموت للخونة ومع ذلك، فقد ابتسم رئيس التحرير وقال:

- هذا يضاعف من سعادتى..

***

لم تكن هذه هى المظاهرة الوحيدة، عشرات المظاهرات

قامت فى كل مكان تعلن سخطها على تصريحات عثمان باشا، وحدثت اشتباكات دامية أوعز بها رجال الاحتلال والخونة، الذين أرادوا أن يسكتوا كل صوت يهتف بالحرية . .

وخطب ضياء الدين خطبة نارية خطيرة، فالتهبت المشاعر، وتعالت الهتافات، وما إن انتهى من كلمته حتى دعا الجميع إلى الانصراف فى هدوء دون أن يلجئوا إلى تخريب أو تدمير . . وما إن انفضت المظاهرة حتى أحاطت به وبالمحررين شرذمة من رجال الشرطة، وساقوهم إلى المعتقل ومنهم رئيس التحرير، ولم يتركوا غير صفاء . .

❑❑❑

[٢٧]

هدأت العاصفة، وانجلى غبار المعركة عن حقيقة مرة ألمة، وهى أن ضيـاء الدين يتلوى كـالأسـد الحـبـيس فى أعـمـاق السجون، مع غيره من الأحرار، وأن صفاء هى الأخرى تقبع فى بيتـهـا دامعة العين، ثائرة النفس، تفكر فى المصير التعس الذى آل إليه شأنها بعد أن فقدت- ولو إلى حين- رجلها ورائد كفاحها- وفقدت عملها، وفقدت أيضًا فرصة الذهاب معهم إلى السجن، ولو تمت لها هذه الرغبة الأخيرة، لانقشعت عن نفسها سحب الألم الممض، والعذاب النفسى الشديد، وهى هكذا وحيدة بلا عـمل وبلا أصدقـاء، كانت مرتاحة البال- برغم مشاكلها - لأنها كانت تلقى بنفسها فى غمار العمل، وتنسى أحزانها الذاتية فى خضم النضال، وتمسح عن قلبها الكثير من الهموم والأشجان وهى تتطلع إلى عينى ضياء الدين الصافيتين الواسعتين. .

وقضت صفاء بضعة أسابيع على هذه الصورة التعسة من

الوحدة والبطالة وذكريات الأيام الماضية الجميلة، التى مضت وكأنهما حلم شائق رائع. كانت ذكريات حلوة لكنها تحس الآن أنها أجمل بكثير مما كانت تتصور، لكن إلى متى تظل صفاء تحلم بلياليها الخوالى، وتسكب دموع الأسى على ذكريات فائتة، وحبيب غائب، ونضال جبار، وعمل متصل؟ إن انقطاع مرتبها قد أوقع الأسرة فى مشكلة، وأرهق ميزانيتها أيم إرهاق. وأصبح يهدد مستواهم المعيشى، والقبض على ضياء الدين الزوج المرتقب قد حلف فى النفوس خيبة أمل كبرى ويأسًا قاتلاً، ثم إن تجميد الأوضاع على هذه الصورة لن يفيد طرفًا من الأطراف أو تجنى صفاء من ورائه أية فائدة..

وسمعت صفاء همسًا يدور حولها: أمها متذمرة تنقم على ضياء الدين الذى يوقع نفسه فى المشاكل، ويتعرض لمن هم أكبر منه مركزًا ومقامًا ويتحدى الحكومة، ولو كان عاقلاً رزينًا يقدر مصلحة نفسه ومصلحة ابنتهم، لبعد بنفسه عن مثل هذه الورطات وتجنب الوقوع فيها، ثم تزعم الأم أن ابنتها سيئة الحظ، قاصرة التفكير لا تحب إلا من يجلبون المتاعب ولا تقبل زوجا لها إلا من بين الفئة الثائرة المتمردة التى لن تفكر فى مستقبل الأسرة، ومصالح الزوجات، غير أن الأب أفهمها أن المسألة ليست مجرد زواج عادى هو كل ما تفكر فيه، وأنها يجب أن تكون أبعد نظرًا، وأعمق فهمًا للمشاكل والأحداث،

ثم أثنى ثناء عاطراً على تصرفات ضياء الدين وسلوكه الشخصى والعام، لأنه رجل وطنى مكافح صاحب رسالة نبيلة، وصاحب قلم حر يشهره كالخنجر فى وجه الخونة والأعداء والمستغلين، وليس اعتقاله شيئًا يبعث على الخجل والعار وإنما هو شرف أى شرف، ومنزلة كبرى يحمدها له الله والناس، فزمجرت الأم فى ضيق:

- أنا لا أفكر إلا فى شىء واحد . . هو أن أرى ابنتى زوجة لرجل مرموق . .

- بالضبط يا أم صفاء . . لكنك تتعجلين الأمور . .

- إنى أبحث عما تركه ضياء الدين فلا أجد إلا بضع أوراق وأقلام، وكثيراً من المتاعب، ولا شىء غير هذا . .

فأكمل الأب فى لهجة واثقة:

- وترك ذكرى عاطرة، وسيرة بطولية، ودوياً لا يخفت . .

وأضافت الأم حانقة:

- وترك ابنتى ضائعة تبكى أملها الضائع، وخيبة رجائها . .

وهكذا بقى الأب والأم فى معركة مستمرة، يتكتمون إشعالها، لكن لهبها يلفح وجوه من بالبيت، ودخانها ينطلق كالفضيحة فى أروقة الشقة، فتشم صفاء رائحة النقمة الصادرة

من أمـهـا، وتـشم النبل الرائع الذى يتـحلى به أبوها فى دفاعـه عنها وعن زوجها المناضل الحر . .

وأدركت صفاء بعقلها الواعى، وفكرها الثاقب، أن أخطر مـسألة تهددها الآن ليست ثورة أمها وحنقها عليها وعلى ضياء، وإنما العجز المالى الناتج عن بطالتها هو ما يجب التفكير فيه الآن، لأنه مصدر البلاء والحنق المستوليين على أمها التى لا تعرف كيف تخفى تذمرها، وتدارى مشاعرها . .

وفى صبيحة أحد الأيام ارتدت صفاء ملابس الخروج، واختطفت حقيبة يدها، وهرولت خارجة، وهى لا تعرف مكانًا بالذات تقصده، ومشت فى الشارع موزعة النفس مبلبلة الفكر، تفتش فى ذهنها عن مخرج من هذه الأزمة التى تأخذ بخناقها، وتوقع أسرتها فى قلق وحيرة، ومن آن لآخر يطل عليها خيال ضياء الدين مضيئًا عذبًا كالأمل البسام، كنبع الماء الصافى فى صحراء حياتها العاصفة المكفهرة، ويخيل إليها لفرط اندماجها فى التفكير، واستطرادها فى الوهم، أنه يلوح لها بيده محييًا ومشجعًا، كانت الثقة دائمًا فى عينيه، وكان لا ييئس أبدًا ولا يخاف، بل يخوض الأخطار بهمة وثبات، لا يعرف التردد والوهن، وكأنما خلق لينطلق . . ليسير إلى الإمام، لا يعرف الإحجام ولا النكوص، يعيش كالملاك الطاهر فى دنيا من ذئاب وأفاعٍ، ويتحدى جيش النفاق وأعداء

الحرية فى صلابة لا تعرف القهر، وإصرار لا يعرف الخنوع، وثقة فى النصر لا تعرف اليأس.

وبلغت شارع فؤاد، الناس يتقاطرون عليه من كل صوب، والجماهير تزحم الطريق، وتكاد أكتافهم تتلامس، كل يشق طريقه وسط الزحام فى حرص، وفى رأسه لا شك عشرات المشروعات والأحلام الذاتية، والذكريات الكثيرة، وهى الأخرى وسط الضجيج، وبين أمواج هذا البحر الصاخب تحاول أن تجد لها مكانًا، وتبحث لها عن طريق، عن طاقة نور، عن ليلة القدر التى يقف قبالتها المحتاجون والضائعون يصرخون بالدعاء، ويبعثرون الآمال تحت أقدامها لعلها تحنو على القلوب الجريحة، وتستجيب للدعوات المنطلقة فى حرارة ولهفة وإيمان ودموع.

وأمام إحدى الشركات الكبرى توقفت عن المسير، وقرأت اللافتة الكبرى «الشركة المتحدة للتصدير والتوريد والنقل» ونظرت إلى الداخل، عديد من الموظفين والموظفات يروحون ويجيئون، ومكاتب كثيرة أنيقة، وأجراس التليفونات تدق، والأنوار الكهربية مضاءة برغم الشمس التى تزحف نحو وسط السماء، وكانت تحس بالتعب والإرهاق الشديدين، فقد مرت الساعات منذ خروجها من البيت، وهى لم تكف عن المشى، ولم تستطع أن تنحى عن رأسها عشرات الأفكار المتلاطمة

المختلطة التى تنثال انثيالاً دون رابط يربطها، وشعرت بأنفاسها تتلاحق وقلبها يدق، ورأسها يدور، لشد ما هى متعبة، مكدودة الروح والجسد!! وفكرت فى أن تدخل الشركة، وتطلب عملاً ترتزق منه، أى عمل، ولتنسَ مؤقتًا أنها كانت صحفية كبيرة ولها قلم يهز القلوب، ولتنسَ أنها كانت سكرتيرة خاصة ذات يوم، وتقبض مرتبًا كبيراً.

وفى خطوات كليلة متعبة دخلت الشركة، وعيون كثيرة متلصصة ترقبها من خلف المكاتب والحواجز الزجاجية، وهمسات تدور لا تدرى ما يبررها، ولا تسمع كلمة منها.. وحينما التقت بأحد السعاة قالت فى لهجة آمرة توحى بالثقة والكبرياء:

- المدير موجود؟

فقال الساعى وهو يرفع يده بالتحية:

- أجل.. أهناك موعد سابق يا أفندم؟

فتجاهلت سؤاله تمامًا، وصرفت وجهها عنه وهى تقول:

- أين حجرته؟؟ لتسر أمامى..

كانت طريقتها فى الكلام، وسمتها المهذب، وفتلتها الطاغية، وثقتها الزائدة بنفسها، كلها أشياء ترغم الساعى على

أن يطيع وأن يمضى أمامها دون تردد أو اعتراض وعند باب مكتب المدير، وقف الساعى وأدار وجهه نحوها، ويده تشير إلى مصباح أحمر أعلى الباب:

- لحظة واحدة . .

فجمدت فى مكانها، وعرق بارد يتصبب على جسدها، وهى تغمض عينيها خجلة فى حزن، وتحاول جهد الطاقة أن تتماسك، حتى تجتاز التجربة المريرة كما اجتازت عشرات غيرها، إن ضياء- رجلها- فى السجن، والصحيفة قد سحبت رخصتها وأمها حزينة ثائرة، وأبوها الرجل النبيل لا يتكلم بسوء ولا يحاول أن يجرح شعور ابنته، بل يدافع عنها بحرارة، وعن زوجها السجين، والأزمة المالية التى تهدد مستقبل الأسرة تلقى على البيت ظلاً كئيبًا . . تذكرت صفاء كل ذلك وهى تقف وحيدة أمام مكتب مدير الشركة، بعد أن دخل الساعى إليه، وأغلق الباب . . لحظات تمر لكنها دهر، ورأسها يدور ورعشة داهمة تسرى فى كيانها لا تدرى لها سببًا . .

وفتح الساعى الباب ودخلت، ووقفت أمام رجل فى حوالى الخامسة والخمسين من عمره.

- صباح الخير . .

- صباح النور . . تفضلى .

وجلست إلى كرسى فى مقابلته .

- أية خدمة؟

- أريد عملاً .

- مؤهلاتك؟

- بكالوريا .

وزم الرجل شفتيه فى شىء من الامتعاض ، كانت نظراته تجوس خلالها وتزحف على وجهها وثغرها وصدرها ، وذراعيها ، ولم يفارقه امتعاضه وهو يقول :

- أغلب الموظفين والعمال هنا فنيون . .

- لكنى أجيد استعمال الآلة الكاتبة؟

- عربى؟؟

- عربى وإنجليزى . .

فقال المدير وهو يخلع طربوشه ويضعه أمامه ، ويصفق بكلتا يديه :

- قازوزة يا دهشورى . .

وانطلق الساعى بينما استطرد المدير :

– كم كلمة فى الدقيقة تكتبين؟

– أربعين . .

– رائع . . وبعد قليل نجرى لك الامتحان . . ونرى، وأعتقد أنك ستشعرين هنا بالراحة والانسجام . . نحن هنا فى الشركة نعيش كأسرة واحدة، نتعاون ونتفاهم ونحيا حياة سهلة بلا تعقيد أو إرهاق .

وطربت لحديثه أيما طرب، كان الرجل رقيقًا ودودًا، كلماته القليلة تنبئ عن معدن طيب، وأدب جم، وأشرقت روحها بالأمل، ستعود إلى البيت . . إلى أبيها وأمها تحمل جواز المرور إلى الهدوء والراحة والرضى . . الوظيفة، وتحل كل الأزمات، وتكف أمها عن همساتها الخانقة، ولا تعود للتصدى لضياء الدين ومهاجمته، وتنتهى مأساة البطالة والفراغ والعذاب الطويل، وستستطيع الوظيفة الجديدة أن تنسيها بعض الشيء ما تقاسيه بسبب السجين الذى يعيش خلف القضبان وكله أشواق للحياة، وفى قلبه تضج رغبة عارمة للنضال، ومواجهة أعداء الشعب وجلادى الحرية، وزبانية الاحتلال . .

وعندما أحضروا الآلة الكاتبة، جلست صفاء أمامها، ثم فتحت كتابًا أعطاه لها المدير، لتنقل منه، وأمسك الرجل

بساعته، وأعطاها شارة البدء. كانت أناملها اللدنة الطرية توقع على الحروف وكأنها تعزف قطعة موسيقية فوق بيانو، والأمل الذى يداعب خيالها يبعث فى كيانها نشوة، ويثير فى قلبها الحماس، وظلت هكذا لبضعة دقائق، والمدير لا يرفع نظراته عنها، ويدقق النظر فى الوجه الشاحب الجميل، والعينين الفاتنتين والشعر المنسدل المثير، ولم تلتفت صفاء إلى نظراته الشرهة وهى تكاد تلتهمها التهامًا، كانت ذائبة بكل روحها وقواها فى العمل المنوط بها، عيناها على صفحات الكتاب، وأصابعها على حروف الآلة الكاتبة، ورفعت رأسها عندما قال الرجل:

- قفى.. تستطيعين الآن أن تعطينى ما كتبت.. ثم تشربى القازوزة.. وتنهدت فى ارتياح وهى تسلمه الورقة، كانت نظراتها لم تزل زائغة، وأشباح الحروف تتراقص فى مخيلتها، وتكاد تحجب عنها صورة الرجل الذى يبتسم لها فى رقة، وارتشفت جرعات من المشروب ثم أغمضت عينيها محاولة أن تسترد هدوءها وطبيعتها، وتمتم الرجل: «عظيم..».

وأخذ الرجل يطرق أبوابًا مختلفة من الحديث، أغلبها يدور حول الشركة والعمل والموظفين، فهمت من كلامه أنه على أتم استعداد لقبولها كموظفة ضمن الجيش الكبير الذى يعمل فى شركته، لكنه قال فجأة وبلا مقدمات:

- لماذا ترغبين فى العمل؟

- لقمة العيش . .

- ولم لا تتزوجين؟

وشعرت بضيق شديد جارف يطبق على قلبها، وهمت بأن تصرخ فيه وتقول له : إن هذا ليس من شأنك، وأنها أتت هنا للعمل وليس للمناقشة فى أمر زواجها، لكنها كظمت غيظها، وقالت باقتضاب :

- لم يئن الأوان بعد . .

- هذا الجمال كله و . .

فقاطعته فى شىء من الجفاف :

- أعتقد أن هذه مسألة لا تهمك فى شىء ..

- على النقيض مما تقولين تمامًا. هذه مسألة فى غاية الأهمية. أنا مثلاً رجل قد تخطيت الخمسين، ومع ذلك لم أزل أحب الحياة، وأعشقها بكل روحى، تصورى أنى تزوجت فى العام الماضى فتاة فى العشرين من عمرها؟ ليس هذا فحسب، بل إن لى «دهبية» فى النيل أقضى فيها سهراتى حتى الصباح فى متع فريدة . . ألم أقل لك إنى أحيا حياتى بكل كيانى؟ . .

كانت صفاء مذهولة وهى تستمع لهذا الخليط العجيب من الكلمات التى تصدر من مدير شركة، أية رابطة تربط بين ما تسمعه وبين الطلب الذى جاءت من أجله، وبدا لها أن المدير قد يكون ملتاثًا فى عقله، أو أن بقايا السكر فى الليل لم تزل تلعب برأسه، وتبعث الاضطراب والخبل فى كلماته، وراودها خاطر مزعج، أتتعرض مرة أخرى للمأساة التى عانتها مع رئيس التحرير ذات يوم.. لا.. لا.. مستحيل.. وهل تفلت الوظيفة بعد أن داعبها الأمل، وأشرقت روحها ببوادر النجاح والخلاص من الأزمة التى تجثم كالظل الكئيب على بيتها الوادع، و.. وجذبت يدها بسرعة هكذا فجأة، بعد أن شعرت بيد المدير تلامسها، وهبت واقفة وهى لا تصدق نفسها، وانطلقت قهقهة عالية.. وتطلعت بعين تسدها الدموع.. نفس المأساة.. الرأس الأشيب المصبوغ.. المكتب الحجرة المنعزلة التى ليس فيها سواهما، ولعاب ذئب يسيل، وأجراس التليفونات تدق حبيسة فى الخارج وكأنها تختنق، وضوضاء خافتة تطن فى أذنيها كالاحتضار، وهى تقف وكأنها فى حلم رهيب، أملها يموت، وثقتها فى الناس تموت، ونظرت إليه فى احتقار:

– ليس كل الطير يؤكل لحمه.

– حتى ولو كان لذيذًا طازجًا يا فتاتى؟

- أيها الرأسمالى العفن.

وأسرعت خارجة وهى تبصق، ثم سحبت الباب وراءها وكأنها تصفع وجه الذئب المفترس الذى يتربص خلف مكتبه الأنيق، يسيل لعابه، وتنبثق من عينيه الشراسة والنهم والآثام.

الشارع لم يزل يكتظ بالناس، والباعة يصخبون، وبعض الأيدى العجفاء تمتد «لله يا محسنين»، وعربات أنيقة تنطلق مسرعة وبداخلها نساء كعرائس الحلوى، وكلاب نظيفة، وزهور ورياحين وجواهر تتألق، وعلى جانبى الطريق مبانٍ شاهقة. وشركات عديدة فيها موظفون ومديرون، وأنهار من ذهب والمدير يمتلك «الدهبيات» ويتزوج الصبايا صغار السن. ويقضى لياليه الحمراء فى ملذات لا تنفد، وبعض الجنود الإنجليز يسيرون فى كبرياء يدقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة، ووجوههم وشعورهم المنسقة تلمع تحت وهج الشمس، ويطيلون النظر إلى فتيات على جانب الطريق، وصفاء تسير.. وتسير.. وصورة خطيبها السجين ترفرف فى خيالها بجناحين من نور، وصورة شعبها السجين تصرخ فى ضميرها مؤرقة معذبة.. وتمتمت فى حزن:

- ليست المأساة فى البحث عن وظيفة صعب المنال، وإنما المأساة فى حقيقتها هى البحث عن عدالة شاملة.. عن حرية

كاملة تؤمن بحق الإنسان . . وعندما نصل إلى حل بالنسبة لقضيتنا الكبرى ، فستذوب المآسى الصغيرة من تلقاء نفسها . .

وعادت إلى البيت محطمة ، لم تحاول أن تنظر فى وجه أبيها ، أو تواجه نظرات أمها ، وإنما دلفت إلى داخل حجرتها ، تاركة لدموعها العنان . .

□□□

[٢٨]

كان بركات الزنارى يجلس مع حرم الباشا فى حجرة واحدة، ولم يكن خافيًا أن بركات يبدو فى قمة السعادة، وأوج الانشراح، لقد أغلقت جريدة النهضة العربية، وألقى القبض على ضياء الدين، وهو لا شك يستشعر الآن مرارة الحرمان، وقسوة السجن، وخيبة الآمال، يعيش هناك يعض على أنامله من الغيظ : «كنت على ثقة تامة أن سذاجته سوف تقذف به إلى الجحيم» أية لذة خبيثة كانت تسرى فى كيان بركات وهو يستعرض ضياء الدين وضيعته؟! وتصور بركات صفاء وهى وحيدة حزينة بلا عمل وبلا صديق، فراوده إحساس الشماتة القاسية، وأخذ يتصور تصورات بلهاء تافهة ويناجى نفسه : أأذهب إلى صفاء فى هذا الوقت لأعرض عليها خدماتى؟ أأنتظر حتى تأتى هى إلىّ بنفسها تطلب العون وتستنجد بى لدى الباشا كى يتوسط لها فى الإفراج عنه؟؟».

وأفاق من هواجسه، كانت حرم الباشا تجلس قبالته، وأمامها زجاجة خمر إلى نصفها، وكأسان ممتلئتان، وفى عينيها رغبة إثم، وبركات هو الآخر يجلس فى منامة حريرية، يغزو فؤاده شعور الانتصار، انتصر على الفقر على ضياء الدين وصفاء، وانتصر أيضًا على الباشا، وتطلع إلى «الغنيمة» حرم الباشا، إنها الآن بين يديه كطفلة صغيرة، أسلمت إليه مصيرها وشرفها وكثيراً من مالها، فما كان من بركات إلا أن مثل دور الذئب فى براعة صفيقة يحسد عليها، الباشا هو الذى رفعه إلى مصاف الآلهة الصغيرة والباشا هو الذى أغدق عليه، وفتح أمامه الطريق إلى الجنة التى كان يحلم بها، غير أن بركات لا يعترف بكل ذلك، إنه يؤمن بأنه كفاءة ممتازة، وقد استطاع بذكائه ودهائه أن يصل إلى القمة، لا فضل لأحد عليه ولا حتى الباشا نفسه، إن بركات يحس بكره عميق للباشا، كان يكره الباشاوات من صغره، وينظر وهو فى الحضيض لناس فى القمة نظرة فيها التحسر والألم، ثم بدأ يفكر فى الصعود على السفح متجهًا نحو القمة، وعندما بلغها كان هناك عثمان باشا. وقبل بركات يديه ورجليه وملأ الصحف والمجلات مديحًا وثناء على الباشا صاحب «الأفضال». والقلب الكبير، والوطنية المخلصة، التى لا تعرف المساومة على حقوق الشعب. ولا تفرط فيها أدنى تفريط.. ومع هذه الكلمات

الطنانة ومطولات المديح الجبارة كان يكن له الحقد كما يكنه لكل الناس، وبركات لم يحب أحداً فى حياته أحب صفاء فقط ذات يوم فسخرت منه وحطمت كبرياءه، وبصقت على منصبه، ولم تكترث لأشواق قلبه الواله، وجرت خلف رجل يدعى المثالية الجوفاء حتى قاد نفسه إلى السجن، وتركها للفقر والأسى، كانت صفاء حسبما يعتقد بركات غبية مغرورة، وهكذا تحولت قصة حبه الوحيد فى صحراء حياته القاحلة إلى قصة بغض هائل . . بغض غامض لا يدرى كنهه، ولا يفهم تطورات المناقضة .

ورفع بركات عينيه ليرى حرم الباشا تقدم له الكأس .

- فى صحتك . .

ثم استطردت قائلة :

- أنت غارق فى صمتك، وأنا أحترق .

- والاحتراق يبعث الدفء فى قلبى، ويثير النشوة فى روحى .

- أيها الشيطان . . أنت تستعذب عذاب الآخرين .

- الجميلات فقط .

وضحكت وهى تلقى برأسها إلى الخلف، فينسدل شعرها

المنساب فوق كتفيها، ويضىء عنقها البض وجزء من صدرها، وتشرب ويشرب، ثم تمسك شعره بقسوة يتألم لها، وتقول له:

- أتخاف منه؟

- ممن؟

- زوجى.. صاحب المعالى.

- لا أخاف.. إنه لا يعود قبل يومين من العزبة.. ولكن أخاف حقيقة ألا تعطينى المائة الجنيه، وأنت تعلمين أنى غارق فى الديون.

- يا ابن الشيطان.. أنت بالوعة..

- لست أنا.. ومع ذلك أتستكثرين هذا المبلغ على مثلى؟

- إن أردت الحقيقة فأنت لا تساوى سوى بصقة فوق وجهك..

- عند ذلك أرتدى ملابسى وأخرج..

- وقبل أن تفعل ذلك سأشهر مسدسى، وأطلقه على رأسك.

وضحك بركات من أعماق قلبه وهو يقول:

- يا لك من رهيبة.. بدأت أخافك.

ثم أمسك بها ودفعها بعيداً إلى حيث ارتمت على أريكة مجاورة، فغمغمت:

- هذه القسوة تقربنى إليك. . زوجى العجوز لا يستطيع أن يخنق قطة! . .

قلبه ضعيف لدرجة الموت.

وبدا على بركات أنه لم يعِ تمامًا ما قالته إذ سرعان ما أردف:

- المائة الجنيه أولاً.

فقالت فى تمرد وحنق، وعيناها تطلقان بريق الشرر والغضب:

- لشد ما أكره حديثك عن المال فى هذه الأوقات الممتعة؟

- لأنك تعيشين فى ثراء فاحش ولم تقفى موقف المدين فى حياتك.

- أؤكد لك أنى سأعطيها لك هذه الليلة.

فقال وهو يترنح من أثر السكر:

- الشكك ممنوع، والزعل مرفوع، والرزق على الله. .

- لسنا فى محل بقالة أيها الوغد. .

وتوالت ضربات متلاحقة منزعجة على باب الحجرة، وشحب وجه بركات، ووقف شعر رأسه، وتسمر فى مكانه كتمثال من الرعب، بينما صرخت هى فى ضيق:

- ما هذه الضوضاء؟؟

وظلت الضربات تتوالى، وكأنها صوت استغاثة، بل إنذارات للخطر المحدق، وراودها الخوف الذى أخرس لسان بركات، ودارت عيناها فى محجريهما قلقة متوسلة، وأسرعت ناحية الباب، وعالجته فى ارتباك حتى فتح، فوقع بصرها على خادمتها الخاصة وقد انفرطت من عينيها الدموع وهى تقول متلعثمة:

- الباشا وصل..

- غير معقول!!!

فجاءها صوت أجش، صوت وحش جريح يعوى من الألم:

- غير معقول أن أظل أبله طول حياتى.. الفلاحون فى القرية كانوا يقولون دائمًا إن اللص يسرق ويفلت مرتين، لكنه يقبض عليه متلبسًا فى المرة الثالثة، أما أنت- كلصة ماهرة- استطعت الإفلات عشرات المرات..

ووقفت جامدة فى مكانها، كان الباشا يخطو بعوده الفارع، وهيكله المحطم، وعينيه اللتين خبا فيهما بريق

الانتصار والكبرياء والقوة، كان برغم تحديه وعناده وفورة الغيرة على العرض التى اجتاحته، يبدو حزينًا تعسًا، الرجل الذى يسوق الآلاف بعصاه، ويلقى التصريحات فتهتز جنبات مصر، وتخرج أفواج المتظاهرين تطالب برأسه، هذا الرجل يخطو الآن ذليلاً محزونًا، أمام زوجة شابة تطعنه فى الصميم. وأمام لص وغد جعله سكرتيره الصحفى، وانتشله من وهدة الضياع والفقر.

وتمتم الباشا وهو يقف على باب الحجرة:

- القتل عقوبة تافهة بالنسبة لجريمتكما. . لكن هناك عقوبة أشنع من القتل. . ألا تعلمان ما هى؟؟ حسنًا. . أنتما فى وضع سيئ، ولا يمكنكما التفكير، ثم إنكما أغبى من أن تدركا معناها. .

وصرخ بأعلى صوته، وخرج صراخه جريحًا موتورًا وهو يقول:

- محكمة!!

وحينما قال ذلك، شهقت زوجته على الرغم منها، وانتفض بركات الزنارى فى وقفته، وانطلق الرجل يقهقه كمجنون ثم قال:

- حكمت عليكم لا بالموت. . ولكن بالحياة. . أنت يا

بركات ستعود كلبًا حقيراً تبحث عن طعامك فى مخازن القمامة والقاذورات . . وأنت يا حبيبتى الفاتنة تسيرين فى الشارع بلا مال ولا عربات ولا رجل . . والليل أسود من حولك كوجه الشيطان كوجه بركات الزنارى الحقير . . لكن يجب أن توقعى على هذه الورقة أولاً .

وبيد مرتعشة وقعت على الورقة كانت تريد النجاة بأى ثمن، لم تكن تحلم بأن زوجها الجبار العنيد سيتركها تحيا، لم تحاول أن تقرأ شيئًا مما كتبه بخصوص اعترافها بخيانتها له مع بركات، وبتنازلها عن كل حقوقها التعويضية، وأنها تسلمت كل ما لها من حقوق شرعية وليس لها أدنى حق في المطالبة بشيء بعد ذلك . .

وتمتم الباشا بعد أن تحققت رغبته :

- الآن تستطيعان الذهاب إلى حيث تشاءان . . الباب مفتوح، والخدم يتراصون على جانب الممشى، وأزهار الحديقة يفوح عبيرها رغم رائحة الجيفة والقاذورات، ومعذرة يا عزيزتى إن كنت لن أعطيك مليمًا واحدًا ولا أية قطعة من قطع الثياب . . ستخرجين كما أنت . . وبركات هو الآخر بمنامته . . حرم الباشا تمشى بقميص النوم فى الشارع . . يا له من خبر مثير . .

والتفت إلى بركات :

- وأنت يا بروتس الحبيب لم تخسر شيئًا . . لأنك كنت دائمًا- وما زلت- كلبًا حقيرًا ، من السهل أن تتشمم الأحذية ، وتهز ذيلك ، وتتمسح فى ثياب السادة . .

وفرت السيدة مذعورة لا تصدق أنها نجت ، وتبعها بركات فى صمت كئيب ، وشعر وهو يتبعها بشىء يرتطم بعنقه من الخلف ، كان الباشا يضربه بفردة حذاء . .

- إنى أودعك الوداع اللائق بك يا سكرتيرى الصحفى النبيل . .

كانا يلهثان ويتخبطان فى الطريق الموحش الخالى من المارة ، والليل ممتد كالأكفان الشاحبة بفعل الأضواء الكهربية الخافتة المتباعدة لم يتبادلا كلمة واحدة ، وعند أحد المنحنيات قالت :

- إلى أين؟

- إلى شقتى . .

- وأنا؟

- أليس لك أهل؟

- كلا . .

- من أنت؟؟

- راقصة سابقة فى كباريه . .

- اذهبى إلى ماضيك هناك .

- ألن تأخذنى معك؟

فقال بلهجة قاسية حانقة :

- اذهبى إلى الجحيم . .

ثم تركها ومضى وكأنه يفر من وباء، ولم تتحرك فيه إثارة من رحمة عندما كانت أذنه تستقبل شهقاتها التعسة .

***

جلس الباشا فى حجرته يغلى، وطنين ضخم يهز كيانه ويتسلل من مسمعه إلى وجوده كله، ومطارق لا يراها تدق رأسه الذى يكاد ينفجر، والمأساة متجسمة كلها أمام عينى ضميره المعذب اليائس، لقد باع أولاده البنين والبنات من أجل راقصة أحبها وتزوجها، كان يدلف إلى شتاء العمر، وراقصته التى سلبت عقله تتبختر فى الربيع الزاهر فعاش هو الآخر فى ربيع كاذب من صنع وهمه وكبريائه . . وهكذا حنق عليه بنوه وبناته، تمامًا مثلما حنق عليه الفلاحون، وأفواج المتظاهرين وكما حنقت هى الأخرى بعد أن طردها منذ قليل، وبركات النذل الوقح لن يكون هو الآخر أقل حنقًا وسخطًا من هؤلاء جميعًا . . لم يعد له رفيق فى أساه سوى الخدم ومنصب

الوزارة، وكلمة الخادم أو الوزارة فى مفهوم عثمان باشا لا تخرج عن معنى الخيانة . . كلاهما غدر .

وأخذ يتذكر تلك اللحظة التعسة التى جاءه فيها رئيس الخدم وهمس بالخبر المشين الذى انقض عليه كالصاعقة . . إن «الهانم» تخون «الباشا» مع «بركات الزنارى» ولأول مرة يتحلى الباشا بالدهاء والحيلة ويرسم خطة جهنمية، ليرى المأساة بعينيه، ويقبض عليهما متلبسين بالعار، كان يحس بلذة نهمة لرؤية هذا المشهد المثير الذى قد يحطمه . . أية نوازع شرَيره وملتوية تحاول أن تدفعه لهذا الشذوذ؟

وتظاهر بالسفر، وخرج من باب وبعد ساعات عاد من باب آخر، كانت الكئوس- مثل الرءوس- فارغة تمامًا إلا من رائحة آثمة، وكان فى العيون خطيئة، وفى الحجرة أنفاس ملوثة، وبركات يجلس إلى جوارها كإبليس، وهى تتمدد مثل كتلة من عربدة وحيوانية ونسيان .

وتمتم فى ثورة :

- أنا؟ من أنا؟ هناك فى الحزب والصحف معالى عثمان باشا وزير المواصلات، وهناك فى العزبة الباشا صاحب الطين والقصر والسلطان . . وها . . هنا فى بيتى، وبين نفسى عجوز تافه . . تخونه زوجته الراقصة السابقة . . ويخونه بركات

الزنارى السافل ولا أزيد على ذلك. . وينقم عليه أولاده. ويسخر من كارثته الخدم. . آه. . عندما يموت الإنسان يجد أن كثيرًا من المشاكل قد حلت. . وربما كل المشاكل. .

واعتكف الباشا فى بيته لأسباب صحية كما زعمت الصحف، ولأسباب سياسية وخلاف جوهرى فى الرأى كما زعم العالمون ببواطن الأمور، وفى فترة اعتكافه بقى وحيدًا لا يزور ولا يزار، وشبح المأساة الدامية تؤرق عليه نومه، وتعكر عليه صفوه، وتأبى أن تفارق ذهنه ليل نهار، وطغت على مشاكل العزبة وما يدور بين الفلاحين والناظر الجديد، وأنسته الثورات التى تجتاح وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه هاتفة بسقوط الخونة، منددة بتصريح عثمان باشا، مطالبة بالحرية والجلاء والاستقلال ووحدة وادى النيل. .

وقرأ فى صحيفة الحكومة ذات يوم خبرًا مؤداه أن عثمان باشا وزير المواصلات يفكر فى الاستقالة، لأسباب صحية، فاتصل بالجريدة ونفى ذلك نفيًا باتًا، وأرسل بيانًا يكذب فيه الخبر تكذيبًا قاطعًا، وانتظر نشره فى اليوم التالى، لكن عينيه لم تقعا على البيان المرتقب، فأدرك على الفور أن فى الأمر خديعة، واستطاعت حاسته المرهفة فى تلك الأيام أن تلتقط رائحة مؤامرة، وسرعان ما خرج عن عزلته، وأجرى

اتصالات واسعة وبذل المال والوعود، لكن بدون جدوى، وجاءه الأمر الملكى الصارم:

- قدم استقالتك وإلا أقلناك.. نحن نعلم أنك مسكين وضحية.. لكن سلامة الوزارة والاستقرار يستلزمان هذه التضحية من صاحب التصريح المشهور..

ويوم أن قدم استقالته شعر بأن لسانه يتحرك بصعوبة، والكلمات تخرج من فمه ببطء متعثرة مبتورة، ونصفه الأيسر بارد عديم الحساسية لا يستطيع الحراك. وهمس الطبيب فى يأس:

- شلل نصفى..

وتلفت الباشا حوله عاجزاً مقهوراً ضائعاً والدموع فى عينيه وغمغم:

- احملونى إلى بيت أولادى..



خاتمة

الأيام والشهور تمر قلقة حزينة، وأنين الضحايا والمعذبين يغرق فى خضم الرصاص وبيانات التهديد والوعيد، وطبول النصر المزعوم تدق فى رعونة وافتراء لتطغى على أصوات الثائرين، وجنود الاحتلال تتحفظهم الأيدى الخفية وتغرقهم فى المقبرة الكبيرة، والأرض تهتز وتميد، وتخفت حدة الرياء والطبول الجوفاء، ورويدًا رويدًا ترتفع صيحات الأحرار والمؤمنين وتتغلب على ما عداها . .

ويسقط صدقى . .

ويسقط معه دستوره المزيف، والهياكل الجوفاء التى صنعها الزيف والطغيان.

ويحنى الملك رأسه حتى تمر العاصفة، ليرفعها من جديد . .

ويختفى المندوب السامى ليتيح الفرصة لأدوات التخدير كى تنيم الشعب، وتصب ثلج الوعود على حرارة ثورته.

وتجيء وزارة جديدة تعيد الدستور، وتجرى انتخابات حرة.. حرة فى ظل الاحتلال والفساد والظلم الاجتماعى.

***

وأمام السجن جموع حاشدة تهتف للحرية والأحرار والأمل الكبير فى الغد، وصفاء تقف فى ناحية وحدها، وتضع على وجهها شالاً أسمر، وعيناها مركزتان على الباب الأسود الكبير ترقب موعد فتحه..

وبرز فى البداية رئيس التحرير.. كان يعرج، ويتكئ على اثنين من تلامذته المحررين، ويبتسم فى ثقة وأمل ورضى..

ومن خلفه خطا ضياء الدين، منتصب الهامة كالعهد به، ونظراته من خلف النظارة البيضاء تبحث عن شيء فى لهفة، وعندما رأى شبحًا مقبلاً نحوه نسى لياليه السوداء، وقلبه الجريح، والقضبان الصدئة القاسية التى لا ترحم، وهتف بصوت تظهر فيه آثار دموع الفرح:

- صفاء.. هل جئت؟

فهمست وهى تعانقه فى ود:

- كنت معك بروحى دائمًا.. مبروك..

- الله يبارك فيك.. إن التهنئة الكبرى لن تكون إلا عندما يتحرر شعبنا السجين من الاحتلال والإقطاع والضياع.. نحن

ننتظر مطلع الفجر على يد رجل عملاق من صميم الشعب يؤمن بالله . . وبالحب . . والسلام والحرية . .

فابتسمت فى ثقة وهى تقول :

- هذا الرجل الموعود سيصنعه نضالنا ، ستصنعه الليالى السوداء الدامية التى أرهقت عيوننا ، ويصنعه المجد المنتظر لأمتنا . . ذلك المجد الذى نحلم به ونريق من أجله الدم والدموع وليالى العمر .

وأمسك بيدها وسارا وسط الزغاريد والطبول والمزامير الشعبية ، وآلات التصوير يخطف بريقها الأبصار ، ومندوبو الصحف يزحمون الطريق ، ويلتقطون الكلمات التى تخرج من فمه . . الكلمات الشريفة الواثقة التى تنطلق كالنور فى الطريق المعتم الطويل .

□□□